

مسافر عيد جميع القديسين

رواية بوليسية

مسافر
عيد جميع القديسين



اســـم المـــؤلـــف : جورج سيمنون
العنوان الأصلي للكتاب : Le Voyageur de la Toussaint
عـنـوان الـكـتـاب : مسافر عيد جميع القديسين
المـتـرجـم عبد الله عويشق
الـنـاشـر : دار المدى للثقافة والنشر
تـاريـخ الـطـبـع : ١٩٩٦

الـلـوغـو : علي شمس الدين

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد ، ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ، ٧٧٧٢٠١٩٠ – ٧٧٧٦٨٦٤ – فاكس ، ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت – لبنان صندوق بريد ، ٣١٨١ – ١١ فاكس ، ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

جورج سيمنون

مسافر عيد جميع القديسين

منشورات







المسافر خلسة

- ١ -

كان جيل موفوازان يتطلع من دون أن يرى : عيناه حمراوان ، وجلده مقرّح مثل شخص بكى كثيراً ، علماً بأنه لم يكن قد بكى .

وكان القبطان «سولدال» ، قد طلب إليه أن يبقى متأهباً ، وأن ينتظر في قمرة الحبال والبكرات وأدوات مناورة الأشرعة التي تناول طعامه فيها طوال فترة العبور .

ومكث جيل ينتظر ، مرتدياً معطفاً ليس له ، وقبعة سوداء على رأسه من جلد ثعلب ماء ، بجانبه حقيبة يده مثلما في رواق قطار قبل الوصول ، وفي يده منديل بسبب زكامه .

لقد صاروا الآن وسط حوض المراكب الجذّافة ، التي يجري الصيد فيها بجر الشبكة وراء المركب ، من دون أن يتراءى له شيء من مدينة الـ «روشيل . أم لعلها كوة قمرته هي التي تقع في الجهة غير المناسبة ؟ في البحر ،كادوا أن يمسوا طوّافات حمراء وسوداء على سطح الماء ، ترسم ولا بد حدود الممر المائي الضيق الذي يتعين اتباعه . ثم تعاقبت شجيرات تاماري قريباً جداً من هيكل الـ

« فلينت » وقد بدأت المناورات : رنين جهاز البرق ، سرعة نصف ، ستوب ، الى الوراء ، قف ، الى الأمام .

وظل يبحث بعينيه عن المدينة ، و« الفلينت » وسط الحوض تدور حول نفسها ، لكنه لم يكتشف الا قضبان سكة حديدية ، وعربات قطار يبدو أنها مهجورة ، ثم مركباً قديماً طليت أماكن اتصال أجزائه بمنيوم أحمر ، أوكسيد الرصاص ، للحماية من الصدأ ، ثم تلعة حلق زرعها ، وأبنية تبريد .

ويكاد الظلام يحل ، بل حل الظلام . ضباب ضارب الى الصفرة مايزال يحتفظ بانعكاس باهت للشمس . وقضبان سكة حديدية أخرى ، وعربة قطار صهريج ، وهناك ، أمام جيل بالضبط ، قريباً جداً منه ، ثنائي ، شاب وشابة متعانقان ، وبجانبهما دراجة هوائية متكئة على عربة القطار .

هذا الثنائي ، كان عموماً أول رؤية لمدينة الـ : روشيل وقع بصر جيل عليها . وكان الرجل مديراً ظهره له ، يرتدي معطفاً واقياً من المطر أصفر اللون . لم يكن يضع قبعة ، وشعره البني غزير . وبالنسبة للفتاة ، لم يكن جيل يرى إلا شعرها ، هو الآخر بني اللون ، وعينا مفتوحة لآخرها ، عين تنظر إليه ، هو ، بينما بقيت شفتاها ملحومتين الى شفتي رفيقها .

كان ثمة شيء غريب في تلك القبلة التي لا تنتهي ، وبخاصة في تلك العين التي انفلتت نظرتها اذا جاز القول ، وأتت تقطف صورة وجه جيل وهو في قمرة أدوات التحكم بالأشرعة .

وانتفض . فقد سكنت حركة الفلينت ، ووقف سولمدال هنا ، وقد حلق ذقنه حلاقة ناعمة ، شأنه في كل مرة يهبط فيها الى البر ، تفوح من شعره الأشقر رائحة ماء كولونيا ، وجذعه مشدود بقوة في سترة

صدر جديدة مذهبة الأزرار . وأعلن :

ـ اللحظة هي الآن .

ولم يجد جيل الكلمات . كان يُفترض أن يشكره . وكان يفيض امتناناً نحو هذا القبطان المفعم حياة الذي أولاه رعاية تكاد تضاهي حدب امرأة . وشعر بالرغبة في أن يلقي بنفسه على صدره . ولكن سولمدال ما كان ليحب ذلك . فشد على يده بحركة مرتبكة خائبة وشرق بأنفه . إنه زكامه . لم يجرؤ على أن يسحب منديله الذي كان وضعه في جيبه . ثم مضى يهبط الدرج وفي يده حقيبته .

كان الضباب قد تبدد ، ولم يبق الآن منه إلا بخار أزرق بثنايا بنفسجية يرف معلقاً فوق الميناء ، والمصابيح مضاءة في أعلى أعمدة النور .

وعند الجسر ، كان أحد البحارة ينتظر جيل بمحاذاة ومقابلة رصيف الميناء ، بالقرب من الحاجز . وخطا جيل من فوقه ، وترك نفسه ينساب منزلقاً مع درج الزورق المرشد فوجد نفسه واقفاً في مؤخرة أحد القوارب وحقيبته عند قدميه .

بدا بذلك أطول قامة أيضاً ، أشد نحولاً ، وأضيق جسداً . وزاد من الأمر معطفه المفرط في الطول وواقع أنه ، في حالة الحداد التي هو فيها ، كان باللونين الأسود والأبيض . وارتفع يُسمع صوت المجاذيف في اصطفاقها بماء الحوض البحري الذي أخذت انعكاسات أنوار المصابيح تستطيل ممدودة عليه . وهاك ، ففي اللحظة التي وثب جيل فيها الى البر رأى مجدداً ، أمامه بالضبط ، المعطف الواقي الأصفر ، وظهر العاشق ، وعين الشابة . يكاد المرء يعتقد أن القبلة ذاتها هي التي ما زالت مستمرة .

وأخذ جيل يميز الآن ، فوق كتف الشاب ، يداً وأنامل صغيرة

نسوية ، وهذه الأنامل صارت تقرص قماش المعطف الغباردين وهي تشده .

وبدا لجيل أنه يحس حرارة الجسدين تسري فيه ، وطعم لعاب هذه القبلة التي لا تنتهي ، وخصلات الشعر تمس خده ، وتلك الحركة من اليد وهي تعني :

ـ دعني . . . أفلتني .

ولكن العاشق الذي كان مديرا ظهره للحوض لم يفعل إلا أن ضمها بقوة أكبر ، وهي تختلج مثل عصفور يحاول أن يتخلص من اليد التي تمسك به أسيراً .

واضطرت لأن تتخبط بعنف . وشاهد جيل كامل الوجه تقريباً ، وجه فتي لدرجة ، بحيث أشعره ذلك ببعض الضيق والحرج .

هل سمع ؟ أهو لم يسمع ؟ يبقى أنه كان على يقين من أنها قالت :

ـ انظر إليه !

وكان هو من أشارت تدل عليه ، وعندئذ فقط أدرك ما يمكن أن يتمثل من غرابة تخرج عن المألوف في نزوله الى البر على ذلك النحو ، وفي طول قامته غير المتوقع ، وحقيبته الصغيرة المثيرة للضحك .

واشتبكت قدمه بسبب من الخجل الذي أصابه بالحبال والأسلاك على الأرض ، متجنباً في آخر لحظة السقوط مطروحاً بكل قامته ، ثم بلغ أخيراً طرف الرصيف وأمكنه أن يكتشف من هناك ، عبر الأبنية ، أنوار المدينة ، والفنار المكفهر البارز على نحو غريب مما بين منازل رصيف فالين البحري .

* * *

عند زاوية الرصيف بالضبط ، وفي مواجهة «المدينة الخشبية» يقوم مشرب صغير مريح ، له حاجز للساقي من خشب الأكاجو ، وفيه عدد قليل من مقاعد صغيرة بلا ظهر ، وبضع طاولات ، وأقداح من الكريستال على الرفوف .

وكان راوول بابان جالساً في مكانه فيه ، بكل وطأة ثقل جسمه ، اذ كان شأنه أن يجلس على المقعد بطاقة شديدة ، بحيث يبدو وكأنه يبغي سحق المقعد تحت كتلة جسده .

ولم يكن يفعل شيئاً . بل يبقى جالساً ساعات وساعات هناك ، كل يوم ، يدخن السيكار بعد السيكار ، بحيث إن كل تلك اللفافات التي يدخنها أدت الى رسم دائرة عنبرية اللون في شعر لحيته الرمادي وشاربيه .

ومامن زبون يدخل إلا وكان يلتفت ناحيته . بعضهم ينزعون قبعاتهم ، وآخرون يمسون حافتها ، وبعض آخر أيضاً يمد له اليد... بابان ، هو ، كان لا يكاد يمدها ، ويكتفي بأن يمس اليد الممدودة مساً رفيقاً .

في «المدينة الخشبية» التي تنتصب بمحاذاة حواف الأرصفة وتتألف من ألواح خشبية ، كان اسم بابان ماثلاً على عشرات الورشات ، محلات حدادة ، ومناشر ، وإصلاح شباك ، وتركيب محركات ، كما أنه في الحوض الذي غادره جيل لتوه ، كان عشرون مركباً جذّافاً تحمل على مداخنها صورة الآس البستوني التي هي العلامة التجارية لبابان .

وفي كل ساعة على الأقل ، كانت تمر واحدة من سيارات الشحن التي يملكها بابان وهي تنقل ملحاً ، أو ألواح جليد ، أو فحماً ، كما أنه على مقربة من محطة القطار ، ثم في «لاباليس» ، كانت هنالك مستودعات بابان .

ومن وقت لآخر ، كان الهاتف في مشرب لوران يصدر رنينه :
ـ هل تتكرم بإبلاغ السيد بابان بأن . . .

ولا يغادر بابان مكانه ، بل يصدر أوامره من دون التخلي عن سيكاره ، ثم ينظر الى الخارج وهو يزفر .

وكان قد عقد حاجبيه الغليظين عندما رأى قارباً ينفصل عن الهيكل الأسود لجسم الفلينت . وحين مر جيل وحقيبته في يده ، أزاح الستارة قليلاً ، كي يراه بشكل أفضل .

ولكنه كان يعرف جيداً أنه لا حاجة به لأن يزعج نفسه . فهو يعرف كل شيء ، كل مفاصل ونوابض حركة المدينة والميناء وكأنه هو ساعاتيّها العظيم . وفعلاً ، بعد عشر دقائق ، مرّ سولمدال أمام مشرب لورّان ، ولم يكن على بابان الا القيام بثلاث خطوات كي ينتصب بقامته عند العتبة .

ـ سولمدال !

ومد القبطان النرفيجي يده .

ـ هل أنت ذاهب لعند پلانتيل ؟ لن يكون في بيته قبل الساعة الثامنة . إنه ذهب الى روايان لرؤية أحد مراكبه الذي أصيب بعطل . ماذا تشرب ؟ ومن ذلك الشاب الذي أنزلته الى البر ؟

ـ شخص فرنسي مات والداه مؤخراً في تروندهيم والذي بقي هناك من دون أية موارد . . . جيل مالفوازان . . .

ونادى بابان ببساطة ، اذ كان يعتبر صاحب المشرب بمثابة أحد مستخدميه :

ـ غاستون ، . . . اتصل بالهاتف اذن بالفنادق لمعرفة ما اذا كان شخص باسم جيل مالفوازان . . .

على مقربة من برج الساعة الضخم ، دخل جيل وسط الأضواء

الحارة للواجهات ، وكان ذلك احساساً جديداً بالنسبة اليه في الإصغاء للمارة . فهؤلاء كانوا فعلاً يتكلمون الفرنسية ، ويفهم جيل كل ما كانوا يقولونه ، فلا يملك منع نفسه من أن يلتفت بصورة غريبة نحوهم .

لاعبو ورق وراء واجهات «الكافيه فرانسيه» ، المقهى الفرنسي ، . . . متجر للسلع الجلدية . . .ثم ، على بعد بضعة منازل ، متجر سيء الإنارة ، عميق ، مزدحم بالبضائع الأكثر تنوعاً ، ربطات من الحبال ، فوانيس ، مراس ، وأمراس بحرية من كل الأنواع ، براميل من القار والنفط ، وكذلك مواد غذائية مثلما في بقالية . ويفطن المرء الى رائحة قوية داخل المتجر تستهوي النفس .

وعلى الواجهة : «الأرملة إيلوا ـ لوازم بحرية» .

وجيل ، الذي وقف على الرصيف ، انصرف للنظر بكل عينيه . وفي المتجر ، على اليسار ، غرفة مكتب من الزجاج ، مدفأة فوق الحد ولابد ، ذلك أن حديد المدفأة بدا محمر اللون . وامرأة طويلة القامة ، بها بعض شبه بالخيل ، بين مرحلتين من العمر : كانت تلك خالته جيراردين ايلوا ، شقيقة أمه .

وكانت مرتدية ثوباً من الساتان ذا ياقة عالية جداً ، تزين الثوب حجرة كاميه معشقة بالذهب . كانت تتكلم . ولم يكن يسمع ما تقول ، ولكنه ظل يتابع حركة شفتيها . وفي مواجهتها ، جلس قبطان سفينة ، قبعته على ركبتيه وساقاه متصالبتان ، يهز رأسه موافقاً .

ـ . . . خالتك . . . ايلوا . . .

كان جيل يمخط ، إنما ظل لا يبكي . ولكن ذلك الزكام الذي لا يفلح في التخلص منه كان يجعل مأساة تروندييهم أقوى حضوراً ، ويُرجع حتى رائحتها .

فقد كان أبوه مصاباً هو أيضاً بالزكام يوم نزل في تروندـيهم ، ذات مساء ، قادماً اليها من جزر لوفودين ، حيث كانت جولتهم قد تفككت . وبحثوا ، كما هي العادة ، عن فندق غير مرتفع الأسعار .

كانوا في الشارع ، ثلاثتهم معاً : أبوه ، وأمه ، وهو نفسه ، ومعهم أمتعتهم المربكة المعيقة . وأمامهم بابان مُناران بضوء واهن . فندقان . ولهم الخيار . وما من سبب يدعو لأن يدخلوا الواحد دون الآخر .

وللأسف ! فأحد الفندقين كانت لافتته تعرض صورة كرة بيضاء ضخمة . وهمس والد جيل وهو ينظر نحو زوجته :

ـ ألا يذكرك هذا بشيء ؟

وهل لفندق ، أي كان ، إلا أن يثير لديهما ذكريات ما ؟ فمنذ أن غادر الثنائي مدينة الـ «روشيل ، حتى قبل أن يتزوجا ، ألم ينزلا بلا انقطاع في الفنادق ، من واحد لآخر ، وفي غرف مفروشة ؟

جيل ، الذي لم يسبق له أن وطئت قدماه الـ : روشيل ، كان يعرف أنه ما عليه إلا أن يقصد زقاق الـ : إيسكال ، زقاق قديم مبلط بحجارة غير متساوية ينبت العشب فيما بينها ، ومنازله تشرف من علٍ على الأرصفة والقناطر ، ففي المنزل رقم ١٧ منه ، كانت هنالك قديماً لوحة نحاسية على بابه : «السيد والسيدة فوشرون ، الجائزة الأولى من المعهد العالي للموسيقى» .

منزل كانت الموسيقى ماثلة في كل غرفة من غرفه ، لأن الأبوين فوشرون كانا يديران معهداً موسيقياً خاصاً .

وكان شاب نحيل ، شخص يدعى جيرار موڤوازان ، يأتي كل يوم من قريته في الريف ، نيول ـ على ـ البحر ، وصندوق كمانه تحت إبطه .

وفي المساء ، كانت إيليز ، إحدى الابنتين فوشرون ، تنتظره تحت القناطر ، ويبقيان بلا حركة ولابد ، ملتصق أحدهما بالآخر ، في العتمة ، على غرار الثنائي الذي لاحظه جيل عند نزوله الى البر .

ورحلا الى باريس ، وعزف جيرار في فرق دور السينما الموسيقية ، ونادراً في حفلات موسيقية ، وبعدها ، من مدينة لمدينة ، ومن فندق لفندق . . .

هل عرف أحد في الـ « روشيل أن الموفوازان ، في مسارح المنوعات ، وفي عروض السيرك ، كانا يقدمان فقرة لعب خفة ، وأن إيليز وهي في ثوب سباحة لشاطئ البحر ، لونه زهر . . .

ذلك أن جيل كان يتذكر دائماً صورة أمه وهي في ذلك الثوب الذي يرسم قالب وركيها العريضين ، وهي تمد لأبيه اللابس زي لاعبي الخفة الأدوات اللماعة اللازمة لفقرته .

تروندِيهم . . . الكرة الضخمة البيضاء . . .

ـ أصغي يا إيليز ، ينبغي أن تأخذي غرفة منفصلة . . سوف أنام بعد أن أتناول شراباً ساخناً باللّيمون والماء والروم ، وحبتي أسبرين . . . سأتعرق طوال الليل . إنها الوسيلة الوحيدة للتخلص من هذا الزكام .

ـ أفضل أن أبقى بقربك . . .

كانت في الغرفة ، مثلما في كل البيوت في النرڤيج ، مدفأة من الخزف كالصرح ضخامة وبلون الزبدة .

ـ ستشعل لي ناراً قوية أيها المعلم . . . وائتني بأشربة لاهبة الحرارة .

كان موفوازان قد ترك شاربيه ينموان ، فذلك هو التقليد بالنسبة

للاعب الخفة ، وكان يصبغهما ، لا عن غنج ، بل لأن الحاوي ينبغي ألا يبدو عجوزاً .

وقد استعاد جيل رؤية الشاربين على بياض الوسادة ، بلونهما الأسود المزرق ، وأنف أبيه الأحمر .

ـ طاب مساؤك يا أبي . . . مساؤك يا أمي .

وصباح اليوم التالي ، كانت أمه ميتة . وأبوه ما يزال فيه رمق أخير من حياة يكافح به قليلاً ، قليلاً جداً ، ضد الاختناق الذي تسببت به المدفأة الخزف ، بالقدر الكافي بالضبط ليغمغم :

ـ . . . خالتك . . . إيلوا . . .

ومضى جيل ليجلس بالقرب من مرسى القوارب الآتية من جزيرة ري المغروسة على طول الرصيف لوسق المراكب اليها . وأخذ يتطلع من بعيد الى الواجهات ، ويتلامح له بشكل مبهم طيف عمته ، في الضوء الأخضر الضارب الى الزرقة لغرفة المكتب الزجاجية .

كان يعرف كثيراً من الناس الآخرين الذين لم ترهم عيناه يوماً ، أناس كان أبواه يتكلمان عنهم ، أسماء شوارع ، وأسماء تجار...

ـ هل تتذكرين الخباز الذي . . .

وعرته انتفاضة . فقد مرت بالقرب منه صبية بتنورة قصيرة جداً . هي أيضاً عرتها انتفاضة ، واستدارت نحوه لتنظر اليه بعينين كبيرتين فضوليتين . كانت تلك هي الفتاة التي قبل قليل ، بالقرب من عربة القطار ، عند حافة الحوض البحري . . .

التفتت ثلاث مرات . وانتهى الأمر بأن غاصت تحت القبة المتجلدة من البرد للساعة الضخمة .

ولم يكن جيل يعرف أن اسمه يجري الآن النطق به في جميع الفنادق...

ـ موڤوازان ؟ . . . مثل حافلات الركاب ؟ . . . لا . . . ليس عندنا هذا الاسم .

وأخذ أحد مستخدمي المستودع ينزل الأغلاق في بيت إيلوا الذي ظل بابه منفرجاً ،ذلك أن القبطان ذا الحديث طويل النفس لم يكن قد خرج بعد . وأبعد قليلاً ، كان متجر المنتجات الجلدية يغلق هو أيضاً .

ومرت حافلة ركاب مدهونة بالأخضر ، وأصابت جيل صدمة صغيرة وهو يقرأ اسمه على هيكلها : « سيارات موڤوازان » .

لابد أن عمه ، شقيق أبيه ، هو الذي انخرط في أعمال النقليات .

لم يكن على جيل إلا أن يقطع الطريق :

ـ هذا أنا يا خالتي ، ابن أختك ، جيل . . . أبي وأمي . . .

مجرد التفكير بذلك أوقع ذعراً فيه . ولم يسبق أن أخافته مدينة ، وما أكثر المدن التي عرفها خلال حياته . . . ولكن الـ : روشيل أشعرته بخوف . . .

ووعد نفسه :

ـ غداً .

كان في جيبه مائتا فرنك بعد . أما الملابس التي يرتديها ، فكانت للشخص الذي آواه في تروندهيم ، . . .

ـ عندما لبس ابني ثياب الحداد على أمه ، تدرك ذلك . . . إنها شبه جديدة . . .

وقبطان سفينة ، هو سولدال ، تولى نقل جيل مجاناً وأنزله خفية ، إذ لا يحق له أن ينقل مسافرين .

وقد انقضت للآن ساعة على نزوله الى البر ، وهو لم يعرف بعد الا طرفاً من الرصيف ، والحوض البحري المعتم الذي تميز نظرته في

أعماقه وعبر الظلام البرجين القديمين : وفيما وراءهما ، عرض البحر الذي قدم هو منه . \

ونهض ، حقيبته في يده ، ومضى لعند الساعة الضخمة . وكان حشد الناس يتدفقون تحت قبتها ، فذلك هو موعد الانصراف من المتاجر ، وهذا الحشد يتكلم أفراده باللغة الفرنسية ، بحيث إن جيل ظل ينتفض في كل مرة معتقداً بأن الكلام إنما يوجه إليه .

لم يكن عليه إلا القيام ببضع خطوات ويصير في قلب المدينة . وكان يرى المعروضات المضاءة في متاجر «السعر الموحد» ، و «الأسواق الجديدة» . . .

وآثر أن يندفع مجدداً باتجاه الأرصفة . لم يكن معتاداً على مدن ليس فيها سيرك ولا مسرح منوعات . وفي جميع المدن التي يقصدونها ، كانوا يعرفون مقدماً أين سينزلون . ففي كل مكان ، في حارة صغيرة بالقرب من المسرح ، كان يقوم فندق يلتقون فيه بأناس من معارفهم : صينيون يقدمون عروض ألعاب بهلوانية أو المهرجون الموسيقيون ، فرقة المراكشيين الذين يؤدون قفزات هوائية ، أو مدربة الحمام .

وما كانوا يشعرون بأنهم غيروا بلداً . فالصور ذاتهامعلقة على الجدران أو هي مدسوسة في أطر المرايا . وكان المطعم ذو الأسعار الرخيصة هو نفسه أيضاً . يترك الناس فيه رسائل لمن سيأتون بعدهم .

واجتاز جيل قسماً من الرصيف أكثر عتمة ، مزروعاً بالشجر ، وبلغ ساحة صغيرة انتصبت في وسطها مبولة تبدو ضخمة الأبعاد .

كان ذلك هو مدخل الميناء ، بالقرب من البرجين ، عند سوق السمك ، الذي لم يره وإنما شم رائحته . وكان هنالك مقهى ، تسبقه بضع درجات ، ونافذة ضيقة ، وأرضية مغطاة بنشارة خشب .

ودخل بخجل :

ـ عفواً يا سيدتي . . . هل تؤجرين غرف نوم ؟ . . .

ونظرت جاجا البدينة اليه ، الشهيرة في أسواق المزادات ، تلك التي كانت تربط جوربيها بخيط أحمر سميك مبروم ، وتضع قدميها في حذاءين خشبيين سابليه ، نظرت اليه بحنو ودهشة وقالت :

ـ ادخل بكل الأحوال أيها الشاب . . . طريفة هذه القبعة التي على رأسك .

وأخذ هو يدير بين أصابعه قبعته الفرو .

ـ هكذا اذن ، تريد غرفة . . . لليلة أم بالشهر ؟

ـ بالنسبة لليلة . . . ربما ليلتين أو ثلاث . . .

ذلك أنه بدأ يتراجع ، وهو يفكر بالمائتي فرنك التي معه ، وبلحظة تقديمه نفسه لخالته .

ـ سنرتب أمر إيوائك يا ملاكي الصغير . . . ألم تتناول عشاءك ؟ . .

ولم يكن بوسع جيل أن يعرف أن جاجا تخاطب كل الناس بضمير المخاطب المفرد بلا تكلف لأية رسمية ، بمن فيهم بابان الكبير . كان ذلك نوعاً من امتياز تمنحه لمن تخاطبه .

ـ إنك قادم من بعيد على الأقل ؟ . . . ولكنك متجلد من بردك يا فتاي الصغير . . انتظر ، وسأقدم لك شراباً يشد أزرك . . .

كان يود لو يقول لا . فهو لم يسبق أن شرب كحولاً قط . ولكنها سكبت له عنوة كأساً كبيرة من مشروب قوي .

ـ ستتناول طعامك هنا على ما آمل ؟ . . . هذه الليلة عندي سمك رنكه . . . لا أقول لك غير ذلك ! . . هل أنت في حداد ؟ . . ليس غريباً ، ما دمت واصلاً في ليلة عيد جميع القديسين . . .

واستسلم لها ، تتصرف به كالطفل ، وصحيح ذلك ، فهو لم يبلغ الا تسعة عشر عاماً من العمر ولم يسبق أبداً له أن عاش كالآخرين .

ـ هكذا ، لك أقرباء اذن في الـ « روشيل . . . لن أسألك الاسم . . . هل أخذت العائلة علماً بوصولك ؟ . . لكم هي باردة الترقيج ولابد! . . .

بكل الأحوال ، لم يسبق له قط أن شعر بهذا القدر من الدفء والحرارة . كان المطعم ، الذي يكتظ في النهار بالزبائن ، مقفراً في هذه الساعة . ومن وقت لآخر فقط ، كان أحد صيادي السمك يدخل ليتناول كأساً وهو واقف ، متبادلاً بضع كلمات مع جاجا ، المنصرفة للعناية بغريبها وكأنه فروج طري .

ـ لكن بلى ، هيا . . . جرعة أخرى من عصير التفاح المخمّر ، السيدر! . . . إنني أستقدمه من بروتانيا . . . لأن معظم زبائني هنا بروتانيون . . .تفهم اذن الأمر . . .

ورغم كل شيء ، بدت في نظرتها الدهشة نفسها التي كانت في عين صبية القبلة . فجيل لم يكن مثل الآخرين ، بما في ذلك أيضاً معطفه الطويل جداً والضيق جداً . كان بالغ التهذيب لحد الإفراط ، وخجولاً بأكثر مما يجب . . .

ـ أراهن على أنك لم تغادر تنانير أمك . . .

وما قالته كان صحيحاً ، ولكن ليس كما ظنت هي تماماً . فسرير مهده في تلك الأيام القديمة إنما كان سلة من القصب ، وتلك السلة قضت من الوقت في القطارات بقدر ما قضت بين أربعة جدران غرفة . وحدث ، وهو طفل في أرجوحته ، أن قام أيضاً على الانتباه له أحد المهرجين أو إطفائي مناوب .

ـ هيا ! آن الأوان لكي تأوي الى السرير . . . تعال لأرشدك الى غرفتك . . .

وسلكا مساراً عبر سلالم ضيقة وأروقة متشابكة ، معقداً جداً ، بحيث خطر لجيل وهو يغرق في النوم انه لن يستطيع أبداً أن يعرف طريقه لوحده . .

كان الباب مغلقاً ، لكن يرى المرء في أسفله خطاً من النور . وكان بابان يعرف أن الأرملة إيلوا تستغل تلك الساعة لترتب حسابات متجرها . وقرع الباب .

ـ من هناك ؟

ـ بابان .

وجاءت تفتح . كان المتجر يسوده الظلام . القفص الزجاجي فقط كان مضاء .

ـ أعندك مركب راحل هذه الليلة يا سيد بابان ؟ . .

ـ الحقيقة ، لا . . . كنت ماراً . . وقلت في نفسي هكذا . . .

وكانت نظرة إيلوا تعني :

ـ ما الذي أصاب القرد العجوز ؟ . .

ـ تظل خطوة عزيزة . . .

ـ إذن ، لا جديد ؟ . . .

وجلس بالقرب من المدفأة التي احمر حديدها . وكانت هي قد نزعت نظارتها التي لا تضعها أبداً على مرأى من الناس .

ـ ما الذي تقصد قوله ؟ . .

ـ لا شيء . . . هم م م . . .

وتساءلت بجزع :

ـ لماذا دخل الى هنا هذه الليلة ؟

أما بالنسبة لراوول بابان ، الذي كان شخصية على قدر من الأهمية ، بما يتيح له أن يسمح لنفسه بأن يحتفظ في كل مكان بسيكاره في منقاره ، فإنه أخذ يقول في نفسه وهو يراقب الأرملة المحترسة :

ـ هل يمكن على سبيل المصادفة . . .

ما من فندق في المدينة سجل أي حضور أو ظهور لجيل مالقوازان ، فأين يمكن أن يكون نزل ؟ أيمكن أن جيرالدين ، كما يتداول مجهزو السفن اسمها فيما بينهم ، إنما تمثّل عليه ؟

ـ كيف حال بوب ؟ على مايرام ؟

كان بوب ، ابن السيدة إيلوا ، أسوأ رعايا مدينة الـ « روشيل ، وكانت لوثته عندما يسكر هي أن يصدم المارة بسيارته .

ـ إنه في خير حال . . . وهو في باريس لبضعة أيام . . .

ـ حسناً ، وهاك . . .

ـ هاك ماذا ؟ . . .

ـ لاشيء . . . دخلت أسلم عليك وأنا مار من هنا . . . وها قد فعلت . . . والآن ، أقول لك طابت ليلتك . . بالمناسبة ، عجينة الوقود المقطرة من الفحم الحجري التي سلمتها لنا في الأسبوع الماضي . . . لكن ، لا يستحق الأمر الكلام عنه . . . ورئيس التصنيع عندي ، لابد أن يكون كتب رسالة لك . . .

مالقوازان الفتى ، أين بحق الشيطان يمكن أن يكون اختفى ؟

ومشى بابان ، ذو الحركة الثقيلة والبطيئة في السير ، متبعاً الأرصفة ، وهو يعض على طرف سيكاره ، كانت تلك هي الساعة المنفرة التي يتعين عليه فيها أن يعود الى بيته . اذ كانت نفسه تجفل

من الأعماق من بيته وعائلته ، فيأخذ مكانه الى المائدة وهو يدمدم ، وينظر الى أفراد عائلته بعينين كبيرتين تنطقان بشجبه ما يراه .

ومن دون أن ينتظر حلوى ما بعد الطعام ، مضى الى غرفة مكتبه ورفع السماعة :

ـ ألو ! . . . أهو أنتِ يا أرماندين ؟ . . نعم ، هنا راوول . . اذا اتفق لك أن التقيت شاباً نحيلاً ، يرتدي الأسود ، كله ، مع قبعة على رأسه من فرو قضاعة ، ثعلب ماء . . . لا أستطيع أن أشرح لك أي شيء على الهاتف . . . لكن ، نهايته . . . نعم ، أود . . هذا هام جداً . . . لن يسؤوني الأمر فيما اذا . . . هل تفهمين ؟ . . طابت ليلتك يا صغيرتي . . . إنك لوحدك على الأقل ؟ . .

وقال ذلك بتهذيب ، فقد كان على علم بأنه متشارك مع شخصين أو ثلاثة على الأقل في نوال إنعام الفاتنة أرماندين .

- ٢ -

- حسناً! ألا تخاف أنت يا فتاي من أن تظهر هذا لجاجاً ؟

واستيقظ جيل منتفضاً وانتبه الى أنه كان عارياً . كان قد أوى الى السرير على ذلك النحو لأنه لم يكن يملك ثياب نوم بديلة نظيفة ،وانكشف الغطاء عنه .

وأكدت المرأة ذات الهيئة الشعبية والاقتدار :

- لحم فروج حقيقي . . .

ثم ، وهي تلم الجوربين من الأرض وتقلب داخلهما نحو الخارج بحركة سريعة من يدها :

- أليس عندك غيرهما ؟ . . ابق في سريرك أيضاً لحظة . . .

وعندما عادت ، وقبضتها الواحدة في جورب ، كانت تمسك في يدها الأخرى إبرة لُضمت بخيط أسود من الصوف .

- أيحرجك أن ترتدي ثيابك بحضوري ؟ . . . الآن أيضاً وحتى بعد أن رأيتك ؟ حسناً ، أنا نازلة . . . عندما تجهز ، انزل لتتناول إفطارك . . .

أطعمته دزينتين من المحار وجعلته يشرب نبيذاً أبيض ، ولم يجرؤ على أن يرفض خشية أن يحز ذلك في نفسها أو يكدِّر مزاجها . وخلال ذلك ، أخذت تراقبه بقدر من الانتباه أربكه فغاص بنظرته في النافذة هارباً بنظرته .

هل التقى يوماً فيما بعد ، دقائق مثل هذه ؟ ومع ذلك فإنه لم يكن فيها أي شيء خارق . ورأى الساحة الصغيرة ، ووراء مرحاض التبول الكبير المبني بألواح الصفيح ، قوارب صيد السمك ، منشورة الأشرعة تحت مطر ناعم نفاذ . وكانت تشيع في منزل جاجا رائحة كحول وبصل مقلي ، وهي ، جاجا ، ذراعاها سمينان وبلون الورد ، وكأنه لون اصطناعي .

وقد أفلحت في أن تعيد الانطباع إليه بأنه طفل ، لدرجة أنه حين صار خارجاً ركل آلياً بقدمه قطعة حجر وكأنه كرة ، ثم تلفت بلهفة فيما حوله كي يتيقن من أن أحداً لم يشاهده يفعل ذلك .

كانت الشوارع مقفرة ، ومن بعيد لبعيد ، امرأة هرمة مرتدية السواد تحمل في إناء زهرة بابونج بيضاء ، أو باقة هزيلة . ولم يسأل جيل أحداً ليعرف طريقه ، وقضى نصف ساعة تقريباً حتى اهتدى الى شارع إيسكال الذي كان على مقربة تماماً .

وعند الرقم ١٧ رأى الباب الكبير ذا قوس الدائرة المنتظم الذي طالما دار الحديث عنه . لكن في حين كان الباب في القديم بالأخضر المعتم ، فهو الآن مدهون بلون يقلد الخشب . وكان باب أصغر أحدث في أحد الأجزاء المؤطرة من الجدار منفرجاً ، ولمح جيل باحة ، ومربعاً من التراب الأسود ، ونبتتين أو ثلاث تنزف نقط الماء منها واحدة واحدة .

ومن دون أن يفكر ، اقترب من إحدى النوافذ الممدودة بالموسلين ، وحاول أن يرى من خلال الستارة ، وانقضت مدة لابأس

بها على ذلك . وبغتة ، أدرك أن ماخيل إليه انه انعكاس وجهه في الزجاج إنما كان وجهاً أثبت نظره عليه من الداخل بدهشة . كان وجهاً هرماً جداً ، لاح له شاحباً شحوباً غير عادي ، ولكن لم يعرف أبداً إن كان وجه رجل أو امرأة ، فابتعد وقد امتلأ بشعور بالخزي .

ودخل الكنيسة الكبيرة والصلاة في منتصفها ، وبقي هناك حتى آخر الصلاة . ثم انصرف الى التطلع الى المصلين يتعاقبون ، وهو يقول لنفسه إنه يبحث عن عمته ايلوا . ولكنها فتاة الليلة الماضية هي التي كان يود لو يلتقيها مجدداً .

كانت المدينة تثير الجزع لديه . اذ لم يكن يعرف أين يذهب ، ولا ما يعمل ، كما أنه لا يجرؤ على ان يدخل الى أحد المقاهي وحيداً .

وكانت الأنظار تلتفت ناحيته ، وقرر أخيراً أن يضع قبعته الفرو في جيبه . ولكن معطفه المفرط في طوله ، ألم يكن كافياً كي يجتذب الانتباه ؟

بشعور من الانفراج عاد عند الظهر ، وحتى قبل ذلك بقليل ، الى بيت جاجا ، حيث وجد طعام غذائه ممدوداً على طاولة قرب النافذة .

ـ هل أضعت قبعتك الفرو ؟

وأظهرها لها من جيب معطفه ، وقلّبتها في كل الاتجاهات .

ـ إنه فرو حقيقي . . . أتساءل عما اذا كان يكفي لصنع ياقة . . .

كانت ثمة شموع موقدة أمام معظم القبور ، وكلما هبت نسمة ، كانت ألسنة لهبها الصغيرة تستطيل مائلة بنفس الاتجاه ، مثل كائنات حية ، وتبدو موشكة على أن تلفظ أنفاسها ، ثم تعود فتستقيم وكأنما بمعجزة .

وراح جيل يقرأ الأسماء المنقوشة على الشواهد ، وبينها أسماء عرفها لأنه سبق أن سمع أبويه ينطقان بها . فيتالين باس . من بين أسماء غيرها ، صديقة لأمه حدباء ، وكانت هذه الأخيرة يكثر أن تتكلم عنها .

« . . . توفيت متممة واجباتها الدينية

وهي في الثانية والثلاثين من العمر » .

« صلوا لراحة نفسها » .

وخطر لجيل أنه قد يحسن صنعاً اذا هو وضع بعض الزهور على قبر صديقة أمه . إنما لم يكن هنالك زهر ، ولا شموع . اذ يحدث كثيراً له أن تأتيه الهامات من ذلك القبيل . لكن عندئذ ، وقلّب الفكرة في عقله ، سيتعين عليه أن يخرج من المقبرة وأن يسأل عن ثمن أزهار البابونج البيضاء . وستنظر البائعة اليه بدهشة . وعند عودته ، سيبدو حاملاً زهوره بخيبة . وماذا لو لاحظه أحدهم وهو يضع باقته على قبر امرأة مجهولة تقريباً ؟

وتوقف أمام قبر مرفوع كالصرح ، رحب المغارة جداً ، بحيث يمكن للمرء أن يدخلها واقفاً . الشاهدة ماتزال بيضاء تماماً ، واسم وحيد نقش عليها : « أوكتاف موقوازان » .

كان ذلك هو شقيق أبيه ، صاحب حافلات الركاب ، وهكذا ، من تلك الكتابة المنقوشة عرف جيل أن عمه قد توفي قبل أربعة شهور .

وشيئاً فشيئاً ، امتد الى حلقه إحساس بانقباض النفس لم يعمل على تحليله . ومثلما كانت دورته في الصباح في المدينة المقفرة ، أخذ يدور الآن في المقبرة في دائرة مغلقة وعدد الأموات حوله يسحقه . أبوه وأمه توفيا هناك ولن توضع زهرة على قبرهما . وعمه موقوازان الذي جرى الحديث عنه دائماً على أنه دبّ يعتزل المجتمع وشخص ذو

سطوة ، مات . وفيتالين بوس الحدباء وافتها المنية . وليونتين بوبييه هذه . التي تُرى صورتها العانس في إطار بيضوي من الخزف وسط إكليل ، ألم تكن الخادمة التي رعت وهي تشيخ أمه ؟ . .

وانتفض . وجمد في مكانه وراء شجرة سرو ، لأنه رأى للحظته على بعد عشرة أمتار منه خالته إيلوا ، برفقة صبيتين هما ولابد ابنتا خالته . إحدى الاثنتين ، كبراهما ، كانت لها ميلة حسن في إحدى عينيها . والأخرى ، بدينة وقصيرة . لاحت وكأنها تبحث في عينيها عن شخص ما ، ربما حبيبها .

ويحس المرء أن النساء الثلاث كن شخصيات هامة . إذ كان يرافقهما عامل حديقة تولى صف أحواض زهور أمام أحد المدافن ، وكانت جيراردين إيلوا تلقي بتعليماتها من دون أن تنحني ، مثلما في متجرها . ثم ، وبعدما تم تزيين كل شيء ، رسمت بخطوط سريعة إشارة صليب وابتعدت ، تتبعها ابنتاها اللتان سارتا متأخرتين عنها قليلاً ، وكان الناس يستديرون نحوهن طوال طريقهن لتحيتهن .

لماذا تبعهن جيل ؟ ولم يكن في نيته أن يكلمهن . إذ ما يزال في جيبه قدر كاف من المال لقضاء ليلة ، وربما ليلتين ، عند جاجا .

وفي اللحظة التي كان يجتاز سياج المقبرة فيها ، استقرت نظرة شديدة الإلحاح عليه ، لدرجة أن وجهه احمرّ ، وبخاصة أن الأمر كان يتصل بامرأة جميلة جداً ملتفة في معطف من الفرو .

كان على وشك أن يعبر . وتكلمت ، فأخذت ركبتا جيل في الارتجاف من الأمر .

ـ عفواً أيها السيد . . . واعذرني ان كنت مخطئة . . . لكن ألستَ واحداً من عائلة موڤوازان ، ابن لجيرار ولابد ؟ . . .

وهز برأسه علامة الإيجاب .

ـ يا إلهي ! هاقد مرت عدة لحظات عليّ وأنا أراقبك . كنت صديقة لعمك . أكنت تعرف أنه توفي ؟ عرفت أباك قليلاً منذ زمان . . . وعندما رأيتك . . . هذا الشبه . . . كيف حدث أنك في الـ : روشيل ؟

وأجاب كمن يتلو درساً حفظه :

ـ أبي وأمي ماتا .

غمره عطر كان يضوع من معطف فرو السمور .

ـ نزلت عند أقرباء ؟ عند خالتك إيلوا ولابد ؟

ـ ليس بعد . . . ق . . . قضيت الليل في فندق صغير . . .

ـ ألا تضع قبعة في هذا البرد ؟

ولم يجرؤ على أن يعترف لها بأنها في جيبه ، وتأرجح ناقلاً ارتكازه من ساق إلى أخرى .

ـ لا تغتظ مني اذا ما تطفلت . . . ولعلك تقبل بأن تأتي لتناول قدح شاي عندي ؟ . . . هاك ! هي ذي بالضبط سيارة أجرة صغيرة . . . وفي دقيقتين . . .

نساء مثل هذه ، حدث له أن رآهن عن بعد في شرفات المسرح ، لكن لم يحدث ان اقترب منهن أبداً . واذا صح ما قالته وأنها سبق أن عرفت أباه ، فينبغي ألا يكون عمرها بعيداً عن الأربعين . ولكنها ما تزال يانعة ، وذات وهج لطيف ، كأنه مكتّم ، في حين أن والدة جيل التي في العمر ذاته تقريباً ، كانت قد تخلت عن أي غنج .

ـ هكذا إذن ، وصلت وأنت وحدك الى الـ : روشيل . . .

كانت السيارة قد بدأت تعبق برائحة عطرها ، وفي حركة مواساة ، وضعت يداً أنيقة القفاز على ساعد الشاب .

لا أحد لانتظارك في المحطة !... لا أحد لاستقبالك!... لو لم أكن امرأة وحيدة... لأفرحني أن أدعوك لأن تنزل في ضيافتيك... وصحيح أن عمتك

حالما تدري بأنك هنا . يبدو لي أنني لمحتها قبل قليل في المقبرة... طويلة القامة . جافة ، وذات وجه معبر عن التسلط وإملاء الإرادة .

ـ أعلم . . .

وسألته بلهفة .

ـ هل تعرفها ؟

واضطر لأن يعترف :

ـ لمحتها في مخزنها . . .

ـ لكن بلى ، بلى . . . ستشرب كأس شاي ، وتأكل بعض قطع الجاتو . . . خذ راحتك . . . تصور أنني قد عرفت أباك وهو بعد في عمرك الآن . . . إنه طاف بلداناً كثيرة في سفره ، أليس كذلك ؟...

كانت قد نضت عنها معطفها الذي ارتدت تحته فستاناً حريرياً ضيقاً جداً ، يرسم خطوط قامة وافرة بما يكفي .

ـ جان ستقدمين الشاي في غرفة الاستقبال الصغيرة...

كان الجو حلواً ودافئاً في هذه الشقة المعطرة ، الممتلئة بالحرير ، والمخمل ، وتحف زينة ، وأشياء سهلة الكسر . جهاز الهاتف نفسه كان يخفي خطوطه مفرطة النفعية في شكلها ، تحت التنورة المنفوخة لفستان مركيز من البورسلين ، ذات وجه دقيق الملامح . ورنّ جرس الهاتف :

ـ ألو ... ، طبعاً يا صديقي... نعم... نعم...

كانت تبتسم ، وهي تجيب ، سعيدة ، وتتفحص نظرتها تفاصيل جيل موڤوازان .

ـ لكن طبعاً... اذا شئت... بعد قليل جداً إذن .

ونادت مجدداً الوصيفة .

ـ احسبي في إعدادك الضيافة يا جان حساب شخص إضافي .

وأوضحت لجيل :

ـ أحد أصدقائي ... وهو صديق لعمك أيضاً سيمر لرؤيتي ... إنما لا ، لن أدعك ترحل ... سيسعده جداً أن يعرفك ...

سُمع من حينها أصلاً صوت سيارة تتوقف في الشارع . ولاحظ جيل ببعض الدهشة أن الصديق الذي ذُكر دخل بواسطة مفتاح معه ، ونقر على باب الصالون الصغير نقرة شخص معتاد على الأمر .

ـ ادخل أيها الصديق ... لقد ادخرت مفاجأة لك ... احزر من هو الذي يسرني أنني أقدمه لك ؟

ونظر راؤول بابان الى جيل لحظة وهز رأسه نفياً .

ـ موڤوازان ! ... ابن أخ أوكتاف موڤوازان ... ابن جيرار ... أترى كيف أن لي حافظة في تذكر الوجوه أفضل من التي لك ... كنت ذهبت الى المقبرة لدى مدفن ذلك الصديق المسكين...

راؤول بابان ، حاجباه معقودان ، وبعد أن مدّ يده للمصافحة ، سأل :

ـ هل تكون جيل موڤوازان ؟ ...

ـ نعم ، يا سيدي ...

ـ لكن في هذه الحال ...

وأخذ يمثل ملهاة مسرحية بمعنى الكلمة ، فالتفت ناحية المرأة ، ووضع يده على كتف الشاب :

ـ لنَرَ الأمر يا صديقي الشاب ... متى كان وصولك الى مدينة الـ : روشيل ؟...

ـ البارحة ... جئت على ظهر باخرة نرويجية ، الفلينت ...

ـ أعرف المركب ، وبخاصة أنه يجري الآن تفريغ بيض سمك موره من على ظهره كنت طلبته من تروندهيم... وسولدال هو صاحب

قديم لي ... لكن ما أتساءل عنه هو كيف علمت ... ألم تر الكاتب العدل بعد ؟...

ـ أي كاتب عدل ؟...

ـ لن تزعم لي أنك غير مطلع على أي شيء ؟...

الأكثر دهشة في ذلك الوقت ذاته ظلت ، أيضاً ، جاجا . وكانت تراودها إغفاءة بالقرب من المدفأة ، وفي حضنها قطة صهباء اللون ، فقد تراءت لها بشكل مبهم سيارة كبيرة تتوقف عند الساحة وينزل منها رجلان . وما كان بوسعها أن يذهب الظن بها الى أنها هي المقصودة بالأمر ، وفتحت عينيها عن آخرهما محملقة حين تبينت لها هوية واحد من الشخصين وهو يدير مقبض الباب .

وغمغمت وهي تدفع الهرة عنها كي تنهض :

ـ وما الذي جاء يفعله هذا هنا ؟... إذن هكذا يا سيد پلانتيل ، جئنا لتناول كأس عند الأم جاجا الآن ؟...

الزائر الذي كان القبطان سولمدال يرافقه ، لم يكن فعلاً غير إدغار پلانتيل بشخصه ، مجهز سفن شركة « باس وپلانتيل » ، شعره الفضي مملس جيداً على صدغيه ، مورد الوجه ، وفي يده خيزرانة ذات مقبض ذهبي .

ـ أخبريني يا جاجا... يبدو أن عندك هنا شاباً نزل الى البر البارحة ...

ـ هذا ممكن جداً ...

ـ وهو ما يزال هنا ؟...

وظل السيد پلانتيل واقفاً ، سيداً عظيماً لدرجة في عباءة كتفيه المترفة ، بما جعل المكان يبدو صغيراً عليه .

ـ وما الذي تريده من فتاي ؟

ـ هل خرج ؟ ولا تعرفين الى أين ذهب ؟

ـ أنا لا أشغل نفسي بما لا شأن لي به ... هل هو من عائلتك ؟ ... لئن كان الأمر كذلك ، فإنه لا يظهر عليه أي عجل في أن يذهب لرؤيتك ...

تردد پلانتيل . كاد أن يجلس مع سولمدال في ركن من المحلّ وينتظر . لكن قد يمكن أن يدخل بعض الصيادين بين لحظة وأخرى ، أو بحارة يعملون على مراكبه ، فأوماً الى سولمدال واستقر الاثنان في السيارة . التفت السائق الى الوراء منتظراً أمراً .

ـ باقون هنا ...

منذ ليلة البارحة ، اذ تناول سولمدال عشاءه في العمارة الفاخرة التي يملكها پلانتيل ، ومنذ أن تحدث الى هذا الأخير عن المسافر الذي أقلّه على مركبه ، جرى البحث عن جيل في كل مكان . تلقت جميع الفنادق مرة أخرى مخابرة هاتفية .

واتفق عرضاً عند الظهر ، أن لمح أحد بحارة الفلينت جيل عند جاجا فكلم قبطانه عن الأمر .

ـ أتساءل عما اذا لم يكن قد ذهب ، من الآن ، لعند جيرالدين...

كانت أرماندين قد أشعلت قبل قليل المصابيح مما زاد طلاوة الجو طراوة .

ـ إذن ، يا صديقي الشاب... أنت تسمح بأن أدعوك هكذا ، إذ كان يمكن أن أكون أباك ... قلت ، إذن ، ... أنت لم تستلم أي إعلام أو إشعار ... وكذلك ، فأنت لم تقرأ الإعلانات التي ظهرت في صحف العالم أجمع ، أو تقريباً... وإنني لأسأل نفسي ... اسمع ، لا يعود إلي

أن أكلمك أكثر عن الأمر... ولا تضمر تجاهي أي غيظ ، إذ أثرت فضولك على هذا النحو ، لأنك ستفهم بعد قليل... أتريدين أيتها الصديقة أن تتصلي بالهاتف لمعرفة ما إذا كان الأستاذ هرڤينو في منزله ؟... إنه على الخط ، يجيب ؟ ... أعطيني إياه ...

«ـ ألو! . . أهذا أنت يا هرڤينو ؟ ... هل أزعجك... النقرس... أفضل... لكن لا!... إنما أقول أفضل لأن هذا نفعني بأن أجدك في البيت في يوم هو عيد جميع القديسين ... تخيل أن عندي هنا... لا ، لست في منزلي ... قلت عندي هنا شاب يدعى جيل موڤوازان... تماماً... على يقين مطلق ... هذا بالضبط هو ما فكرت به... اعتبرنا عندك خلال دقائق ... » .

وتدخلت أرماندين قائلة حالما رأت راوول بابان يرتدي معطفه الثقيل

ـ ستدعه على الأقل ينهي كأس شايه ؟

ـ هرڤينو ينتظرنا... لو أن بمقدورك أن يخطر لبالكِ الخبر الذي سيسمعه هذا الشاب من فم هذا الكاتب العدل المعتبر!... تعال يا صديقي... وتذكر أن صديقتنا ، الحاضرة هنا ، كانت الأولى في استقبالك في هذه المدينة .

لم يسعه أن يحزر أن جيل ردّ عليه في سرّه :

ـ غير صحيح ! إنها جاجا .

ومن دون أن يعرف لماذا ، تذكر بتأثر حنون الجوربين اللذين قد رتقتهما له بالقرب من سريره .

ـ معي سيارتي عند الباب . هرڤينو يقيم في شارع غرغولّوه . . .

كان الليل قد أرخى سدوله . ولما كان المطر قد توقف عن

الهطول ، فإن جمهور يوم الأحد أخذ بالتنزه في الشوارع ، وولجت السيارة باحة معتمة نهض في صدرها منزل قديم أنيق .

وكان أحد الخدم بانتظار الزائرين فقد أدخلهما فوراً غرفة المكتبة ، حيث تظاهر أحدهم عند دخولهما بأنه يهم بالنهوض .

ـ لا تزعج نفسك ... دع ساقك حيث هي في سلام...

يا سيد موفوازان ، يسرني أن أقدم لك الأستاذ هرفينو ، كاتب عدل المرحوم عمك...

وكان هذا رجلاً هرماً ، يلوح عليه هبوط كلي في المزاج والهمة ، مرتدياً المشمل البيتي فوق ثياب التخفف المنزلية ، روب دي شامبر حيادي اللون ، وأعاد بزفرة وضع ساقه اليسرى على مقعد صغير بلا ظهر .

ـ اجلس يا سيد موفوازان... واجهت قدراً لا بأس به من النصّب قبل أن أعثر أخيراً عليك .

ـ عفواً ... أنا من عثر عليه...

ـ إنما وبعد ، كيف حدث أن ؟...

ـ أبوه وأمه ماتا ... حادث ، هناك ، في تروندييهم... عندئذ جاء هذا الشاب إلى هنا و...

ـ هل أطلعته على الأمور ؟

ـ ليس بعد ...

وخيل لجيل أنهما تبادلا غمزة . ثم غمغم هرفينو ،

ـ أليس من الأفضل أن نخطر پلانتيل ؟...

ـ إذا شئت ... الآن وكل شيء في نصابه ...

وجذب الكاتب بالعدل جهاز الهاتف إليه ، وبدا عليه الاستغراب من الجواب الذي تلقاه .

ثم تكلم الرجلان بصوت منخفض بينما ظل جيل جالساً بخجل على طرف المقعد .

وحزر كلمة :

ـ أين ؟...

ـ في مقهى صغير في الميناء ، مع سولمدال .

وكتم بابان ضحكة تفلت منه .

ـ وماذا يفعلان ؟...

ـ قد يكون بمقدورك ربما أن ترسل أحداً ليقول له ؟

واستُدعي خادم المنزل . وأخذ جيل يشعر بحرارة الجو . ورأسه يدور . ورفض سيكاراً قدمه بابان له .

ـ شكراً ، لا أدخن...

ـ كأس نبيذ بورتو ؟

ـ لست معتاداً على الشرب .

كان في ذلك كله شيء ملتبس ، وحال جيل أكثر اضطراباً من أن يقدر على تمييز وتحديد انطباعاته الشخصية . فالآخرون منشغلون كثيراً به بالتأكيد ، ولكن خارجاً عنه بشكل ما . كانت معاملتهم إياه معاملة مراعاة وود ، وفي الوقت ذاته يُنظر إليه وكأنه كمّ مهمل .

واستأنف الأستاذ هرفينو الكلام :

ـ بالنظر لاحتفالات عيد جميع القديسين فإن فتح الوصية رسمياً لا يمكن أن يجري إلا بعد يومين . وبانتظار ذلك يا سيد موفوازان ، أستطيع أن أعلمك بأنك الوارث الأوحد لعمك . انقضت أربعة أشهر ونحن نفتش عنك في كل مكان تقريباً...

كان جيل يسمع الكلمات بجلاء ، بل يتجاوز جلاؤها ما هو طبيعي ، الا أن واقع معناها لا يبلغ إحساسه ، أو يكاد ، إلا بكل

مشقة . وهذا هو السبب في أن الرجلين اللذين انصرفا لترصد ردود فعله أخذتهما الدهشة من أنه ما بانت عليه للنبأ أية مفاجأة ، أية بهجة . ولعلهما ذهب الاعتقاد بهما إلى أنه أبله .

ـ عمك لا يقتصر الأمر على أنه كان على رأس شركة سيارات موڤوازان ، بل كانت له في معظم الأعمال المالية الكبرى في مدينة الـ : روشيل وفي المنطقة...

الخادم ، الذي كان أنجز مهمته ، أدخل إدغار پلانتيل والقبطان سولمدال . بدا پلانتيل شاحباً بعض الشيء . ولمس يد بابان هامساً :

ـ تهانئنا ...

ـ لم أفعل شيئاً يستحق ...

سولمدال ، هو ، أخذ يتأمل بدهشة ، بل باحترام ما ، هذا المسافر الذي صار ما بين ساعة وأخرى واحداً من أهم شخصيات الـ : روشيل .

ـ سيد موڤوازان ، ما إن بلغ علمي أنك نزلت في أحد مطاعم الميناء ، التزمت بواجب ... ثق بأنني سعيد جداً بأن التقيك و...

لماذا استدار جيل نحو الكاتب العدل المدفون في مقعده ؟ كان وجه الأستاذ هرڤينو يتلقى إنارة سيئة وربما كان هذا هو السبب في أن جيل اعتقد بأنه رأى على وجهه تكشيرة أخافته .

وصرخ الكاتب بالعدل بصوت كالصرير :

ـ اجلسا أيها السيدان . أمر في منتهى الإزعاج عندما يكون المرء مسمّراً على مقعده بالتهاب المفاصل أن يرى الناس واقفين حوله فوق رأسه ... ماذا أقدم لكم ؟... ويسكي ؟... بورتو ؟... بابان!... إنك بجانب الزر... اقرع لرئيس الخدم ، هل تتكرم ؟

-٣-

لأول وهلة ، اعتقد أنه على ظهر المركب . وهذه الفكرة منحته فرحة قصيرة . تلك الحركة من اليسار الى اليمين ، وذلك الارتفاع البطيء يعقبه سقوط أكثر فجأة ... وحتى صوت الماء ذاك وهو يسيل... كان ذلك يذكر بأيام التموج الشديد ، وجيل مريض ، عندما كان يلازم قمرته الضيقة المدهونة بطلاء شديد البريق ، راقداً فيها طوال الوقت ، والريس الطيب سولدال يبذل له العناية الحنون والماكرة التي تبذلها مرضع الطفل أو مربيته .

لكن لا! فهو قد نزل عن الفلينت . ويعرف جيداً الآن أين هو : في منزل خاص أنيق في شارع ريومور ، وهو الشارع الأكثر ارستقراطية في الروشيل . لم يكن بمستطاعه أن يقدر الساعة ، فما من نور البتة يرشح من الأغلاق الخشبية التي للنوافذ والتي كانت مغلقة إغلاقاً كتيماً . بكل الأحوال ، كان ثمة في البيت ، تحت جيل ، أشخاص نهضوا من أسرتهم . فالماء يسيل من حنفية . وامرأة ورجل يتكلمان . وكل مقطع صوتي كان يبلغ رأسه الذي يعاني من

الألم الشديد وكأنه قصف من مدفع . إلا أن ذلك ظل مبهماً في تشويشه ، وبالغ الغرابة جداً ، لدرجة أن جيل لم يستطع للحظة أن ينتبه إلا لذلك القصف المدفعي .

ـ بوم ، بوم ، بوم ، بوم ... بوم ، بوم... بوم ...

إه! صوت ارتطام كؤوس بعضها ببعض وقدور طهي الطعام . لابد أنه المطبخ ، وفيه ذلك الحديث يجري . ويا له من عشاء كان ، يا الهي! ... ولماذا نافس كل منهم الآخر في جعله يشرب ؟ هل كان لذلك أن يمتعه هو ؟ لا! إذن لماذا ظلت تُمد الكؤوس ملأى له طوال الوقت ، في الأول : نبيذ پورتو عند الكاتب بالعدل الفظيع ذاك ، الشاحب ، والذي يصرف على أسنانه ... هرڤينو ... وما الذي كان قاله أيضاً حينما انصرف جيل ؟...

ـ «أتمنى لك الكثير من المتعة أيها الشاب» .

وبعد ذلك ؟...

حول تلك الفينة ، ما يزال جيل يحتفظ بأفكار واضحة بقدر كاف ... فقد قصدوا على الفور شارع ريومور . كانت هنالك لوحات منقوشة شديدة الجمال على جدران الأدراج تمثل ميناء الـ : روشيل في العصور كافة . وقال السيد پلانتيل :

ـ سيُريك ابني اياها ... فجان هو الذي يهوى جمعها . وهو خبير جداً بالمنقوشات وباللوحات الفنية ...

رئيس خدم آخر ، بدين وقصير ، له شعر شديد السواد . يردّه على قحف صقيل ، لماذا يستعيد جيل صورته فيبدو فيها أكثر عرضاً منه طولاً وكأنما في مرآة مشوّهة :

ـ إن كان السيد جان في البيت ، قل له أن ينزل .

وبعدئذ تسارع الإيقاع . لكم أخذ جيل يأسف على اللحظة التي

كان فيها أمام سياج المقبرة ! واستعاد صورة بائعة الشموع التي نصبت منضدة فوق الرصيف ، والنحات الذي يبيع أحواض الأقحوان ، والمتسول العجوز الذي جلس على الأرض عارضاً على المارة القسم المتبقي من ساقه...

غرفة تدخين كبيرة ، وحطب في الموقد . مقاعد فسيحة من الجلد ورائحة خشب يحترق وسيكار ومشروبات .

ـ اجلس يا صديقي...

لماذا پلانتيل هو الذي أخذ الآن أمره بيده ؟... أهو شخصية أكثر أهمية من بابان ؟ هذا الأخير جاء معهما ولكن مظهره لاح أكثر تواضعاً .

ـ ألو !! ... أهذا أنتِ يا جيرالدين ... تعالي إذن هذا المساء لتناول العشاء عندنا في البيت . نعم ، من دون رسميات... أعدك بمفاجأة سعيدة... لكن طبعاً... بوب في باريس ؟... حظه سيء...

وتوجب أيضاً أن يشرب ، كان پلانتيل يتولى بنفسه ، بحركات ثمينة من يديه اللتين يحرص على العناية جداً بهما ، خلط المشروبات في وعاء من الفضة .

ـ هيا ، ما بك! لم يحدث يوماً أن أضر هذا بمخلوق . في التاسعة عشرة ؟ ... ادخل يا جان... أقدم لك صديقنا موڤوازان ، جيل موڤوازان ، ابن أخ أوكتاف ...

شأنهم ! الذنب ذنبهم . فبسبب كل ذلك الشراب لم يعد جيل يراهم إلا في أشكال كاريكاتورية . جان پلانتيل ، والذي لابد أنه في الخامسة والعشرين ، كان طويلاً ، نحيلاً ، قليل الشعر وأشقر ، ويذكر بجرادة . كان أصلاً يفرك بلا انقطاع يديه الجافتين المتقصفتين ، مثلما يحك الجراد قائمتيه الأماميتين .

ـ بصحتك يا موڤوازان ...

وأخيراً الخالة جيرالدين التي كانت تحدث بمفردها من الضجة وتحرك من الهواء ، هي وحدها ، بقدر كل الآخرين مجتمعين .

ـ هكذا ، أختي المسكينة...

فهم قدنسوا بعض الشيء الميتين اللذين توفيا في تروندیهم ، والد ووالدة جيل .

ـ كيف أمكن أن يقع ذلك ؟...

وهو ، الذي كان يعاني من فرط حرارة الجو ، لونه قرمزي ، وعيناه تلتمعان ، ما كان منه إلا أن أجاب ببساطة :

ـ إنها المدفأة . . .

كانت السيدة پلانتيل تنتظر في غرفة الطعام . وهي امرأة عجوز ، شديدة الوقار ، تضع قفازات أصابع تصل لعند السلاميات ، وذلك على الأرجح لأن لها بقعاً على جلد الأصابع . وهي الوحيدة التي لم تفتح فمها .

وقالت الخالة إيلوا :

ـ ينبغي أن تترتب إقامته عندنا في البيت . سأتصل بابنتيَ بالهاتف . . .

ـ لكن لا ، أبداً ... هذه الليلة سيبيتها هنا في إحدى غرف الأصدقاء ... ولا تنسي يا جيرالدين أنه فيما بعد ، بموجب الوصية ، سيتعين عليه أن يقيم في منزل رصيف أورسولين...

ـ مع تلك المرأة ؟

ـ تعرفين جيداً ذلك ...

ـ وبوب الذي في باريس ... بوب الذي كان سيسعده جداً أن يبذل المساعدة له ...

ـ جان هنا ...

لم يتوجه أحد بأي طلب أو سؤال اليه . وإنما يجري التصرف بشخصه . توضع المشاريع ، وتمر تلميحات في الكلام إلى أشياء لا يعرفها ، ولا أحد يجشّم نفسه عناء شرحها له . وبالمقابل لا يكفون يملؤون كأسه له .

وانقلبت الكأس معه وهو يسكب السمك في صحنه ، واضطرب ، وأصيب بالخجل لدرجة ، بحيث إنه استمر لا أقل من ربع ساعة من دون أن يرى شيئاً ، وحتى من دون أن يعرف أنه كان يأكل ويشرب .

* * *

ـ بوم ، بوم ، بوم . . . بوم ، بوم ، بوم . . .

رنين جرس . وجلبة في المطبخ . خطوات في الرواق ارتطام بورسلين . لابد أنه إفطار يُحمل على صينية إلى احدى غرف النوم . وأحدهم ، على بعد غرفتين أو ثلاث ، فتح صنبور الماء ليعُدَّ حماماً لنفسه . هل تأخر الوقت ؟ . .

كان رأس جيل يؤلمه : مرة على الجانب الأيمن منه ومرة على الأيسر . كما لو أن مادة غير مستقرة تمر من جانب إلى آخر . وكان لابد من وجود دورق لماء الشرب في مكان ما ، ولكنه مدّ ذراعه من دون أن تلتقي ذراعه شيئاً غير الجدار . عندئذ تلعثم مغمغماً بأطراف شفتيه :

ـ بابا . . .

وانتابته رغبة في البكاء . واكتشف في نفسه حساسية عاطفية أكبر من أي وقت آخر تجلت له فيه حساسيته . والغريب ، أن أباه هو

الذي اتجه خياله الى صورته ، ولماذا ليس أمه ؟ ذلك ظلم . وهو يعي ذلك . فأمه هي التي كانت ربته في ظروف شاقة للغاية . وفي غرف فندق لا تريح البتة . وكانت في معظم الأحيان حزينة وقلقة .

أما هو ، أبوه ، فكان يتظاهر دائماً بطيب المزاج وبانفصال ماسوي عن الأمور .

ـ تناولنا طعامنا هذا الصباح أليس كذلك ؟ وستتناول الطعام هذا المساء ... فما الذي يمكن أن نطلبه أكثر من ذلك ؟...

وفي المساء ، وهو في لباسه في زي لاعب الخفة ، بشاربيه الطويلين المصبوغين ... هو ، الذي لشد ما أمل في أن يصبح موسيقياً عظيماً !...

وخيل لجيل أن أحداً ، قدماه في خف ، كان يسير في الممشى ويتنصت عند بابه ، ولكنه لم يتحرك .

لم يكن ينظر إليهم بعد على أنهم أعداء ، جميعهم ، بالغاً ما بلغ عددهم ، بمن فيهم خالته جيراردين ، ولكنه كان لاحظ بعض التفاصيل . ألم يكن يبالغ بها بسبب سكره ؟

طريقتهم في تبادل النظرات ، بعد العشاء ، في غرفة التدخين ، حيث تقديم المشروبات استمر... كانوا أشبه بشركاء متواطئين يرتاب بعضهم ببعض ، من دون أن ينتقص ذلك من اتفاقهم معاً على مراقبة فريستهم... كانت للخالة إيلوا أسنان كبيرة ، وعندما تبتسم ، كانت كل الوقت تبتسم ، بلا سبب ، ربما لأنها بغير ذلك فوجهها كان قاسياً بشكل رهيب ـ عندما تبتسم ، تبدو دائماً وكأنها تعض الفراغ...

بابان ، سلط على پلانتيل نظرة ثابتة بهدوء وقح ، وكأنه يقصد بها قول :

ـ لم ينفعك أنك پلانتيل العظيم ، وصاحب شركة باس وپلانتيل ، فقد أوقعت بك ، أنا ، راوول بابان .

لقد رفض سيكارات هافانا التي لمضيفه ، ليدخن سيكاراً شديد السواد سحبه من جيبه . جيراردين دخنت سيكارة عادية . وقال پلانتيل لابنه :

ـ ينبغي منذ صباح الغد أن تهتم بشأن صديقنا جيل ...

إذ كان هنالك هذا أيضاً ، فجيل ذو هندام زري . وهو يتسبب بالخجل لهم في حلته السوداء من صوف الخروف ، التي لم تفصّل على مقاسه ، والتي كانت عليه بطول لباس المراسم ، رودنغوت ، تقريباً ! وحرجه ، عندما كان رئيس خدمة المائدة عريض الوجه ، يقدم له أصناف طعام لا يعرفها ! إنهم لاحظوا ذلك كله! كانوا يتلصصون عليه ، وعيونهم تضحك! ويتبادلون من دون كلام دعابات صامتة .

سيتولون كسوته ، هاك الأمر! لم يسأله أحد رأيه! ثم إنهم سيقودونه الى منزل رصيف أروسولين ، ولم يتكبد أحد منهم عناء إعلامه من كانت امرأة عمه تلك ، التي أجبر على العيش من الآن فصاعداً معها ، وفقاً لشروط الوصية .

في لحظة ما ، انتحى پلانتيل به جانباً في إحدى زوايا غرفة التدخين . ولم يكن جيل على ما يرام من حاله بعد . فقد أخذ رأسه يدور . ومع ذلك فهو يتذكر التفاصيل .

ـ قل لي يا صديقي ، كيف حدث أنك ذهبت لعند أرماندين تلك التي لا تعرفها ؟...

ولم يكن قد حدث لجيل أن كذب يوماً في حياته .

ـ هي التي تعرفت علي عند الخروج من المقبرة...

ـ كيف أمكن لها أن تتعرف عليك ، ما دامت لم يسبق أن رأتك أبداً .

ـ بسبب أبي وعمي ...

ـ أولاً ، هي لم تعرف أباك ، فهي ليست من الروشيل ، التي لم تجئ إليها إلا قبل خمس أو ست سنوات... أما بالنسبة لعمك فسأريك صورته الفوتوغرافية... إنك لا تشبهه قط... على أنني أفهم الأمر ... وسأوضح لك كل شيء فيما بعد... أترى يا صديقي الشاب ، ينبغي أن تحترس من بابان ، وعموماً ، من كل الأشخاص الذين...

وخلال ذلك الوقت ، كان بابان يراقبهما عن بعد ، وكأنه يفهم كل شيء تمام الفهم .

ـ أعتقد يا سيدي أنني أفعل خيراً بأن أعود الليلة إلى فندقي حيث تركت حوانجي...

كان راغباً في أن يرى جاجا مجدداً ، وأن يرجع إلى غرفته الصغيرة...

ـ حوانجك هي هنا... جعلت أحد الخدم يأخذها...

كانت ثمة لوحات على الجدران ، أشخاص ضخمون بأزياء تاريخية ، وواحد منهم ، وهو أشبه بأحد الجنود رماة البنادق من القرن السابع عشر ، كان يتبع جيل بنظره كيفما تحرك هذا ، وأخذ الأمر يصير وسواساً مستبداً .

ـ اشرب جرعة من هذه الفاخرة المعتقة التي ستشد من أزرك ، وغداً...

وجيل ، في انقباض صدره الشديد من فكرة النوم في هذا البيت الغريب ، الذي يعتقد أنه أحس فيه عداء ساخراً يكمن له في كل الزوايا ، أفرغ الكأس .

وإذ ذاك ، على حين غرة ، اتسعت عيناه ، وأدرك أن تلك كانت الكارثة . غثت نفسه ، ولا وقت لديه ليخرج من الغرفة .

وهناك ، على سجادة عجمية رائعة ، بغتة ، قاء ، في الوقت ذاته الذي غصت فيه الدموع في حلقه .

قالت جيراردين في زفرة :

ـ ما كان عليك أن تجعله يشرب يا پلانتيل . يا للصبي المسكين!...

الدموع ملء عينيه ، تراءت الصور معتكرة أمام عيني جيل ، وهم يسندونه من كتفيه .

ـ كأس ماء يا جان .

ـ لا . بل بعض النشادر .

ـ اعذروني ... أطلب منكم الصفح ...

ـ بابان ... اقرع الجرس لباتريس إذا تكرمت .

بل تذكر جيل أيضاً اسم رئيس خدمة المائدة ، ذي الرأس المفرط عرضاً .

ـ إذا تكرم السيد بأن يتبعني .

ـ هل يمكن الدخول ؟...

رأسه فارغ ، ما يزال يعاني من الألم فيه ، كان جيل قد انتهى قبل قليل من ارتداء ملابسه . وأدهشت المفاجأة ، من عند الباب پلانتيل الابن ، المكلف بالاهتمام بأمر جيل ذلك اليوم ، لهدوء نظرة جيل وعدم الاكتراث البادي فيها .

ـ هل نمت جيداً ؟... لماذا لم تقرع الجرس لتطلب إحضار إفطارك ؟

ـ لست جائعاً ...

ـ اضطر أبي للذهاب الى الميناء وهو يعتذر ... وقد استعلمت

بالهاتف . هنالك بعض المتاجر مفتوحة رغم أن اليوم هو « يوم الموتى » ... فيما بعد سيتعين الذهاب الى بوردو أو باريس لشراء الملابس لك ، فهنا لا يجد المرء أي شيء يفي بالغرض ... خالتك تنتظرنا كلينا على الغداء... وستتعرف الى ابنتي خالتك...

وسأل جيل ببرود : ـ والأخرى ؟...

ـ أية واحدة ؟

ـ تلك التي سأعيش معها .

ـ كوليت ؟ ... لا تشغل بالك بشأن هذه ... لن تكون هنالك مناسبات كثيرة لتراها وهذا أفضل لك... إنها أرملة عمك موقوازان... سأروي لك الأمر بالتفصيل ذات يوم... وقد انقضت سنوات على انقطاع أية علاقة بينها وبين عمك ... كانا يعيشان معاً في البيت ذاته من دون أن يوجه أحدهما أي كلام للآخر... سلوكها... النهاية!... يبقى أنها اذا لم تستمر في الإقامة في المنزل في رصيف أورسولين ، فإن الريع المخصص لها سيلغى...

ـ إنها خانته ؟...

وقال جان پلانتيل ساخراً :

ـ بعض الشيء... إننا خارجان ، هل تتفضل ؟... لا يستحق الأمر أن نأخذ السيارة...

عن ذلك النهار ، سيحتفظ جيل بذكريات أقل من التي تركتها فيه الليلة السابقة . إلا أن إحدى الذكريات عنها لها على الأقل علامة مميزة .

فقد كانا ، هو وجان پلانتيل ، في متجر ضيق يقع على ساحة تدعى ساحة الكايْ ، أي طائر السمان . محل ساعاتي على اليمين ، وصيدلية في الجهة المقابلة ، ولكن الصيدلية كانت مغلقة .

كان المتجر محلاً لبيع القمصان ، يبيعون فيه أيضاً بعض الملابس الإنكليزية .

جان پلانتيل ، الذي كان على سجيته تماماً ، تولى الاختيار هو . ولما لم يجدا معطفاً أسود ، فإنه أخذ يؤكد :

ـ لا ضرورة لالتزام حداد كامل أصولي طالما أن الناس هنا لا يعرفون ... هذا المعطف الراغلان الرمادي القاتم يلائمك تماماً... جرّبه مع هذه القبعة ذات الحافة .

وأحس جيل نفسه مثار سخرية . كان شاحباً جداً في ذلك الصباح ، جفناه بهما بعض الاحمرار ، وزكامه لم يشف كلياً بعد ، يلمع أنفه من جراء ذلك .

فقد ألفى نفسه طويلاً ونحيلاً في المرآة المخضرة الضاربة الى الزرقة ، ذراعاه متدليان على طولهما ، وهو منسحق تحت الراغلان العريض كشخص جهم كئيب الصورة .

في تلك اللحظة رفع عينيه . وفاجأ في الطابق الأول من أحد المنازل في الجهة المقابلة صبيتين تضحكان . كانتا في مكتب يقرأ المرء على زجاج نوافذه كلمة : «بوبليكس» .

وجمد جيل ، فقد عرف في إحدى الشابتين اللتين كانتا تسخران منه مجهولة الرصيف البحري .

ـ بانتظار تفصيل بزة مقبولة له ، فقد يكون عندك بنطلونات صوف ناعم ، فلانيلة! ويلزم أيضاً دزينة قمصان ، وبيجامات ، وقفازات ، وربطات عنق...

ـ سأريك هذا كله يا سيد پلانتيل .

وفي مقصورة منفتحة في صدر المتجر ، جرى تحويل جيل من شكل الى شكل ، من رأسه الى أخمص قدميه . ولم يحتجَ . تركهما

يفعلان ما يريانه ، بعدم اكتراث كامد النفس .

ولكنه لن ينسى . لن ينسى شيئاً! وجان پلانتيل ، الذي أدهشته طواعية جيل ، قال أول الأمر لنفسه :

ـ يبدو في النهاية أنه أبله هادئ ...

في منزل خالته إيلوا ، ساد اعتقاد بوجوب إعداد عشاء فاخر . وقد اجتاز هو المخازن التي كانت تصدر منها رائحة أحبها جيل ، وبخاصة رائحة القطران .

وعلى الدرج الحلزوني الذي تدلت منه أدوات بحرية مختلفة ، سُمع صوت شابة دال على الانهماك تقول :ـ بسرعة يا لويز! . . . هاهو .

خالته ، لم تكف عن الابتسام بكل أسنانها وهي تدعوه : « يا صغيري جيل » .

ـ سترى ابنتي؛ خالتك ... يا إلهي ، يا لها خسارة أن يصادف بالضبط أن بوب في باريس!... أنا على يقين من أنك أنت وبوب...

كان المستوى أقل مما في المنزلين اللذين استُقبل جيل فيهما مساء البارحة ، أكثر برجوازية وعتمة ، وأكثر انغلاقاً على الخارج وكتمان صوت .

بدت ابنتا الخالة في ثيابهما ليوم الأحد ، الحولاء : بالأزرق ، والأخرى : بلون زهر ذائب . وكان هنالك معزف بيانو بذيل في غرفة الاستقبال .

ـ شكراً يا خالتي ، لن أشرب .

ـ لا لزوم لأن تنفعل وتتأثر بسبب ما جرى البارحة . أمر طبيعي أنه بعد كل ما عانيته من ألم...

لم يأكل من سرطان البحر . وأجاب على الأسئلة بأدب ، من دون أية كلمة زيادة .

وبالمقابل فإنه طرح سؤالاً فاجأ الجميع :
- متى سأرى زوجة عمي كوليت ؟
وهتفت جيراردين إيلوا :
- ولكنني آمل أنك لن ترى هذه المرأة !... أقصد أنه لن تكون لك أية علاقة بها . يكفي ، وزيادة ، أن هذه الوصية الغبية ترغمك على أن تعيش تحت السقف ذاته معها و...
- أهي بعمر عمي ؟...
- إنها تصغره بعشرين عاماً . كانت يوم تزوجها عاملة في دار سينما أولمبيا ترشد الزبائن الى مقاعدهم بعد إطفاء الأنوار . أليس صحيحاً يا جان أن هذه الفتاة لا تستحق ...
يبقى على أية حال أن جان پلانتيل حينما رجع الى منزله في شارع ريومور كان قد غيّر رأيه بشأن جيل وأعلن لأبيه .
- ينبغي الانتباه... إنه شخص خبيء الدخيلة... لقد درسته طوال النهار وأعرف ما أقول .

* * *

جرى الاجتماع في اليوم الثاني ليوم عيد الموتى ، في الساعة العاشرة صباحاً ، في مكتب الكاتب بالعدل هرڤينو .
وترأس هذا الأخير الاجتماع ، رغم نقرسه ، ومعه بجانبه كاتب مساعد رائحته منفرة . كان راوول بابان حاضراً ، تعترض سلسلة ساعة جيبه كرشه الكبير ، وسيكاره بين شفتيه كما هي عادته .
والخالة إيلوا ، التي ارتدت ثيابها الفاقعة المضحكة للأيام الكبيرة الاحتفالية ، مضت تتكلف تكتم المظهر والحركات ، في حين

أن پلانتيل ، بمواقفه وتصرفاته ، بدا وكأنه قد أخذ جيل تحت حمايته .

كان هنالك أيضاً شخص آخر حاضراً ، طويل ورخو ، ذو عينين تسيلان ، يناديه الجميع : السيد الوزير ، لأنه حدث فيما مضى وصار وزيراً لبضعة أيام وما يزال يشغل مقعداً في مجلس الشيوخ ، كان اسمه : پونو ـ راتوه .

ـ أيها السادة ، سأشرع إذن بفتح الوصية رسمياً...

هل فعل ذلك قصداً ؟ فقد قرأ بسرعة كبيرة جداً وبشكل سيء لدرجة ، متعثراً في مقاطع صوتية ، ومبتلعاً غيرها ، بحيث أن جيل لم يفهم أي شيء تقريباً من كل تلك الخليطة القانونية الداخل بعضها ببعض .

ـ ألخص اذن بكلمات قليلة ، إن السيد جيل موڤوازان يرث كل الأموال المنقولة وغير المنقولة العائدة للمرحوم أوكتاف موڤوازان ، على أساس تقيده ببعض الشروط ، مثل الالتزام بأن يقيم في منزل شارع رصيف أورسولين وأن يتقبل في المنزل وجود السيدة أرملة موڤوازان . ومادامت هذه ملتزمة الإقامة في المنزل ، وبهذا الشرط حصراً ، فأنا مكلف بصفتي منفذ الوصية بأن أدفع لها راتباً سنوياً قدره اثنا عشر ألف فرنك ، علماً بأن مصاريف إعالتها المعيشية يتكفل بها السيد جيل موڤوازان... »

« وسيكون لهذا الأخير ، إلى أن يبلغ سن الرشد القانونية ، وصي عليه هو السيد پلانتيل ، وكوصي بديل خالته السيدة إيلوا...

« وفي الوصية بنود أخرى أقل أهمية وهي ستكون محل... »

كان مكتب الكاتب بالعدل سيء الإنارة ، بالنظر لوقوعه في

الطابق الأرضي من البناء في شارع غرغوللو ، فقد زودت نوافذه بألواح من زجاج سميك أخضر اللون .

ـ يتعين عليَ الآن بحضوركم جميعاً ـ وهذا هو السبب سيدي الوزير في استدعائي إياك للحضور الى مكتبي ـ يتعين عليَ ، قلت ، أن أسلم السيد جيل موڤوازان رسالة مختومة ، عليه أن يفضها أمام الجميع . والرسالة هذه التي ترون...

وأخرج من درجه علبة صغيرة مختومة بالشمع الأحمر .

ـ « هذه الرسالة تحوي مفتاح صندوق الحديد الخاص الذي أرسى السيد موڤوازان مكانه في غرفة نومه . وتعليماته في شأنه محددة بدقة ، على ما فيها من بعض غرابة . فأنا فعلاً لا أملك التركيب السري لفتح الصندوق ، ويبدو أنه غير مسجل في أي مكان . والأمر ، هو أن إرادة المتوفى قاطعة : لا يجوز بأي حال من الأحوال كسر القفل لفتح الصندوق .

« الأمر الذي يعني أن السيد موڤوازان لن يفتح الصندوق إلا يوم يكتشف بوسيلة من الوسائل التركيب السري لفتحه .

« وأخيراً أيها السادة ، أشير إلى أن نسخة عن المفتاح أودعت في خزنة مصرف فرنسا المركزي . سأطلب منكم بضعة تواقيع ، وبدءاً من بعد ظهر اليوم ، سأتولى القيام بالإجراءات الشكلية التي... »

عندما وجد جيل نفسه مجدداً في الخارج ـ كان ذلك يوم سوق ، وشارع غرغوللو حي بالحركة ـ كان في جيبه مفتاح أبطح ، وبموجب ما أعلنوه له ، فهو لن يفيده في شيء .

ـ آمل ، سيدي الوزير ، أنك ستقبل الدعوة لتناول الغداء معنا وكذلك صديقتنا جيراردين ...

وأشاع ذلك بقدر كاف شبهاً بجو عودة من تشييع جنازة .

بابان اعتذر . وكان الوزير ذو البطن الرخو يتكلم قليلاً ، وعيناه تدمعان .

ـ أهننك أيها الشاب على هذا... على هذه... وآمل أنك ستبين جدارتك بثقة عمك «الذي كان صديقنا جميعاً» ، والتي أظهرها نحوك .

وحلّ دورهم ليحسوا حرجاً أمام هذا الشاب الذي ينظر إليهم الواحد بعد الآخر ، وقد أرّق الزكام راحته ، إنما يستحيل أن يفطن المرء الى الأفكار التي تراوده .

الحقيقة ، أنه كان يفكر بصبية رصيف الميناء ، بذينك المخلوقين اللذين دُسرا كل بالآخر ، في الليل الهابط ، وسط الضباب الضارب الى الصفرة ، وهما مسترسلان في قبلتهما ، يطيلانها حتى انطفاء النفس لديهما .

بات الآن يعرف أين تعمل .

ولكنها سخرت منه ، مع رفيقتها ، من معطفه الجديد ومن قبعته الجديدة .

ـ٤ـ

كانا يمشيان بمحاذاة الرصيف البحري ، هو وخالته إيلوا ، والليل أخذ يرخي سدوله ، مرقش الصفحة بنقاط أنوار شاحبة . وبدا اضطراب حركة جيراردين يشبه الحركة الدائبة لأم تقود ابنها الى المدرسة لأول مرة . فهي من الظهر ، لم تعد تطيق أن تلزم مكاناً واحداً . وكانت أرسلت قبل ذلك خادمتين ، مع ابنتيها ، الى منزل رصيف أورسولين . وبعدها ، من ساعة لساعة ، تتذكر تفصيلاً ما ، فتتصل بالهاتف، بأحد الموردين ، أو ترسل أحد صبيان المتجر في مهمة .

ـ كان من شأن الأمر أن يكون أبسط الى حد بعيد يا مسكيني جيل لو عشت معنا .

واجتازا قناة تفضي الى الحوض . وبدأ يرتسم مقدم رصيف بحري وادع ، حجارة تبليط أرضيته مستديرة ، بينما تعاقبت عشرات البراميل الضخمة مصفوفة أمام بائع خمور بالجملة .

كان ذلك هو رصيف أورسولين البحري الذي سيعيش جيل فيه بدءاً من الآن . وتلك الكتل القائمة في نصف الضوء العتم ، كانت هي

سيارات موڤوازان للسفريات ، التي أطلق عليها أيضاً «السيارات الخضراء ، والتي تأخذ طريقها الواحدة بعد الأخرى عبر كل أرياف المنطقة .

وكان ثمة جمع من الناس يلازمون أمكنة وقوفهم منتظرين ، محملين باللفائف والربطات أو السلال ، في حين يجري تكديس الطرود فوق ظهر السيارات ، وكل شيء يتم في ظليل ليلي غريب ، لأن الرصيف لم يكن مضاء ، ولا تكاد العين تميز إلا بجهد مصابيح السيارات الضاربة الى الصفرة . المصابيح الحمراء في مؤخرة السيارات كانت أوضح للعين ، ومن بعيد ، تجعل المرء يفكر بطيف سيكار عملاق .

كان الطقس رطباً وبارداً ، وخيل لإيلوا أن تلك الحركة الدائرة والدائبة في الظلمة الغروية أوقعت في نفس جيل انطباعاً شاقاً .

ـ لن يقع عليك أن تشغل نفسك بأمر السيارات ، العمل يسير من تلقاء نفسه اذا جاز هذا الكلام... يوجد مدير مشرف على العمل... شخص هو أشبه بوحش... وهذا ما يلزم لهؤلاء الناس للإمساك بزمامهم وقيادتهم .

بناء ضخم مشارف للرصيف . كان كنيسة قديمة . بابه مفتوح على عرضه . يُستخدم داخله مرآباً لسيارات موڤوازان . كوى قطع تذاكر على اليمين ، في حواجز زجاجية فاصلة . ورجل بين عمرين له ردنا قميص من القطن الجاهز ، وحاجباه السميكان يخفيان عينين طيبتين نظرتهما وجلة .

صناديق للشحن في كل مكان ، براميل ، وأدوات زراعية مصفوفة بالقرب من أعمدة الكنيسة القديمة ، تبعاً للوجهة ، ومحركات يحاولون تشغيلها ، ومصباحان فقط ، إضاءتهما مباشرة

فجة ، من دونما صحن يصد نورهما باتجاه الأسفل ، يتدليان من السقف المقدس فيما مضى ، دخان ، ورائحة وقود سيارات ، وأخيراً رجل قصير على قائمتيه ، هو المدير المشرف الذي تكلمت الخالة إيلوا عنه ، وذراعه الأيسر قد حل محله ذراع اصطناعي ينتهي بخطاف حديدي بارد .

ـ يُفضل أن يأتي پلانتيل كي يقدمك هو إليهم . هيا بنا الى المنزل...

أكان ذلك هو المنزل القديم لكاهن الأبرشية ؟ فبعد الكنيسة المحوّلة الى محطة انطلاق لسيارات السفر مباشرة ، يلقى المرء نفسه مجدداً وسط الظلمة التامة . كان سياج يحيط بباحة مبلطة ، والمنزل ، القديم جداً ، يتألف من جناحين .

ـ لئن اشترى موڤوازان المنزل ، فلأن مالكه كان نبيلاً بلقب كونت ، وموڤوازان بدأ عمله عنده .

وسأل : ـ ما نوع العمل ؟

ـ كسائق ... وستلقى ألسنة سوء كثيرة لتذكرك بذلك ...

كان هنالك نور يلحظه النظر في نوافذ الطابق الثاني لكن يرشح مصفّى جداً . وأعملت جيراردين جرساً ذا رنين حاد وهزيل وكأنه جرس دير للرهبان . واستغرق الأمر وقتاً ريثما جاء من يفتح . وانفرج الباب أخيراً عن امرأة قصيرة هرمة ، ومن دون أن تنطق بكلمة أخذت تنتظر .

لم تحيِّ لا جيل ولا جيراردين . وأدارت هذه بنفسها زر الكهرباء في الدهليز ، في حين ابتعدت المرأة العجوز بعدما أعادت إغلاق الباب .

ـ عندما يرجع بوب من باريس سيتولى معك إصلاح حال البيت... لديه كثير من الذوق ... لم يكن موڤوازان يعيش كالآخرين...

وفتحت بضعة أبواب . غرف فسيحة جداً لم تجر تدفئتها منذ زمن طويل ولها رائحة رطوبة . وكان موڤوازان قد اشترى المنزل خالصاً بفرشه وأثاثه ، ولم يكبد نفسه عناء أن يغير مكان خزفية زينة واحدة أو لوحة .

كان يمكن لغرفة الاستقبال أن تستخدم قاعة رقص ، بمقاعدها المنجدة الوثيرة وذهبية اللون ، المصفوفة على طول الجدران ، وثريا الكريستال التي تصدر رنيناً مع كل حركة مشي في الغرفة .

وزفرت جيراردين قائلة :

ـ كل شيء يجب إعادة العمل فيه ... لنصعد ...

الطابق الأول أيضاً كان في حالة فوضى من أشياء لا رابط بينها وبعضها فوق بعض . وما همّ أوكتاف من الأمر طالما أنه لم يكن يعيش إلا في الطابق الثاني ؟...

ـ أنتنّ هنا يا بنات ؟

وظهرت لويز في أعلى الدرج ضامة شعرها في منديل ، ذلك أن الابنتين ايلوا قد ساعدتا الخادمتين اللتين أحضرتاهما معهما في تنظيف الغرف .

لحظة أخرى تنقضي ، وسيبقى جيل أخيراً بمفرده ، الأمر الذي جعل رجفة تسري في أصابعه . لكأن دوخة أخذت به . لم يكن يصغي لشيء .

أوَ لم يكن غريباً أن موڤوازان ، الثري موڤوازان كما أطلق على مالك سيارات السفر ، قد أرجع في هذا المنزل الكبير صورة الشقة التي يعيش فيها بسطاء الناس ؟... بل زعموا أنه قد جلب أثاث بيت أبويه . فغرفة الطعام كانت تحوي طاولة مستديرة ، وخزانة بوفيه طراز هنري الثالث ، وكراس مغطاة بجلد وذات مسامير نحاسية غليظة .

وكامرأة اعتادت التفتيش ، مضت السيدة إيلوا تتأكد من أن كل شيء مرتب في مكانه ، وأن أواني الزهر قد وضعت فيها الزهور التي أوعزت بالإتيان بها .

ـ انتهيتن يا بنات ؟ فلنرَ غرفة النوم ...

إنها تلك التي كانت لعمه . ومن قبل ذلك كانت لأبويه في قرية نيول ـ على ـ البحر . سرير فلاحيّ من خشب الأكاجو . ومقعد منجّد منهك . وعلى الجدار صورتان شخصيتان في إطارين بيضويين : رجل عجوز ، وامرأة عجوز بما يشبه قلنسوة على الرأس مدبّبة . وأحس جيل مفاجأة لدى رؤيته أن جده كان قصير القامة ، قوي الجسم جداً ، له فك مهول مما يكون مثله لرجل غابات .

ـ سيتعين يا مسكيني جيل أن تـ ...

ولم تكمل جملتها . بل أخذت تربت بمحرمتها على عينيها كما لو أنها تتخلى عن ابن أختها لأخطار جسيمة...

ـ هيا يا بنات ... أمرّ صباح غد لأرى كيف انقضت الأمور ...

قبلة خاطفة على الخدين مثل نقرتي منقار .

وأخيراً . وحده . في منزل صار بدءاً من الآن منزله .

* * *

كان وحيداً ، تمسك غصة خفيفة بحلقه ، وليس ثمة لطمأنته إلا الصوت العادي للصحون وأواني الطعام في غرفة الطعام القريبة ، التي يرتطم بعضها ببعض حين تُمد المائدة .

وعندما أزاح جيل عن النافذة قليلاً الستارة التي من مخمل قاتم ، ميزت نظرته في الظلام شكل الرصيف البحري ، وبضعة مصابيح على

الغاز في أعلى أعمدة الإنارة ، وناحية مركز المدينة بخاراً أكثر ضوءاً ، وأخيراً ، على مقربة منه ، عند طرف الجناح ، في الطابق ذاته الذي هو فيه ، نافذة منارة بوهن . في ذلك المكان تمكث زوجة عمه التي لم يرها بعد .

لم يكن يعرف الساعة . ولم يفكر بأن ينظر إلى ساعته . لقد أوقعت غرفة نوم عمه انطباعاً قوياً في نفسه . ألم يكن مما يثير الفضول أن أحداً لم يُرِه صورة شخصية لذلك العم ؟ ... وهو لا يعرف كيف يتخيل أوكتاف موقوازان . هل كان طويل القامة ببعض كآبة مثل والد جيل ؟... أم هو يشبه ، على العكس ، العجوز صلب العود الذي كانت صورته الفوتوغرافية فوق السرير ؟...

عندما قرعتْ الباب ، العجوز التي كانت استقبلته استقبالها شحيح الدماثة ، لم تتلق إجابة على الفور . بل بلغها صوت جيل آتياً من حجرة أخرى متصلة بغرفة النوم...

ـ ادخلي ...

وتقدمت ، مندهشة ، يداها على بطنها ، ونظرتها متّهمة .

ـ ادخلي يا سيدة رانكية... قيل لي إن اسمك هو السيدة رانكية... ترين ... أخليت الغرفة إلى غيرها... اكتشفت هذه الغرفة الأصغر وسأكون فيها أكثر راحة ...

لم تظهر لا موافقة ولا اعتراضاً . واقتصرت على نطق :

ـ إنك السيد ... جئت أسألك في أية ساعة ترغب بأن يُقدّم العشاء...

ـ في أية ساعة كنتم تقدّمون العشاء عادة ؟...

ـ في السابعة والنصف ...

ـ حسناً إذن . لا أرى موجباً يدعو للتغيير .

كان يود لو يطرح أسئلة عليها عن عمه . عن زوجة عمه ، ولكنه أدرك أن الوقت مايزال مبكراً لمحاولة استئناسها .

ـ في هذه الحال سأخطر السيدة...

منذ السابعة والنصف إلا خمس دقائق ، كان قد صار في غرفة الطعام ، وهو نفسه مدهوش من انفعاله . كان الجو حاراً فيها ، والديكور حميماً مطمئناً . وروائح طيبة تصل من المطبخ الذي يبلغ الأذن منه صوت حركة السيدة رانكية جيئة وذهاباً ، وقدماها في خف من اللباد .

طقطقة خفيفة عند نهاية الرواق لا تكاد تميّزها الأذن ، ومع ذلك فقد نقز جيل ، اعترته هزة ، وظل مستديراً ناحية الباب . رأى المقبض يدور . وانفتح الباب .

كان من شأنه أن يلقى عسراً لو أنه حلل الانطباع الذي تركته فيه زوجة عمه .فهي لم تكن تشبه في شيء ما سبق وتخيل عليه صورتها . عند دخولها تلاقت نظرتاهما ولكنها خفضت عينيها على الفور ، وبمثابة تحية أحنت رأسها بسرعة إحناءة قصيرة .

ثم نظرت إلى توزع مسلتزمات الأشخاص لتناول الطعام ، كأنما لتعرف إن كان مكانها على المائدة تبدل . وتعرفت الى الحلقة المطرزة على فوطة طعامها ولبثت واقفة بقرب كرسيها .

ولم يجرؤ هو كذلك على الجلوس ،وأخذ الموقف يصبح داعياً للسخرية لولا أن السيدة رانكية دخلت حاملة وعاء حساء من الخزف السميك يتصاعد البخار منه .

هل قال جيل : طاب يومك ؟ ... ما عاد يتذكر . شفتاه على أية حال تحركتا . وكان قد تساءل طويلاً وهو في غرفته إن كان عليه أن يقول لها : سيدتي ... أو ، يا امرأة عمي...

سكبت لنفسها قليلاً جداً من الحساء . ولم يجسر على أن يأخذ بأكثر مما أخذت . ولا أن يطلب شيئاً من الخبز الذي كان أبعد من مطال ذراعه فمدّته أخيراً له .

ولعل ما أدهشه أكثر من أي شخص آخر هو أنها على ذلك القدر من قصر القامة ورقة العود وصغر العمر ، إذ لم يسبق له أبداً أن أحدثت امرأة لديه انطباعاً بهشاشة مثيلة لهشاشتها . لدرجة أنها جعلت خياله يذهب الى عصفور صغير لا يكاد يمسّ لخفته غصن الشجرة الذي حط عليه .

ملامح وجه ذات دقة مرهفة ، وبشرة نضرة ، بشفافية ألق خزف صيني ، عينان زرقاوان في جفنين مزويين بدقة . الجفنان وحدهما كانا يدلان على أنها موشكة على بلوغ الثلاثين .

وأحس أن نظرته تربكها وأنها تأكل بصعوبة . عندئذ نظر الى ناحية أخرى ، وسرعان ما كانت نظرة كوليت هي التي حطت عليه ، بخجل ، وبنظرات مختلسة خاطفة .

وانقضى العشاء من دون أن يُنطق بكلمة واحدة . وأخيراً ، أخذ الدم ينبض في رأس جيل . ذلك لأنه كان توفر الوقت له كي يعد خطاباً قصيراً . ولكن النطق به بدا صعباً ، بالصعوبة ذاتها التي لقيها يوم ألقى أول كلمة تهانئ لأهله بعيد رأس السنة ، حين بلغ الثالثة من العمر .

ـ سيدتي ... زوجة عمي... أود أن أطلب إليك ... ألاّ شيء ... يجري تغييره بسببي في منوال الحياة في المنزل ... وأعتذر من أن آتي إليك فـ...

وقد عقدت حاجبيها . وأمالت رأسها قليلاً ـ وكان لاحظ قبل ذلك أن تلك عادة لديها ، مثلما عند النساء اللواتي تألمن كثيراً ـ وغمغمت :

ـ أنت في بيتك ، أليس كذلك ؟...

ونهضت... وتركت بضع ثوان تنقضي ، على سبيل الأدب البحت .

ثم أحنت رأسها :

ـ طاب مساؤك أيها السيد ...

وقد ودّ لو يستبقيها .

اغتاظ طوال بقية المساء من نفسه . وبدا له أن بضع كلمات ، حركة ، كانت تكفي...

ومن دون أن تنشغل السيدة رانكية بأمره ، انصرفت الى رفع المائدة . ومع ذلك قالت له :

ـ إذا خرجت ، خذ المفتاح المعلق وراء الباب . أما بالنسبة للسياج الخارجي ، فمدخاه لا يغلق أبداً...

.

تولد انطباع لديه ذلك المساء بأن جوّ البيت سميك لدرجة بحيث إن أوهى الحركات تطلق فيه ما يشبه الموجات . والصمت ، هو أيضاً ، أوقع في نفسه . وكان قد سمع السيدة رانكيه وهي تصعد الى السقيفة تحت سقوف القرميد حيث تنام ولابد . لقد مشت بعض الوقت فوق رأسه ثم سمع صرير مفرش سرير .

لكن بقي هنالك ضوء ظل مشعلاً في آخر نافذة من الجناح الأيسر . رصيف الأورسولين كان مقفراً . وإذا ما غامر أحد السابلة بالمرور فيه ، يظل وقع خطواته يُسمع طويلاً ، ثم ، في مكان ما ، صوت باب يُفتح ويُغلق ثانية .

وقد بدأ جيل بنزع ملابسه عنه . وقد صف على صوان صغير ، كما هي عادته ، الأشياء التي سحبها من جيوبه ، وقلّب في يده لحظة

المفتاح المسطح ، الذي كان سلمه إياه ، برسمية احتفالية غريبة ، الكاتب العدل هرفينو .

ما فائدة هذا المفتاح ، طالما أنه لم يكن يعرف الكلمة التي ستسمح بفتح الصندوق ، قليل المهابة بقدر ما يمكن القول ، والملتحم بالجدار على يمين السرير : فوق الطاولة الليلية .

فتح الخزانة ليأخذ منها منامة يرتديها ولكنه انتفض ، فقد سمع صوت سيارة . وبدا له أن السيارة توقفت فجأة لتوها على مقربة من المنزل .

وهرع باتجاه النافذة وأزاح الستارة . كانت سيارة قد توقفت فعلاً بمحاذاة القناة ، على بعد خمسين متراً . مصباحاها ما يزالان مشعلين إنما انطفأا في اللحظة ذاتها ، ثم صُفق باب السيارة ، واتجه رجل بخطوة سريعة ناحية سياج المنزل . فتحه واجتاز الباحة .

وجرى جيل الى باب غرفته . كان الرواق عتماً على امتداده . ولكن النور لم يلبث أن انبثق فيه ، في حين اتجه طيف أنثوي صوب الدرج .

ما نفع الانفعال على ذلك النحو ؟ ألم يعلموه أن كوليت ومنذ سنوات قبل الآن وهي على علاقة بعشيق ، وأن زوجها لم يكن يجهل ذلك ؟

عبثاً ، ذهب كل ما عمد جيل الى فعله ، فقد اضطرب عاليه سافله ، وأطفأ النور في غرفته بقصد ألا يكشف وجوده ، ومكث في إطار الباب متولياً الحراسة .

وسمع بوضوح قاطع أن أحداً يأخذ المفتاح من على المسمار والذي كانت السيدة رانكية قد دلته عليه ، وأن باب البيت فتح باحتراس . ثم الصمت . ماذا كانا يفعلان في الأسفل ؟ ألم يكن كل منهما بين ذراعي الآخر ؟

والآن أخذا يصعدان . كان بساط الدرج يخمد صوت خطاهما . وظهرت زوجة عمه ،كوليت ، أول الاثنين ، ممسكة يد الرجل الذي كان يتبعها ، ووجهت نظرة خاطفة ناحية جيل الذي لم تتمكن من أن تراه .

وقد أدار العاشقان ظهريهما الآن وغابا أخيراً في رواق الجناح الأيسر .

كان أكثر احتياجاً من أن يتوفر له أن ينعم التفكير في ما يفعل . إذ ما حاجته مثلاً لأن يذهب ، عاري القدمين ، حتى غرفة زوجة عمه ؟! فهو يعرف أن الثنائي كان في الداخل . وما شأنه هو بالأمر ؟! . كان هنالك خط ضوء عند أسفل الباب ، والهمس المسموع يشبه الوشوشة التي تميزها الأذن على مقربة من كرسي الاعتراف .

ووعد نفسه قائلاً لنفسه : ـ سأخلد للنوم...

وقدظل يشعر بإطباق ضيق على صدره من فكرة أنه بين لحظة وأخرى قد يمكن أن يفاجأ .

التعب في النهاية هو الذي رجحت كفته . وقد حاول جيل أن يعد الضربات التي أخذت تقرعها ساعة كنيسة المخلص الأقدس . إحدى عشرة ؟... اثنتا عشرة ؟! . لم يكن على يقين .

ورجع إلى غرفته ، منهكاً ، جهماً ، فريسة لانحراف مزاج لا يفسر ، وألقى بنفسه على سريره .

ولم يغرق على الفور في النوم . بل أخذت كل صور النهار تتعاقب في عينيه كما في طفولته ، وصور غيرها كذلك ، الصبية الفتية ، والشاب ذو المعطف المطري الأصفر ، وساقا جاجا الغليظتان

يمسك بهما سيران أحمران ، وخالته إيلوا وهي تبدو وكأنما تقوده الى نزل للغرف المفروشة...

واستولى حزن عليه فجأة . بدا له أن قدمه انزلقت ، وأنه يطفو ، عديم المادة ، في كون مجهول .

الصورة الأخيرة التي انزلقت على شبكتيه ، كانت صورة مهرج التقاه ذات يوم في سيرك في هنغاريا ، والذي كان بعد أن يضع الطلاءات على وجهه للعلبة ، يشبه الى حد يثير الدهشة الحاجب العدل هرفينو ، والذي له صوته المتهكم ذاته .

حدث ذلك أول الأمر في حيز تضيع الحدود فيه ما بين الحلم والواقع . ولماذا قد يأتي أحد ليسترق السمع على بابه طالما أنه وحده وأنه كان نائماً .

وأخذ يدفع عنه صورة المهرج ويجهد في ألا يسمع صوته بعد ، كي يتوفر له أن يميز أصواتاً هي في منتهى الضآلة ، بضآلة حس فأرة تدرج خبباً .

وها هو يمسك اختناق بحلقه . كان صاحياً . ولديه إحساس بحضور إنساني بقربه . شيء ما قد تحرك ، وحصل احتكاك لجسم ما على رخام الصوان الصغير .

لم يسبق له أن حدث وامتلك مسدساً . كان خائفاً . وأخذ يتساءل ، وندى العرق يغمر جسمه وهو تحت أغطيته ، أين مكان مفتاح الضوء . ولم يفلح في أن يتذكر ذلك .

وبالإضافة ، لئن كان لصاً فما نفع أن يتدخل ؟ فلا أحد في المنزل كي يهرع الى نجدته . والوقت متوفر لقتله... وأخذ يتخيل عملية خنق طويلة...

كان على يقين ، على يقين مطلق بأنه لا يحلم ، وأن باباً كان قد انفتح ، وهو على الأرجح ذلك الذي يتصل بغرفة عمه .

وعندئذ ، كف عن التفكير بطريقة عاقلة . وتخبط كما لو أنه يصد عن نفسه اعتداء عليه . وارتطم ذراعاه اللذان كانا يصطفقان في الفراغ بأحد العوائق وانفجرت ضوضاء مفاجئة في المنزل .

ومع ذلك ، لم يكن الأمر غير مصباح ليلي صغير مما يوضع عند رأس النائم ، لبنيّ اللون ، حملته اليه من عندها الخالة إيلوا ، لأنه كان قال عنه إنه جميل .

وقد أفزعته الجلبة جداً لدرجة أنه نهض . رأى بصيص نور تحت أحد الأبواب .

ونسي فزعه . إذ كان خوفه مفرطاً ، تدفعه حاجة غامضة في نفسه لأن يعرف ويطمئن . ومشى نحو ذلك الباب ، قالباً في طريقه أحد الكراسي . وعلى الرغم منه ، وبسبب من الألم الذي أصاب ركبته ، صرخ :

ـ آي!...

كان على يقين ، يقين صارم الجزم ، من أنه لا يحلم . والبرهان ، أنه في اللحظة بالضبط التي فتح باب غرفة عمه فيها ، كان هنالك نور باق في الغرفة ما يزال . وانطفأ فوراً على أية حال ، بحيث إنه لم يتوفر له الوقت لرؤية أي شيء . وفي الظلمة ، سمع أصوات ارتطام ، وخطوات ، وانغلق باب آخر بفظاظة ، ذلك الذي يفضي الى الرواق .

وأضاع وقتاً . لم يكن يرى شيئاً . فهو لم يأتلف بعد مع الأمكنة بالقدر الكافي كي يعرف طريقه في سواد الظلمة .

عندما بلغ الرواق ، لم يكن فيه أحد . ولكن البرهان على أنه لم يكن قد أخطأ هو أن المصابيح مازالت مشعلة .

وسأل بصوت رنّ في الفراغ ،

ـ من هناك ؟...

ما من جواب . ما من أوهى صوت .

ـ من هناك ؟

ومشى بخطوات واسعة باتجاه الجناح الأيسر . وأصاخ السمع عند باب امرأة عمه . إنما لم يتجرأ على أن يقرع على بابها .

وعندما عاد ، شاعراً بالخيبة ، منقبض النفس ، فإن السيدة رانكية التي كانت ألقت معطفاً أسود عليها ، إنما ظلت حافية القدمين ، كانت تهبط الدرج من السقيفة .

واستعملت : ماذا هنالك ؟

ـ لا أعرف ... بدا لي أنني سمعت ضجة .

وأشعلت النور في غرفة جيل ، ورأت المصباح الليلي مهشماً شظايا ، والكرسي المقلوب .

ـ يخيل إليّ أن الضجة ، أنت الذي أحدثتها . هل يحدث كثيراً لك أن تسير في نومك ؟

ولم يجب على الفور . فقد مضى يحدق بالصوان وعيناه مفتوحتان لآخرهما حيث كان مفتاح الصندوق الحديد ينقص من بين الأشياء التي سبق أن أخرجها من جيوبه في الليل .

لماذا نطق متهجناً :

ـ لا أعرف...

ـ أترغب أن أعد لك مغلي أعشاب ساخناً ؟! .

ـ لا ... شكراً ...

ـ هل هدأت نفسك الآن ؟! . أيمكنني أن أصعد لأعود الى النوم ؟! .

وأفلح في أن ينفرج فمه في شبه ابتسامة مبهمة .

ـ نعم... أرجو المعذرة .

بعد أن انصرفت ، هرع إلى النافذة . السيارة ، مطفأة المصابيح ، كانت هناك بعد . والرجل ، لابد أنه لم يتمكن من أن يغادر المنزل . مختبئ في مكان ما ، ربما في غرفة كوليت . عليه أن ينتظر جيل أن ينام .

وفاجأ نفسه وهو ينطق بنصف صوت :

ـ يوجد مع ذلك مفتاح آخر في مصرف فرنسا .

ثم كرر عدة مرات :

ـ لماذا ؟... لماذا ؟... لماذا ؟...

كان في سوء من كدر حاله بقدر ما كان أمره ذلك المساء يوم سكر . وأخذ جفناه يخزانه . ويمسك هو بصعوبة نفسه عن أن يبكي .

ـ ولكنني سأبقى على النافذة مهما اقتضى أن يطول ذلك ... سأراه!... سأعرف ...

لم ير أي شيء... لأنه استيقظ صباحاً وهو في سريره ، الذي جر نفسه اليه وقد أثمله التعب .

وبدأت سيارات موفوازان للسفر تخرج من الكنيسة ، في الضياء البارد لرصيف الـ « أورسولين ، وسيارة الرجل المجهول كانت قد اختفت .

ـ ٥ ـ

ما من حادثة بين كل ما جرى في هذا اليوم ، جديرة بذاتها بأن تبقى محفورة في الذاكرة كحادثة فاصلة . ومع ذلك ، فإنها بمجموعها بعضها مع بعض ، ترتبت عليها نتائج بحيث أن هذا التاريخ سيكون له أن يبقى واحداً من أهمها في حياة جيل .

فمنذ البداية ، ظهرت علامات أصلاً ، من تلك التفاصيل غير الملحوظة التي لا نريد دائماً أن نفهمها ، والتي تصيب انتباهنا فيما بعد ، عندما نعي أنها إنما كانت إشارات منذرة .

الطقس الشبيه بقطن مندوف ، مثلاً... وهذا الكون الأبيض والرمادي الذي تغدو الأصوات فيه ، وبخاصة صفير المراكب ، أكثر حدة ثاقبة إلم يكن أشد تمزيقاً... يذكر ذلك بتروندهيم . وذكر ذلك جيل بعدد كبير من مدن الشمال حيث كان يستيقظ في غرفة نوم بفندق ، هي الغرفة نفسها اذا جاز التعبير .

عندما نظر الى نفسه في المرآة ذات الإطار الأسود والذهبي ، ألفى وجهه أكثر نحولاً ، بملامح أكثر نتوءاً وحدة خطوط مما في الأيام

السابقة . وقد اختفى زكامه . إن إرهاق ليلة من النوم السيء ، والرواح والمجيء ذهاباً وإياباً خبط عشواء ، وذلك الطفو العائم الذي استمر طويلاً جداً ، كل هذا أخذ يعبر عن نفسه الآن ببشرة كامدة ذهب بريقها ، وبأنف ناتئ عظمة الجسر ، وبشفتين متهدلتين ، وحدقتين ما عادتا إلا عودي قش مظلمين في شق جفنيه .

والبرهان على أنه كان هناك شيء تبدل ، هو أنه فتح حقيبة سفره ، تلك التي تحوي أغراضه الشخصية ، وفعل ما كان يكثر أن يفعله وهو مع أبويه ، حينما ينزلون في غرفة مغفلة من أي طابع ، فقد قام بترتيب عدة أشياء ، صور شخصية انزلقت تحت إطار المرآة ، وعلبة سكاكر كانت أمه قد تلقتها قبل زمن طويل ، والتي يستخدمها في ترتيب ربطات العنق فيها ، وشال جميل أعادوا شراءه من بهلوان شرقي .

في ذات نفسه ، انطوى مغلقاً على نفسه .واختفى بالنسبة اليه منزل رصيف الـ : أورسولين . ولم يبق ثمة منه إلا هذه الغرفة . وتقلصت مدينة الـ : روشيل بحيث لم تعد إلا هذا المنظر البادي في حدود إطار النافذة : طرف من قناة ، ومسافة ضيقة من رصيف بحري ، حرة ، للنظر منها إلى البحر ، وفي البعيد البرجان اللذان يغلقان الميناء ، والى اليسار ، هذه النافذة التي كانت نافذة زوجة عمه ، كوليت ، والتي لم تُفتح درفتاها بعد .

واحمر وجهه عندما نفذت خالته جيراردين بغتة الى شقته ، وبخاصة عندما نظرت بدهشة إليه نظرة غير خالية من اللوم .

ـ غيرت غرفة نومك ؟

وسرت رعشة على شفتي جيل ، على غرار الأشخاص الخجولين الذين يتخذون قراراً . وجعل لصوته أكثر ما يمكن من حياد ، وأجلى ما يمكن من وضوح ، ليعلن :

ـ نعم . أفضّل هذه . وسأرتبها وفقاً لذوقي .

ـ إنما ... أبرقت لبوب كي يعود من باريس ... إن له صديقاً هو مهندس ديكور . وكنا قررنا...

ـ أفضل أن أرتب الغرفة وفقاً لطريقتي الخاصة .

وتلك كانت أول مفاجأة أزجاها للذين سبق أن رأوه في الأيام المنقضية . ظل محافظاً على تواضع مسلكه ، المسكين تقريباً ، من دون أن يوهن ذلك من الإحساس بأن قراره كان نهائياً .

ـ كيف جرت الأمور البارحة مع تلك المرأة ؟

ـ بصورة حسنة .

ـ هل كان الطعام معقولاً تقريباً ؟

ـ السيدة رانكية تطهي بشكل جيد جداً .

ـ ماذا قالت ؟...

ـ السيدة رانكية ؟...

ـ زوجة عمك...

ـ لا شيء خاصاً .

وتظاهر بأنه لا يلاحظ أن جيراردين إيلوا دب فيها قلق داهم منذر .

ـ بالمناسبة ، أنت مدعو على الغداء عند صديقنا پلانتيل... يريد أن يعطيك فكرة أولية عن مصالح عمك ، التي هي من الآن مصالحك...

لماذا لا يمضي حتى النهاية ؟! . وبكل عذوبة ، لكن بحزم طفل حردان ، نطق متهجئاً الكلام :

ـ أرجو أن تخبري السيد پلانتيل بأنني لن أستطيع الذهاب لتناول الغداء عنده . إنني متعب وإضافة لذلك عندي عدد من الأشياء علي القيام بها...

ـ سأساعدك ... تعرف يا جيل أنني كلياً تحت تصرفك... وكذلك ابنتاي ... فهما مشغوفتان جداً بك من الآن . أما بالنسبة لبوب ، فأنا على يقين من أنكما ستتفاهمان كصديقين قديمين...

ـ بلاشك...

ترك العبارة تسقط من فمه ، متهرباً ...

ـ في أي شيء ستقضي نهارك ؟

ـ صعب قول ذلك يا خالتي ... في أشياء صغيرة لا يؤبه لها... ترين ، التقيت عدداً كبيراً من الناس في زمن قصير للغاية . وأنا بحاجة لأن أرتاح .

ـ هل غيرت هذه المرأة ، هذه المدام رانكية ماء زهورك ؟! .

ـ لا أعلم .

وخلعت جيراردين معطفها عنها وغيرت الماء للزهور .

ـ ألا تتناول عندنا كذلك غداءك ؟... جو عائلي كلياً...

ـ شكراً يا خالتي ... سأتناول الغداء هنا .

ـ متى سأراك ؟

ـ غداً أتوافقين ؟... لا تزعجي أنت نفسك... سأمر أنا لعندكم... ما لم يكن ذلك يزعجك...

انصرفت من عنده وهي شديدة القلق ، واتصلت بپلانتيل وكلمته على الهاتف ، فغام مزاج هذا الأخير متجهماً طوال النهار .

أما جيل ، فقد نزل الى الطابق الأول وطاف متمهلاً جميع الغرف ، واختار خزانة بأدراج وكوى ، طراز سكرتير ، لها صفحة قابلة للطيّ هي للكتابة وانتقى رفوفاً للكتب ، وبضعة أطر لصور أبيه وأمه التي عنده .

ـ عفواً يا سيدة رانكية ، ليتك تتكرمين بالمجيء لمساعدتي لحظة .

هي أيضاً أظهرت مفاجأة وقلقاً . وتبعته إلى الطابق الأدنى .

ـ لماذا لا تجعل أحد عمال مرآب السيارات يحملها إلى فوق ؟...

ـ لأنني أفضل أن أصعد أنا نفسي بها...

وفي الغرفة ، ألقت نظرة على الصور الفوتوغرافية ، ثم على جيل الذي لاح لها أنها تكتشف فيه شخصاً آخر وبصوت ودي سألته :

ـ ألست بحاجة إلى أي شيء آخر ؟ توجد في الأسفل سجاجيد صغيرة جميلة جداً...

وذهب لرؤيتها معها ، واختار واحدة منها... وعلى الدرج ، تلاقى مع زوجة عمه التي كانت خارجة ، أكثر نحولاً هشاً في ثياب حدادها من أي وقت آخر ، وعلى وجهها نقاب خفيف مسدل من حرير أسود .

ولم يفعلا أكثر من أن تقاطع اتجاهاهما ، وتبادلا تحية على قدر ملحوظ من الرسمية .

في حوالي الحادية عشرة ، خرج جيل بدوره . وكانت تلك هي المرة الأولى منذ التقى أرماندين أمام سياج المقبرة التي يجد نفسه فيها وحيداً في الشارع . وظل لحظة لا بأس بها أمام سقيفة مدخل الكنيسة القديمة وهو يتأمل سيارات موفوازان ، واضطراب حركة پوانو هنا وهناك ، مدير العمل ذي الذراع الخطافية ، الذي وبالنظر لأنه لم يجر تقديمه إليه بعد ، فإنه لم يجرؤ على أن يتقدم نحوه .

ثم إنه اتجه ناحية شارع ميناج حيث يقيم الطبيب سوفاجيه ، عشيق زوجة عمه . كانت حركة السوق على أشدها . إذ كان ذلك هو نهار السوق الكبير في يوم السبت ، وتحت أقواس الشارع الضيق وسيء التبليط ، كانت الفلاحات يمعنّ في رفع نداءاتهن في الهواء واقفات وسط سلالهن .

وكانت لوحة نحاسية على باب ، بين متجر خضار وآخر لبيع لوازم الخياطة ، تعلن : موريس سوفاجيه ، دكتور في الطب . الاستشارات من الثانية حتى السادسة ـ السبت ، من الساعة ١٠ الى الساعة ١٢ » .

وهمّ بأن يقرع ، لولا أنه لاحظ أن الباب كان منفرجاً ، ولوحة أخرى . مطلية هذه بالميناء ، كُتب عليها : ادخل من دون أن تقرع...

وفي نهاية دهليز تشيع فيه رائحة أدوية ، ولج ردهة انتظار كان فيها قبل وصوله ستة أشخاص صامتين فجلس على أحد الكراسي أمام طاولة من الخيزران الهندي محملة بمجلات قديمة .

كان الناس يتبادلون النظرات من دون أية كلمة ، وتُسمع غمغمة وراء الباب ، وانفتاح باب آخر لترك المريض ينصرف . ويمد الطبيب رأسه قائلاً :

ـ التالي .

ومنذ الظهور الثاني للطبيب ، لاحظ هذا جيل فعقد حاجبيه . أيمكن أنه قد لمحه قبلاً برفقة پلانتيل أو جيراردين إيلوا ؟...

وأخذ دور جيل يقترب ، وفي كل مرة يزداد قلقاً وانشغال بال . كان له شعر بني طويل يردّه الى الوراء ، ووجه دائم الحركة ، وعينان مفعمتان حياة بشكل خارق . بحيث إنهما لا يسمحان له بأن يمرّ من دون أن يلحظه الآخرون . كان لدى والد جيل هو أيضاً ذلك اللهب الداخلي في نظرته ، فيدير بكثرة رأسه مشيحاً بنظره أو هو يبادر بالابتسام .

ـ التالي ...

ودخل جيل . وأحس ضيقاً خفيفاً في صدره وخيّل إليه أن محدّثه كان في مثل حاله من حيث إن شيئاً ما يضغط على صدره .

وبدأ جيل كلامه ، وهو واقف وسط غرفة المعاينة التي لا تختلف في فقر أثاثها عن غرفة الانتظار :

ـ لست مريضاً ... وأسألك العفو لإزعاجي إياك ، لكن...

وارتعشت شفتاه لدرجة أنه عانى مشقة في الاحتفاظ بصوته عادياً حتى انتهاء كلامه :

ـ ... جئت أطلب إليك أن تعيد لي المفتاح ...

أليست البساطة ذاتها التي أدلى بها بهذا الطلب هي التي أفقدت الطبيب صوابه ؟... فنظر هذا حوله بارتياع ، وذهب ليفتح باباً ، بشكل مباغت جداً ، وهمس بنصف صوت وكأنما يشعر بخزي مما يقول :

ـ اعذرني ... يحدث كثيراً أن تسترق زوجتي السمع...

كان پلانتيل الابن قد حدّث جيل عن الأمر . فالسيدة سوڤاجيه عاجزة منذ سنوات ، وهي تتجول في الشقة على مقعد ميكانيكي تقوده يدوياً بنفسها . وقد أخذت غيرتها شيئاً فشيئاً شكلاً مرضياً حاداً لدرجة ، بحيث إنها كانت تقضي الساعات وراء الباب وهي تتلصص على الأصوات في غرفة المعاينة .

ـ اجلس ... أطلب منك العفو... أنا... هذا المفتاح ليس معي ، أقسم لك ... ولا أفهم لماذا اتجه ظنك ...

ـ تعرف أي مفتاح أقصد أليس كذلك ؟

كانا يرتعشان كل بقدر الآخر ، الطبيب عن طبع ، وجيل لأن تجرّؤه أفزعه هو نفسه .

ـ افترض أنك تشير إلى مفتاح الصندوق الحديد .

ـ ألم تحاول هذه الليلة الحصول عليه ؟ تعرفت على سيارتك أمام الباب...

وخفض الطبيب رأسه . يحس من يراه أن شيئاً في داخله يتنازعه ويضنيه . ألم يكن هو في الحقيقة الذي ولج غرفة جيل ، ثم غرفة أوكتاف موڤوازان ؟ هل كانت كوليت هي التي ؟...

ـ اسمع يا سيد ، لا أعرف ماذا قال لك كل أولئك الناس...

ـ أي ناس ؟! .

واستقرت عينا سوفاجيه اللامعتان على وجه الشاب بثبات . كانت ثمة مفاجأة في تعبير وجهه ، وشيء آخر أيضاً ، مايزال مبهماً ، تردُد ، وربما بداية تعاطف .

ـ جماعة السنديكا...

ومشى مجدداً حتى الباب ، واستوثق من أن المريضة لم تجرّ مقعدها حتى الباب .

ـ البلانتيل ، والبابان ، وعضو مجلس الشيوخ ، والأستاذ هرفينو ، وآخرون أيضاً...

ـ ولماذا تقول السنديكا في الكلام عنهم ؟

ذلك التردد دائماً ، تلك الرغبة في أن يتكلم ، وهذا التحفظ...

ـ هل صحيح أن أبويك كانا... كانا فناني مسرح منوعات ؟...

ـ صحيح ...

ـ أنت إذن لا تعرف أي شيء عن الأعمال ، ولم تخالط أبداً أوساطاً من هذا الصنف...

وبدأ غضب يتصاعد فيه ، يحزر المرء أنه غضب أصم ، ولكنه رهيب ، وضغينة مروعة .

والطبيب ، يداه منقبضتان بتشنّج :

ـ اغفر لي اذا لم يكن بمقدوري أن أقول شيئاً ، على الأقل الآن... إن وضع زوجة عمك ووضعي... صدقني يا سيد موڤوازان ، إذا ما

أكدت لك أن المفتاح ليس بحوزتي... ومع ذلك ، أستطيع أن أعدك بأنه سيعاد إليك ، وأن الأمر لا يتعلق بسرقة ، والقصد لم يكن لا أنت ولا ثروتك... عمك كان وحشاً و...

وفجأة ، غير لهجته ، وميّز جيل كذلك صوت صرير في الغرفة المجاورة .

ـ اتفقنا يا سيد ... سأكتب لك وصفة...

صارت نظرته متوسلة تقريباً . كان جلياً بشكل بديهي أن السيدة سوفاجيه تتنصت وراء الباب .

وجلس الطبيب الى مكتبه ، وخط بضع كلمات على ورقة من دفتره ومدّ الورقة الى جيل مرافقاً إياه حتى الباب .

ـ التالي ...

وفي الشارع ، قرأ جيل هذه الأسطر المكتوبة بتسرع :

ـ أرجو عفوك . كان هناك من يتنصت علينا . أتوسل إليك ألا تضطهد وتعذب زوجة عمك . سألتقيك في المكان والزمان اللذين تريد .

بعد انصراف جيل ، هل وجد الطبيب وسيلة لأن يتصل بالهاتف بكوليت موفوازان ؟! افترض جيل ذلك . وفعلاً ، فهو عندما رجع الى منزل رصيف الأورسولين وأخذ مكانه على المائدة ، لم تلبث زوجة عمه أن ظهرت ، أكثر شحوباً وهشاشة من اليوم السابق .

ـ أعتذر عن أنني جعلتك تنتظر...

نطقت بذلك برؤوس شفاهها .

ثم ، ومن دون أن تكترث لحضور السيدة رانكية التي كانت تضع المقبلات على الطاولة ، وضعت مفتاحاً صغيراً مسطحاً بجانب صحن جيل .

وبعد أن جلست على كرسيها فقط ، ونشرت فوطة الطعام ، همست من دون أن تنظر الى الشاب :

ـ غلطت بتهجمك على الطبيب... لا علاقة له بأي شيء من الأمر... كان في غرفتي جاهلاً لما أقوم به...

وكانت تضغط على نفسها بشكل واضح كي تأكل . ولابد أنها كانت تتوقع أسئلة أعدت الإجابات عليها . وكان المرء يشعر أنها مستوفزة الحساسية حال بعض النباتات التي تتقلص بمجرد اقتراب جسم غريب منها . جيل هو الذي خفض بصره ناظراً الى صحنه .

عدة مرات ، رمقته بنظرات مختلسة سريعة باغت جيل بعضاً منها وقرأ فيها الدهشة ،وإغراء ما يراودها ، ربما إغراء أن تكلمه .

لم تفعل . واحترم صمتها . ظل ملتزماً الرصانة التامة ، يشعر مع ذلك بخفة لم يعرف مثلها منذ زمن بعيد .

بفرح ، عاد ليلتقي جو غرفته الحميم ، فهي صارت غرفته ، ونظر طويلاً الى صورة أبيه ، وخطر له أنه في شبابه كان أكثر شبهاً ولابد بالطبيب .

وتخيل صورة الثنائي ، الذي لم يكن الطرفان فيه قد صارا أبويه بعد ، وهما يتلاقيان تحت أقواس زقاق إيسكال ، غير بعيد عن المعهد الموسيقي الخاص الذي يترك الموسيقى تتسرب دائماً منه .

رقم . أو كلمة من خمسة أحرف ... مفتاح الصندوق الحديد سخن من حرارة يده . وانتقل الى غرفة عمه ، لكن عبثاً حاول جعل المفتاح يدور في القفل .

كان ثمة جهاز هاتف على المكتب ذي الدرج المستور ، وهو قطعة الأثاث الوحيدة نيرة اللون في الغرفة . وطلب جيل رقم باسّ ويلانتيل . على الطرف الآخر من الخط أجابه إدغار يلانتيل

ـ أنا جيل هنا يا سيد پلانتيل ... وأعتذر عن إزعاجي إياك...

والآخر يحتج ، يعبر عن أسفه للغداء المرفوض ، وعن إخلاصه ، و...

ـ أردت أن أعرف اذا كان بالإمكان أن ألتقيك غداً في مكتبك ...

لا! أفضل أن يكون في مكتبك... ذلك بقصد أن أكلمك عن السنديكا...

سعلة على الطرف الآخر...

ـ لكن ... أنا ... بالتأكيد ... إن كنت ترغب بأن أذهب لعندك...

وجيل ، بتلك العذوبة الحازمة التي تبناها منذ الصباح ، ما كان منه إلا أن ردّد :

ـ أفضل أن يكون في مكتبك ... شكراً ، يا سيد پلانتيل ...

عقب ذلك ، تمدد على السرير ، متعباً من ليلته شبه البيضاء . فكر كثيراً بزوجة عمه وبالطبيب سوفاجيه . وفي كل مرة ، خيل إليه أنه يرى ، في زقاق إيسكال ، الثنائي الذي تألف في زمن مضى من أبيه وأمه .

هل نام ؟! . ألم يفعل إلا أنه أغفى نصف إغفاءة ؟! . عندما نهض واقفاً ، وجد أن الليل أخذ يرخي سدوله ، ومن دون أن يشعل المصباح ، تطلع الى الذيول الأخيرة للضوء وهي تتبدد فوق الميناء .

ثم وضع معطفه وقبعته . كاد أن يختار معطف تروندیهم مفرط الطول وقبعته التي من فرو ثعلب الماء ، القضاعة ، لكن غير رأيه في آخر لحظة .

وشقت السيدة رانكية باب المطبخ وهو يمر من أمامه الى الدهليز ، ملقية إليه عبر فرجة الباب بالسؤال :

ـ هل سترجع إلى البيت للعشاء ؟! .

وأحس في صوتها ما بدا له أنها تعتبره من أهل البيت تقريباً . وأجاب :

ـ بالتأكيد .

وسار بسرعة بمحاذاة الأرصفة . ورأى مجدداً الواجهات المضاءة التي سبق أن تفحص تفاصيلها مساء وصوله ، والواجهة الأكثر عتمة لمنزل إيلوا . وكاد أن يذهب لعند جاجا ، لولا أن الساعة في منتصف البرج كانت تشير الى الخامسة . لم يكن يعرف في أي ساعة تغلق مكاتب « پوبليكس » ، ولم يكن يعرف حتى ما الذي يفعلونه في هذه المكاتب .

كان متقداً ، منفعلاً جداً . وما كاد يتخذ مرصده في ساحة « لاكاي » ، بالقرب من واجهة الساعاتي الذي يبيع أيضاً أشياء لزينة البيت ، قديمة ، حتى رأى صبايا يخرجن من البناء المقابل وكأنهن تلميذات مدرسة .

بعضهن ، على الدراجة ، تطايرن في مختلف الشوارع والأزقة . وأخريات ابتعدن جماعة . وثلاث بينهن ،واحدة منهن تدفع دراجتها ، اتبعن زقاق « التامبل » ، الهيكل ، الذي تتعاقب فيه ، الواحد بلصق الآخر ، متاجر المواد الغذائية .

واحدة من الثلاث في هذه المجموعة كانت الصبية التي رآها جيل أول من رأى، عند نزوله الى البر في الـ « روشيل .

وسار وراءها . والتفتت الى الوراء شقراء ذات وجه أبيض بلا نضرة ، ولكزت بمرفقها رفيقتها .

والتفتن جميعاً الى الوراء وانفجرن بضحكة .

ومن حينها ، استمرت هذه اللعبة من دون أن يستدير جيل على عقبيه ويعود أدراجه . ومضى يتبعهن ، بجد رصين ، وبعناد ، وكن يلتفتن الى الوراء ، ويمعن أكثر في ضحكهن . لم يكن يعرف أين هو . وتعرّف بشكل تقريبي مبهم على شارع الـ « پاليه ، القصر ، ومتاجر

السعر الموحد . ثم عدن الى العتمة ليدركن بعض الواجهات على مسافة أبعد قليلاً .

في ساحة الـ : آرم ، الأسلحة ، توقفن ، وتبادلن القبل ، وهن مازلن يضحكن .

وكانت فتاة رصيف الميناء هي الوحيدة التي ابتعدت باتجاه الحديقة العامة المترامية التي تنتشر فيها مصابيح برتقالية إنارة مسرحية على ممراتها .

في البداية ، مشت بسرعة وهي تتبختر . ثم أبطأت السير قليلاً ، إنما تجنبت الالتفات الى الوراء . ألم تكن تستمع الى وقع خطوات جيل ؟ فقد أخذت هذه الخطوات تقترب . وحاذاها جيل ، بالضبط عند زاوية التقاء شارع مع ممشى يغوص في الحديقة الكبيرة .

هل خطت حقيقة خطوتين داخل ذلك الممشى ؟! .

وقال صوت ، كلي القرب منها :

ـ لماذا تضحكين مني ؟! .

والتفتت ، قطعة واحدة ، من دونما دهشة ، بابتسامة على وجهها الشاب ذي الملامح الممتلئة ، عيناها مفتوحتان لآخرهما وهي ترد عليه :

ـ أنا لا أضحك منك . إنني أضحك معك .

لحظة ، لاحا فيها معلقين في الزمان والمكان . ولم يكونا في حال يعيان فيها أن السيارات إنما كانت تمر على بعد أقل من ثلاثة أمتار منهما . وفي الممشى ، على مسافة أبعد ، كان عاشقان جالسين على مقعد مطلي بالأخضر .

وهذا الممشى ، بكل طبيعية ، كما لو أن الأمر قد ترتب منذ أزمنة بعيدة مندثرة ، هو الذي اتجهت الفتاة تلقائياً اليه .

كانت تؤرجح ذراعيها وهي تمشي . ولو أن الأعشاب كان فيها أزهار بليس ، فلابد أنها كانت ستقطف واحدة منها .

إنما أخذت تتجنب الآن النظر إليه .

ـ ولماذا كنت مرتدياً قبعة فرو ؟...

من جهته أيضاً ، بالجدية ذاتها التي قد يتناقش بها مع السيد پلانتيل :

ـ لأنني كنت عائداً من الترفيج...

ـ ظننتك أحد المسافرين في الخفاء... خلسة...

انتقلا من دائرة ضوء الى منطقة معتمة ، وتلك كانت أول مرة يشارك جيل فيها على هذا النحو في ثنائي ، شأن أولئك الذين حدث كثيراً له أن رآهم في الأزقة والحدائق العامة ، شاعراً بالحسد إزاء لامبالاتهم المستسلمة مطمئنة البال .

وسأل على سبيل المجازفة :

ـ وبماذا ينادونك ؟! . اذا ضايقك أن أسألك ذلك فلا تجيبي .

ـ أليس ؟... أنت ابن أخ موقوازان ، أليس كذلك ؟...

ـ وكيف علمت ؟

وابتسمت مجدداً اذ وجدت سؤاله طريفاً

ـ لأنّ ...

ـ أجيبي ... كيف أمكنك أن تعرفي...

ـ احزر !

تقاطع سيرهما مع ثنائي ، يمشي الاثنان فيه يداً بيد ، واختار الثنائي دائرة ضوء مصباح كهربائي ليتبادل الاثنان قبلة .

وأفلتت ضحكة مكتومة الصوت من خديها المنفوخين بالهواء . وأوضحت :

ـ إنها تسكن بجانب بيتنا !

ـ كيف تعرفين اسمي ؟

ـ هل يثير الأمر فضولك ؟! .

لم يكن يعرف بعد أن العشاق الآخرين الذين كانا يلتقيانهم ، يطرحون إلى ما لا نهاية أسئلة على القدر نفسه من البراءة .

ـ أنت تسخرين مني ...

ـ أقسم لك أن لا... لكن اعترف بأنك كنت طريف المنظر وأنت منصرف في متجر ساحة «لا ، كايّ» ، طائر السمان ، إلى تجربة ملابس جديدة... وبي بي ، الذي كان يحضنك وكأنك فرخ دجاجة صغير .

ـ بي بي ؟...

ـ بلانتيل الابن... يدعوه الجميع بي بي... ويبدو أنه لا يمكن أن يدخل مكاناً ما من دون أن يذهب الى بيت الأدب فيه .

كانت شفتاها مثنيتين الى الخارج في خط عريض ، أهدابها طويلة داكنة ، بتنورة ذات ثنيات : بليسيه ، ترسم التنورة مع كل خطوة تويج زهرة .

ـ يظل هذا لا يُعلمني كيف عرفتِ ...

ـ لا يتطلب الأمر عظيم مكر ، ما بالك ؟ وأنا موقنة من أن الأمر لن يسرك...

ـ لماذا ؟...

ـ لأن ...

كانت تلك كلمتها المفضلة . وتابعت بسرعة :

ـ بكل الأحوال ، فيما يخص جورج ، انتهى الأمر...

ـ أي جورج ؟...

ـ لا تتصنع البراءة ... تعرف جيداً ...

وعندما بلغا شاطئ البحر ، استدارا على عقبيهما ، وأخذا يقتربان الآن من الشارع الكبير الذي يحف بالحديقة الواسعة . ما الذي وفره ذلك الوقت لهما كي يقولاه ؟ لا شيء على الإطلاق على وجه الإجمال !

وتوقفت . وذلك يجب أن يعني أن عليهما أن يفترقا . ولكي لا تبدو هي قصيرة جداً وهي إلى جواره ، كانت ترفع نفسها على رؤوس قدميها .

ـ ينبغي ألا تترك اختيار ربطات عنقك لـ « پي پي... وأنت ، إنك تضيق كثيراً عقدتها... يكاد يقول رائيها إنها سير حذاء .

وأدرك إذ ذاك أن أصعب الأمرهو أنه كان عليهما أن يفترقا . وبحث عن صيغة لذلك . لم يجرؤ على أن يمسك يدها .

وهتفت هي فجأة ، وقد استدارت ناحية الشارع .

ـ إليك اذن ... سألتني قبل قليل كيف أنني عرفت... هوذا أبي عائد و...

هل فعلت قصداً أنها لمست أطراف أصابعه ، وكأنما الأمر عن قلة انتباه ؟... اندفعت ، وأخذ هو يرى ارتسام فخذيها ، بعضلاتها ، تحت تنورتها التي تنفرج مع حركاتها المندفعة . وهي ، بطيب مزاج طفلي ، ارتمت على ذراع رجل مارّ ، ملقية من بعيد الى جيل بنظرة أخيرة .

وكان هذا الأخير يعرف العامل ذا الشاربين الكبيرين الذي في كوة قطع التذاكر ، وراء الفاصل الزجاج ، في الكنيسة القديمة ؛ المستخدم عنده بكلمة مجملة ، ذلك الذي كان له مظهر رجل شريف جداً ، ويجيب عندما ينادون على الاسم : إيسپري لوپار

تابعهما بنظره وهما يبتعدان . ثم تعقبهما من بعيد . وفي زقاق قريب ، مؤلف من بيوت صغيرة كلها على الطراز عينه ، بطابق واحد ، يسبقه سياج ، وحديقة لا تتجاوز في اتساعهامساحة غطاء طاولة ، دخلا البيت رقم : ١٦ .

في عودته راجعاً على أعقابه ، بذل جيل الجهد كي يقرأ على اللوحة الزرقاء اسم الزقاق : زقاق جوردان ، ١٦ : زقاق جوردان ، أليس لوپار!

يداه في الجيبين ، استدار ، واتجه ناحية ساحة : آرم . وفي طريقه فاجأ نفسه ، وللمرة الأولى منذ زمن طويل ، وهو يصفر .

ـ ٦ ـ

عندما عاد جيل الى رصيف الـ « أورسولين » ، كانت الساعة حوالي السابعة والنصف ، وعلى المائدة أعدت أدوات الطعام تحت مصباح الغرفة لشخصين . وانتظر بضع لحظات وروحه بعيدة عن أي نفاد صبر . إذ كانت دنيا صغيرة آخذة بالانتظام والترتيب فيما حوله . إن اتصالات أخذت تجري وما تزال خجولة . وفي الغد سيذهب من الصباح الباكر لرؤية جاجا في مواجهة سوق السمك ، وسيمضي بعدها ، كما هو متفق عليه ، لعند السيد پلانتيل ، وسيبدأ بالاطلاع على أعمال عمه .

كانت ثمة على ظهر المدفأة الجدارية ، الشومينيه ، ساعة من البرونز بين شمعدانين . ودهش جيل في لحظة ما حينما انتبه الى أن عقربيها تشيران الى الثامنة إلا ربعاً . وظن أن الساعة متوقفة . وفي اللحظة ذاتها ، جاءت السيدة رانكية من مطبخها ، وعليها ملامح الانزعاج .

ـ لعلك تفضل أن أقدم لك الطعام ؟... السيدة متأخرة...

وفاجأه من نفسه أنه سأل :

ـ هل خرجت ؟...

في تلك اللحظة ، سُمع المفتاح وهو يدور في قفل باب البيت ، ثم احتكاك أقدام على ممسحة تنظيف الأحذية عند عتبة الباب ، وخطى على الدرج . وألقت السيدة رانكية بلهفة نظرة سريعة على جيل الذي اعترته انتفاضة ، إذ كان بديهياً أن شخصين لا شخصاً واحداً هما من دخلا الدهليز في الطابق الثاني . وفُتح باب غرفة كوليت وأغلق ثانية .

أخيراً ، الخطى الخفيفة لامرأة ، والتي ظهرت ، طبيعية ، لا يكاد يُلحظ عليها إلا بصعوبة ما إذا كان أي قلق يساورها .

ـ أسأل المعذرة لأنني جعلتك تنتظر . كان على السيدة رانكية أن تقدم الطعام لك . وأنا ، التي دائماً التزم بالوقت المحدّد...

وابتسمت وهي تجلس ابتسامة مبهمة الطابع . ورفعت السيدة رانكية غطاء وعاء الحساء ، ففصل البخار المتصاعد مابين الوجهين للحظة . إنما وبعد أن تبدد ، لاحظ جيل أن زوجة عمه ، ولأول مرة ، بدلاً من أن تختلس النظرات إليه خطفاً ، كانت تحدق بوجهه طويلا ، وبعمق ، مثلما حين يحاول المرء أن يكوّن فكرة محددة دقيقة عن شخص ما .

ولم يُشح بنظره عنها . وسجلت نظرته أن على شعرها كأنما نقاطاً صغيرة من الضباب المنتشر في الخارج ، وتخيل زوجة عمه والطبيب وهما يسيران على الأرصفة وكل منهما متأبط ذراع الآخر .

سألته أخيراً بعد أن انقبضت أصابعها بتشنج ، كأن الأمر اقتضى مجهوداً منها كي تتكلم .

ـ ألن تطلب مني أي ايضاح لأي شيء ؟...

لماذا كانا منفعلين كلاهما ؟... فقد احمر وجه جيل لصوت زوجة

عمه . وابتلع بالعرض الحساء الذي في ملعقته ، وبعد أن سعل فقط ، في فوطة طعامه ، أجاب :

ـ لماذا علي أن أسألك عن أمر ؟...

ـ تعرف جيداً أنني لم أرجع الى البيت وحيدة .

ـ دبك حقك ، مادمت في بيتك .

ـ لا يا جيل ، أنا في بيتك أنت . ولئن أرغمت موريس قسراً على القدوم لهذه الليلة ، فلأنني أعتقد بأن المفضل أن يجري بيننا تفسير للموقف . وعلى العكس مما يمكن أن تظن ، فموريس لم يكن يأتي إلى هنا البتة...

وفهمتْ أنه يتذكر الليلة الماضية فسارعت لإضافة :

ـ أعرف ما الذي تفكر به . الليلة الماضية أيضاً ، أنا التي أردت الأمر . كنت آملة في أن أنتهي من الوضع وأخلص .

وبدا لجيل أن السيدة رانكية رمت زوجة عمه بنظرة تنطوي على الشجب . وبديهي أنها كانت تحذرها من أن تفضي الى الشاب بما تطوي في صدرها .

ـ بعد قليل ، عند انتهائنا من العشاء ، سأنادي موريس ، وبحضوره ، سأقول كل ما يجب أن تعرفه...

كانت تتكلم بصوت متساو ، لكن حيادي . قضت وقتاً طويلاً في إعداد كلامها ، وأنضجت قرارها بروية . كان يحيط بها ما يشبه غلالة من حزن حولها .

وسأل جيل : ـ أما عدت تأكلين ؟...

ـ لست جائعة .

ـ بسببي ؟...

ألم يكن الموقف غريباً ؟ فهو في التاسعة عشرة . طوال عمره لم

يعرف إلا غرف البيوت المفروشة . يرتادها فنانو مسارح المنوعات ولاعبو الحركات البهلوانية .

وما يحدث في تلك البيوت من المدن التي يجتازها ، لم يكن يعرف شيئاً عنه ولا كيف يعيشون فيها .

والأمر ، هو أنه الآن في بيت هو أكثر تلك غموض سر ، وكان واقفاً ، طويل القامة ونحيلاً ، متكئاً بمرفقيه على ظهر المدفأة الجدارية ، الشومينيه ، بقرب الساعة البرونز التي تشير الى أن الساعة هي الثامنة والنصف . وعلى أحد الكراسي ، في شبه عتمة ، جلس الطبيب سوفاجيه ، يداه معقودتان على ركبتيه ، ونظرته المتقدة مثبتة على جيل .

وكوليت ، بيضاء كلياً ومرتدية الأسود ، وأناملها تتلاعب بمنديل ناعم رقيق ، كانت تتكلم ، ومن حين لآخر ، على غير علم منها ، كانت تعض على شفتها التي تبدو وكأنها تنزف .

ـ يجب أن تعرف يا جيل أنه انقضت ثماني سنوات وأنا وموريس يحب أحدنا الآخر . ولا أبحث عن الأعذار لمسلكي . لم نلزم الحرص الكافي ففاجأنا عمك .

«واعتقدت أنه سيعيد لي حريتي ، اذ لم أكن أعرف حقيقته بعد .

«ولكن على العكس ، فإنه قضى بأن تستمر الحياة كما في السابق . مرتين في كل يوم بقينا نلتقي حول هذه المائدة في الساعات ذاتها ، وتناولنا الطعام أحدنا في مقابلة الآخر . ولكن لم يحدث أبداً بعد ذلك اليوم أن وجه لي أية كلمة .

«والأمر . هو أنني لم يكن بمقدوري حتى أن أهرب ، والآن أيضاً يستحيل علي أن أغادر هذا المنزل...»

كان صوت خطى السيدة رانكية وهي تذهب وتجيء في المطبخ مسموعاً ، والطبيب يحدق بثبات بأحد التفاصيل التزيينية على السجادة . .

ـ لي أم مريضة تسكن في زقاق الـ : إيفيسكو ، ولا مورد لها . وقد عاشت حتى تاريخ زواجي حياة معاناة شاقة . ولكي تربيني ، كانت تقوم بكل الأعمال الثقيلة في البيوت ، اشترى لها عمك البيت الذي تقيم فيه . وخصها بريع مقداره ألف فرنك في الشهر . وقد صارت أمي اليوم عاجزة ، أو تقريباً ، وانتهى الأمر بها لأن تلزم البيت ، لا تخرج منه أبداً ، حيث أنشأت لنفسها حياة هانئة بقدر لا بأس به .

« وبسببها إن أنا بقيت في البيت واذا لم أزل فيه... »

وهمّ جيل بأن يتكلم ، لكن أوقفته بحركة .

أتكهّن مقدماً بما ستقول . وصدقني بأنني إذا كنت أروي لك هذا كله ، فليس بقصد أن أستدر عطفك . فقد توقع موفوازان كل شيء مقدماً ورتّب له . وبموجب وصية مكتوبة ، فرض عليّ أن أعيش في هذا البيت ، وعليك أن تتحمل وجودي فيه... أتدرك لماذا ؟...

« إنه يمنعنا أنا وموريس على هذا النحو من أن نجمع شملنا ذات يوم...

« فموريس هو أيضاً فقير . إنه ابن ساعي بريد ، وعانى كل مشقات العالم لينهي دراسته ويستقر .

« وبسبب موفوازان والسنديكا ، سيتعيّن عليه أن يقتصر بشكل دائم على زبائن مُعثين واستشارات طبية بعشرين فرنكاً .

« هوذا السبب في أنني الليلة الفائتة ، عندما علمت بأن مفتاح الصندوق الحديد هو في حوزتك ، وحين عرفت من السيدة رانكية بأنك وضعته على الصوان ، حاولت أن أطلع على الوثائق » .

ألم تكن تستثير الدهشة ، كل هذه الطاقة الهادئة عند كائن على هذا القدر من الهشاشة يترك انطباعاً لدى رائيه كالذي يحدثه تمثال صغير نفيس من الخزف ؟...

وسأل جيل :

ـ أتعرفين ما الذي في صندوق حديد غرفة النوم ؟...

ـ أعرف . والجميع يعرفونه ...

واتسم وجهها بالقسوة ، وتغضن جبينها بخطين صغيرين .

ـ ألم تسأل نفسك أبداً ، كيف بنى عمك ،وهو الذي بدأ حياته سائق سيارة ، ثروته الضخمة ؟...

ـ لا! ألا يتردد كثيراً كلام عن أشخاص انطلقوا من لاشيء ووصلوا بقوة إرادتهم إلى أكثر المراكز بريقاً ؟...

ـ كل الناس في الـ : روشيل مطلعون وعلى علم ، والأفضل لك أن تعرف أيضاً . إنها أمور كنت أجهلها مثلك . كنت أجهل أن على رأس كل المصالح الكبيرة ، سواء في ذلك صيد السمك ، أو تجهيز السفن ، أو الفحم ، أو المواد الأولية ، أو البناء ، أو المرافق العامة ، لم يكونوا قط أكثر من اثني عشر ، ودائماً هم أنفسهم ، الذين يتقاسمون منافعها وأرباحها .

وأنت تعرف الآن بعضاً منهم...

وسأل جيل :ـ پلانتيل ؟...

ـ پلانتيل ، باپان ، پونو ـ راتوه ، هرڤينو ، وآخرون أيضاً ، لن يطول الأمر بك حتى تعرف أسماءهم جميعاً...

« وفهم عمك أن أولئك الناس متعاضدون ويشد بعضهم أزر بعض ، قاطعين بضراوة الطريق على القادمين الجدد .

« أن تقيم مشروعاً بالبلد ، فسيتركونك تفعل طالما أنك لم ترقَ

الى مستوى هام له خطر . وإلا فسيفهمونك إذ ذاك أنه ممنوع عليك أن تصعد لأعلى . ولئن مضت الحاجة ، فسيملون عليك الشروط بحيث أنك لن تعود أكثر من مجرد مستخدم في شركتك .

« هذا الفريق الصغير من الناس الاقوياء هو الذي يطلقون عليه اسم « السنديكا .

« حسناً! أوكتاف موفوازان الذي كان فيما مضى سائق سيارة الكونت دو ڤييڤر ، صار هو إذا صح القول الزعيم بينهم .

« لم تكن لديه احتياجات . كان يعيش عيشة برجوازي صغير في الطابق الثاني من هذا المنزل ، حيث تأبى على أن يقيم غرفة حمام فيه للاغتسال . لم يكن يخرج .ولا كان يسافر .

« ما يهمه ، وهواه الوحيد ، كان أن يصبح أقوى فأقوى وأكثر إخافة .

« لأنه كان يحب أن يكون مرهوباً . ومن دون أن يعبأ بالتظاهر بأي لطف ، كان منفراً بأكثر ما يمكنه ذلك ، ويؤكد عن طيب خاطر :

« ـ لست على قدر ما يلزم من الغباء لأكون طيباً . أنا شرير .

وختمت الكلام ملتقطة أنفاسها : « وكان شريراً فعلاً » .

« أطلب منك المعذرة لقولي هذا ، لك أنت ، ولكنه كان سيقال لك على أية حال في يوم أو آخر » .

تكلمت عن أشياء وأمور كانت فكرت بها طوال كل تلك السنوات ، بحيث أن الجمل كانت تعقب الجمل ، دقيقة ، لدرجة أن الزمن قد جرّدها من أية عاطفة انفعال .

لقد عاشت عشر سنوات ، هي ، في هذا المنزل ، برفقة رجل يقول عن نفسه إنه شرير ويتمسك بأن يبرهن على ذلك .

هل أحبها أوكتاف موڤوازان ؟... هل تعذب عندما علم بأنه زوج خُدع .

لم يدع شيئاً من ذلك يظهر عليه . لم يكترث لما يستثيره الأمر من سخرية . كان قوياً بالقدر الكافي ليحتقر ذلك .

وانتقم بأسلوبه هو .

« ـ بقينا نتقابل أنا وموريس في منزل أمي ، وهناك ، عندها سنستمر في الالتقاء . لو أننا وضعنا يدنا على الوثائق التي في الصندوق ، فلربما أمكننا أن ندافع عن أنفسنا ، أو أن نضمن على الأقل هدوء بالنا . أخطأت بما فعلت . أعرف ذلك .

وتذكر جيل الآن الابتسامة الهازئة للأستاذ هرڤينو عندما سلمه المفتاح إياه . وتذكر أيضاً النظرات التي تبادلها پلانتيل وبابان ، واستعاد مجدداً صورة عضو مجلس الشيوخ رخو الجسم ، الجالس في مقعده .

ـ كان قابضاً عليهم جميعاً ، هل تفهم؟ لا أعرف كيف تدبر الأمر . يظل أنه شيئاً فشيئاً ، توصل إلى أن يحصل على كل واحد من أقوياء البلد أولئك ، وثائق تثقل كاهله بهذا القدر أو ذاك .

« وما لم يكن في البداية إلا وسيلة للوصول ، صار عنده مثل رذيلة في طبعه .

« إنك رأيت پوانو الذي يدير كل الشغل في عمل سيارات السفر . پوانو نفسه رجل بسيط وخشن . وهو متزوج وله خمسة أطفال . وكان موڤوازان ، عن مبدأ ، يدفع له أجراً متدنياً . إنه يدفع أجوراً متدنية لكل الذين يشتغلون في أعماله .

« في آخر مرة وضعت السيدة پوانو فيها ، تطلب الأمر إجراء

جراحة مكلفة . وطلب زوجها سلفة كبيرة بقدر لابأس به من موڤوازان .

« رفضها هذا الأخير له .

« وفي الوقت ذاته ، رتب الأمر بحيث جعل مبالغ كبيرة تمر بين يديه .

« وجعل يترقبه… لقد أمل في أن الآخر سيقدم على تصرف مترتب على الضعف . وهو ما حصل . وأمسك به ويده في الجراب ، أي بالجرم المشهود .

« هذا كل شيء… لم يلاحقه عن طريق السلطة… احتفظ به في خدمته . ولكنه اعتباراً من حينها قبض عليه قلباً وقالباً .

« حدث ذلك لآخرين ، لآخرين كثيرين ، لابن خالتك بوب ، لـ…

وسأل جيل : ـ خالتي جيراردين ؟…

ـ خالتك لم تعد حتى المالكة لتجارتها . عن طريق الإغراق بالقروض ، والرهونات ، والمناورات المختلفة ، استولى موڤوازان على تجارتها ، والآن تملك أنت ما بين غفلة عين وانتباهتها أن تلقي بخالتك على بلاط الشارع … وليست هي وحدها في ذلك … يُزعم أن پلانتيل…

كان جيل جامداً .

وسألت كوليت مستوضحة

ـ ماذا دهاك ؟… هل غاظك مني أنـ …

وأشار برأسه أن لا… كل ذلك كان سريعاً سرعة مفرطة . ولشد ما هو يثير الدوار في الرأس! وهكذا ، فإنه هو ، اعتباراً من الآن ، الذي…

ـ وتعتقدين فعلاً أن هذه الوثائق هي في الصندوق الحديد ؟…

طرح السؤال بعد أن مرّ براحته على جبينه .

ـ لم يخفِ ذلك في أي يوم ... هل تفهم الآن لماذا أردت ...

أصابه إعياء ، فجأة . هذا اليوم ، كان حتى هذا الوقت ، اليوم الوحيد الطيب الذي قضاه جيل منذ الحادث الفاجع في تروندييهم ، وأحس فيه أن حياة ممكنة تنتظم حوله . لم يمض وقت طويل بعد عليه وهو يتسكع في الحديقة العامة الواسعة هنا وهناك بجانب صبية ، وكل منهما ينطق بلهجة مفعمة بالاندماج بكلام لا أهمية له .

كل شيء صار مفهوماً ، الطريقة التي جعل بابان بها أرماندين تضع اليد عليه ، والتلطّف المتودد من پلانتيل ، الذي أرادوا أن ينصبوه مرشداً ناصحاً له ، وبوب الذي جرى استدعاؤه من باريس على جناح السرعة ...

وكذلك الصمت ، وتحفظ كوليت . والنظرات شديدة القلق التي رمته بها إبان لقاءاتهما الأولى .

كان ، هو ، الوارث . خلَف الرجل الذي يخافه كل الناس!

ـ هل تعرفين التركيب السري لفتحه ؟

وهزت رأسها نفياً ، وتعلقت نظرته آلياً بالشعر القصير ، شديد النعومة ، الذي على عنقها .

ـ لا ... ظننت الأمر سهلاً ، وأنني سأجده... ما أريد قوله لك هذا المساء بحضور موريس ، هو أنني سأبقى في هذا المنزل ، طبقاً لما قضت به الوصية ، لأنني بحاجة للراتب الذي وقع عليك أن تدفعه لي... سأشغل أقل ما يمكن من المكان... وسأبذل الجهد كي لا أزعجك في أي شيء . وأخيراً ، فإن موريس لن يأتي الى هنا بعد ، وسنتقابل عند أمي كما في الماضي... كنت مصرة على أن تعرف الوقائع بشكلها الصحيح ، لكي لا تدهشك بعض المواقف والتصرفات الصادرة مني...

وابتسمت بوهن .

ـ الأمر هو أكثر استقامة على هذا النحو . أليس كذلك ؟

وقد نهض الطبيب . عدة مرات اعتراه إغراء قوي بأن يتكلم . غير أنه أمسك نفسه . والآن فهو واقف . لمدة بضع لحظات... مشى في غرفة الطعام ذهاباً وإياباً وكأنه يقيسها ، وأخيراً انتصب في مواجهة جيل . وتوالت مقاطع كلماته :

ـ أرجو منك العفو إذا ما استقبلتك اليوم بطريقة على قدر من السوء . لم أكن أعرف بعد...

ما الذي لم يكن يعرفه ؟ ... أن جيل ليس عدواً ؟...

ـ أنا وكوليت ، ترى ،إننا...

لا ! فما عاد جيل يطيق . لم يعد راغباً في الإصغاء إلى أسرارهما . كأنما أعيته الحيلة أو أسقط في يده . إنه محتاج للانفراد بنفسه ، ولأن يستغرق في التفكير . ومر بيده على وجهه بحركة مرتعشة بفعل حمى . وكان يمكن الاعتقاد بأنه موشك على أن يبكي . ووجهت المرأة إشارة خفية الى الطبيب الذي مدّ يده .

ـ طابت ليلتك يا سيد موڤوازان ...

هل جيل هو الذي خرج الأول ؟ أهو الثاني ؟...

لابد أنه غير قادر على أن يتذكر ذلك . ومضى في الرواق ، ودفع أحد الأبواب . كان باب غرفة عمه . وبعد قليل ، بينما هو مايزال واقفاً ، بلا حركة ، وسط الغرفة ، سمع صوت سيارة يجري تشغيل محركها لتمضي .

وجرى الى النافذة . كان ثمة نور في غرفة زوجة عمه . وسيارة الطبيب تبتعد ، وحزمة أشعة مصباحيها تضيء واجهة بيضاء لأحد الأبنية كتب عليها بأحرف سوداء كبيرة : «خمور ، تجارة جملة» .

الصورتان الشخصيتان ، في إطارهما البيضوي ، على الجدار : صورتا جد وجدة موڤوازان .

وأدنى منهما ، بمقابلة السرير ، متعارضاً مع الورق ذي الزهور ، الباب المعدني للصندوق الحديد .

كان جيل يحس إعياء كما لو أنه تلقى ضرباً مبرحاً بالعصيّ . واجتاز الباب المشترك بين الغرفتين ، ووجد نفسه في غرفته ، حيث استقبلته صور أخرى ، صور رجل كان أمله أن يصبح موسيقاراً كبيراً والمرأة التي تبعته .

أراح مرفقيه على المدفأة الجدارية . ومال رأسه ، ولمست جبهته المرآة .

عندئذ ، وفي الوقت ذاته الذي غمر صدغيه فيه إحساس برطوبة ، أحرقه جفناه ، وشرع بالبكاء مثل طفل .



زفاف إيزناند

- ١ -

لاشك في أن أسابيع انقضت وجيل يفكر بالأمر ، لكن وفي معظم الأحيان ، في لحظات لا تكون للمرء فيها أفكار واضحة ، مثلما قبل النوم ، مثلاً .

عندها ، العينان مغلقتان ، والرأس حام ، يبدو كل شيء ممكناً . ثم ، في اليوم التالي ، في وضح النهار ، يستولي حرج على المرء لأنه قد فكر على ذلك النحو ، أو الخوف لكونه داعب في خياله مثل تلك المشاريع .

والواقع هو أن الأمر تحقق . فإن جيل ، في ذلك المساء ، وهو عائد عن طريق الرصيف البحري ، أحس نفسه أكثر خفة من المعتاد وتدفعه اللهفة بشكل مبهم .

كان يترنم بلحن أغنية وهو يمشي ، إنما بالطريقة التي يغني بها الأطفال في الليل لكي يمدوا أنفسهم بالشجاعة .

دفع باب محل جاجا . وكان يكثر أن يأتي إلى هنا في مثل تلك الساعة . واقتربت جاجا منه ، وهي تمسح يديها البدينتين الحمراوين في مئزرها ، وسألت :

ـ كيف الحال يا صغيري ؟...

كانت تقدم له مشروب التفاح الكحولي ، السيدر ، عنوة ، وقد بدأ هو يحب السيدر . وحين لا يكون هنالك زبائن ، كانت تجلس في مواجهته ، ومرفقاها على المنضدة :

ـ إنك نحفت عن المرة الأخيرة أيضاً... هل أنت على يقين من أنهم يقدمون لك ما يكفي من الطعام ؟

ذات مساء ، هكذا ، ومن دونما مناسبة ، أعلنت له بعدما راقبته طويلاً :

ـ أترى يا فتاي ، لو أن لديك قدراً من مكر ، فأنا أعرف ما قد يجدر بك أن تفعل... تطرح عنك كل تلك البرّاكة الكبيرة العفنة ، تشتري ملابس أنيقة ، وسيارة جميلة ، وتمضي للانتفاع من مالك في مكان آخر ، ولا أدري في باريس ، أو في الجنوب... لقد حلمت دائماً بأن أنسحب الى مدينة نيس... عندما أفكر بأن عليك وأنت في عمرك أن تعمل من الصباح الى المساء ، وأن هؤلاء الناس إنما يسخرون منك...

وكان ذلك صحيحاً . فهو بعد أن خرج من عند إدغار پلانتيل عقب حديثه معه ، فإنه كان يتأبط تحت ذراعه حقيبة أوراق كبيرة . والمقابلة كانت هزلية تقريباً . پلانتيل ، أنيق ورجل مجتمع بأكثر من أي وقت آخر ، مملّس الشعر بإتقان ، وبين شفتيه سيكار معطر ، وقماطان على حذائيه من دون أدنى ذرة غبار . برهن في أول الأمر ، وهو في مكتبه ذي الجدران المغطاة بخشب الأكاجو ، والمزدحم بمجسمات المراكب ، على استخفاف بالغ أقصى الدرجات...

ـ اجلس يا صديقي ... ومن حين لآخر ، اذا شئت ، ستمر للثرثرة معي قليلاً... وسأحاول ألا أضجرك كثيراً جداً... فالأرقام ليست

شأن الشباب... على أية حال ، فالفكرة السائدة عن الأعمال الواسعة هي خاطئة... أتتصور أن موڤوازان كان يشغل نفسه شخصياً بأمور سيارات السفر ؟ يكفي مستخدم لذلك... أوَ تعتقد بأنني أحضر تفريغ كل مركب جزّاف ، أو انطلاق قطار المراكب مع المدّ ؟ في مؤسسة عريقة ومتينة التكوين ، كل عجلات آلة العمل فيها مزيّتة ومشحّمة جيداً... أما زلت لا تدخن ؟...وذهول عند السيد پلانتيل ، عندما انتابت جيل الارتعاشة المميّزة ، مارة على شفتيه مرة أخرى ، وأعلن له بلطف حازم :

ـ سيدي پلانتيل ، أرغب بأن تسلمني ملف كل الأعمال التي كان عمي يهتم بها...

ـ لكن ، ... يا صديقي الشاب...

وصمد جيل ، وعاد الى رصيف الـ : أورسولين ومعه غنيمته .

وكان قد جرى إعداد غرفتين على بعض مسافة من حجرة نومه ، في الجناح الأيمن من المنزل ، بالضبط في مواجهة نوافذ كوليت .

بأدبه الجم على الدوام ، بخجله الدائم ، في الردهة الواسعة لمرآب السيارات ، اقترب جيل ذات صباح من پوانو ، وشد على يده :

ـ أخبرني يا سيد پوانو ، هل للسيد لوپار خبرة في المحاسبة ؟

ـ لكن ... طبعاً ... هذه مهنته ...

ـ هل تتكرم ، إرضاء لي ، بأن تشغّل في مكانه عاملاً آخر ، كي أتمكن من الاستفادة من حين لحين من السيد لوپار ؟...

ومنذئذ ، وفي كل يوم تقريباً ، كان يجري استدعاء والد أليس ، الفخور بارتقائه حديثاً ، لعند الشاب . وكان يضع بعناية على أنفه نظارات إطارها من سلك فولاذي .

ـ اجلس يا سيد لوپار... هل تتكرم بأن نرجع إلى ملف إيلوا ؟...

توجد عمليات لا أتمكن من تفسيرها لنفسي ، مثلاً كفالة سندات دوكرو...

طوال ساعات ، والقلم في اليد ، كان جيل يعمل مثل تلميذ يتلقى دروساً خصوصية .

وفي الساعة الرابعة ، بشكل ثابت لا يتغير ، كان ينهض :

ـ أشكرك يا سيد لوبار... إلى الغد .

وكان إيسبري يعود إلى الكنيسة القديمة ، فينظر بوانو رئيسه المباشر إليه ، من دون أن يتجرأ على سؤاله أي سؤال .

وبعد بضع دقائق ، يمرّ جيل أمام مشرب اللورآن ، ورااوول بابان ، في مرصده الدائم ، يزيح الستارة بشكل خفيف .

وخلافاً للعشاق الآخرين ، لم يكن جيل ينتظر عند باب الانصراف من المكاتب ، وإنما عند الحد ما بين المدينة وبين الحديقة العامة الكبيرة .

حتى ذلك الوقت ، في الساعة الخامسة ، كان الظلام هو الذي يسود .

أما الآن ، فقد حل شهر شباط ، وبدأ النهار يطول . أحياناً ، كان بعض الناس يلتفتون لينظروا إلى ابن الأخ موقوازان واقفاً في نوبة حراسة عند زاوية أحد الممرات .

وتظهر أليس ، ساقاها طليقتا الحركة حتى أعلاهما ، وشعرها مبعثر الخصلات لأنها لم تكن تضع قبعة .

ـ طاب يومك ...

مضت بضعة أيام عليهما للآن وهما ملزمان بأن ينتظرا ريثما يتبادلان القبل ، فالوقت ما يزال نيراً جداً . يومها ، كان المطر ينهمر مدراراً ، مطر ربيعي موصول وبارد .

ـ من زمن وأنت هنا ؟

كان بينهما ، هكذا ، عدد من التقاليد ، منها هذه العبارة التي لا يفوتها أن تنطق بها ، وكذلك لم يكن يفوته أن يجيب :

ـ وصلت لتوي ...

ثم ، وبحركة آلية يهواها قلبه ، تتعلق بذراعه وتسير وهي تميل قليلاً عليه ، وعلى رؤوس قدميها بعض الشيء ، في وضعية رآها كثيراً لدى النساء العاشقات .

لم تكن معه مظلة مطرية ، ذلك أنها سخرت منه ذات مساء جاء فيه ومعه مظلة مطرية اشتراها في اليوم نفسه .

ـ أنت مفرط في طرافتك بهذه الأداة... يكاد يقول من يراك إنك رافع شماعة طويلة في موكب ديني .

بدا معطفه المطري مبللاً . وأليس ، هي ، برداء واق من المطر من الحرير الشفاف ، تلتمع على شعرها نقاط رائقة النقاء .

ـ هل نذهب إلى مظلتنا ؟...

ولأنهما ملتصق أحدهما بالآخر ، لم يستطيعا دائماً تجنب برك الماء المستنقعة . «مظلتهما» بقرب الـ : پرغولا ، عند شاطئ البحر ، كانت شجرة صنوبر ظليلة ، يكون المرء تحتها في مأمن تقريباً ، ما عدا تلك الحبات الكبيرة التي تتجمع على الأغصان وتنفصل عنها فجأة .

وأحسّ جيل أسفاً على الأمسيات الأكثر ظلمة وبرداً ، في بعض الأمسيات المثلجة ، ومن بينها ، تلك التي كانت حوالي عيد الميلاد ، ثم أيام الجليد الشديد التي أعقبت ، عندما كانت يدا أليس تغوصان في جيوبه لتدفئتهما ، ويستيقظان في اليوم التالي ، كل من ناحيته ، وشفتاه بهما تشقق .

مياه الشاطئ ، ذلك اليوم ، كانت صفراء كلياً ، والمراكب تعود الى الميناء الواحد في إثر الآخر . وعما قريب ، في الساعة عينها ، سيغرق المكان بالضوء ، ويغطّي السابحون الشاطئ .

ـ ما الذي تفكر به ؟...

ـ لا شيء...

وقبَلها ، في اللحظة بالضبط التي مرت فيها امرأة عجوز ، التي التفتت نحوهما وهي تهز رأسها باستنكار . وأطلقت أليس من فمها نفخة ضاحكة . أزاحت رداءها المطري وفتح هو معطفه ، وبذلك أخذا يحسّان حرارة جسميهما . الماء الذي ينحدر على وجناتهما اختلط بلعاب القبلات . وكان جيل ، قريباً من وجهه كلياً ، يرى العينين البنيتين الكبيرتين جداً اللتين للشابة .

ـ هل أنت سعيدة ؟

ـ لماذا تظل تسألني هذا السؤال ؟ ألست سعيداً أنت ؟...

ـ هل ذهبت الى السينما البارحة ؟ مع من ؟

ـ مع لينيت وجيجي .

ـ ألم يكلمكن أحد ؟

ـ ألبير ، عاشق جيجي ، والذي جلس بجانبها .

كان غيران ، ثمّ ، لا! الأمر أكثر تشابكاً من ذلك . كان يعاني الألم من فكرة فقدانه قريباً هذا الانفراد معاً ، هو وإياها ، في ظلمة الحديقة العامة ، وأنه لن يمشي بعد مع أليس متأبطين كل ذراع الآخر ، يرويان أي شيء ، ويتوقف هو على حين غرة ليأخذها بين ذراعيه ويسحق شفتيها طويلاً بين شفتيه .

يوم الأحد كان أسوأ الأيام عنده ، لأنه لم يكن يستطيع أن يراها فيه . كانت تخرج في مجموعة مع صبايا أخريات . ويعرف أن شباباً يتعقبونهن .

مرات عديدة ، في عزلة سريره ، خطر له :

ـ يكاد يظن من يراك أنك حزين ... ألا تعتقد أنك تفرط في انهماكك بالعمل ؟...

ولم يكن حزيناً كان متلهفاً . قدر كبير من الأفكار تمر برأسه ، إنما لم يكن بوسعه أن يحددها . كانت هنالك كلمة ، كلمة بكل بساطة ، تكفي لجعله يحلم : الثنائي ...

ودائماً ، يبدو له أنه يرى مجدداً أباه وأمه في ظلمة زقاق الـ : إيسكال .

ماتا معاً في إحدى الغرف في تروندهيم ، ودفنا معاً . زوجة عمه والطبيب يشكلان ثنائياً أيضاً . ما من شيء أمكن له أن يفرّق بينهما ، ولئن حدث وبقيا أسابيع من دون أن يرى أحدهما الآخر ، كانا يعرفان أنهما متحدان...

عندئذ ، فجأة ، وهو يحدق بالمراكب التي تمخر ماء الخليج التي يخالطها الحمأ :

ـ أليس ؟...

ـ ماذا ؟...

ـ رأيي أنه من الأفضل لنا أن نتزوج ...

ـ ماذا تقول ؟

ونظرت إليه غير مصدقة ، بعينيها اللتين يعرفهما جيداً جداً ، واللتين لم يكن يستطيع أبداً أن يتكهن بماذا تفكران .

ـ هل تتكلم جاداً يا جيل ؟...

غرست أظافرها في قبضتها . وارتفعت شفتها السفلى . كانت على وشك أن تضحك . حاولت . وفي آخر لحظة ، بينما الضحكة ارتسمت على وجهها الطفل ، انهمرت الدموع السخينة من عينيها .

ـ جيل ... أهذا حقيقي ؟... أنت...

وهاك ! مايزال لوقته يشعر بما يشبه آثار وجع . فعناقهما لفوره ، صار أكثر جداً وخطورة . حتى قبلاتهما لم يعد لها الطعم ذاته . وحق أن طعمها شابَهُ مذاقٌ مالح من دموع أليس .

ـ خالتك إيلوا لن تسمح أبداً...

ـ ليس لها أن تسمح أو لا تسمح... بلغت سن الرشد وتحررت من الولاية...

ـ هل أنعمت التفكير جيداً يا جيل ؟... أتعتقد أن هذا ممكن ؟...

وللمرة الأولى ، وبينما هما يمشيان جنباً لجنب ، أحس نفسه إزاءها كحام لها .

ـ غداً ، سأكلم أباك بالأمر... ونعمل على نشر إعلان الزواج حالاً... وسنتزوج في كنيسة المخلّص ـ الأقدس .

لقد تقرر الأمر ... واستحق المقدّر . وما عاد النكوص وارداً . وبالنظر لأنه كان في حاجة لأن يتكلم عن ذلك فإنه دفع باب محل جاجا .

ـ انظر يا فتاي . الزواج المبكر هو إما خير كله أو كله مساوئ...

ـ إذن سيكون خيراً كله .

ـ أتمنى لك ذلك ... والأمر هو شأنك أليس كذلك ؟... أتريد أن تحمل بعض المحار الليلة ؟...

وكانت تلك نزوة عند جاجا . ولم يكن بمقدورها أن تتخيل أن السيدة رانكية ـ وكانت جاجا تعرف المدينة كلهاـ قادرة على العناية بجيل كما تفهم هي معنى العناية .

ـ تلك المرأة ، وتفهم أنت ، هي طاهية محترفة ... لقد خدمت عند الكونت دو ڤيڤر قبل أن تدخل في خدمة عمك... ولن يجعلني أحد أصدق بأنها تطهو مثل جاجا .

فبالنسبة إليها ، كان جيل نوعاً من فروج مفرط في طراوته ، وينبغي بذل العناية له بلا حد . ظلت تراه على حاله مثلما رأته في صباح اليوم الأول ، عارياً تماماً ،وشاحباً تماماً في سريره ، بجوربيه المثقوبين على السجادة الصغيرة ...

ـ سأعد لك قفصاً صغيراً من محار حوض المارين . في مرات أخرى ، كانت تدفع بالسمك تحت ذراعه أو بأصداف ، فينتاب جيل حرج ، وهو يضع هذه الأطعمة في مطبخ رصيف الـ : أورسولين .

وكانت السيدة رانكية تحتج .

ـ لكأن معنى ذلك أنني أتركك تموت جوعاً ! يا لها فكرة إحضار السمك في الدقيقة الأخيرة . في حين أن لدي بشق النفس الوقت لتنظيفه!...

خيم الليل أخيراً ، ودار جيل حول الأحواض ليعود إلى بيته . كان على عجلة ليعلن الخبر لكوليت... هل ستقول له الشيء ذاته الذي قالته جاجا له ؟ أتراها ستفهم ؟

وفي جوهر الأمر ، يكاد يكون بسببها تقريباً إذا ما جيل...

ووسّع خطوته . ووجد نفسه أمام واجهة محل الأرملة إيلوا فأدار فجأة مقبض الباب . وكان يندر أن يأتي . وفي معظم المرات ، لم يكن يفعل إلا أن يدخل ويخرج ،وبخاصة حين يكون بوب هناك...

ـ مساء سعيداً يا خالتي .

ـ طاب مساؤك يا جيل ...

وكانت جيراردين قد اتخذت حياله موقفاً متحفظاً ، ملتزماً الكرامة تماماً ، وفيه وخزة من حزن . إذ بقيت تتذكر أنها اضطرت ذات يوم لأن تبكي أمامه وأنها بلغ الأمر بها ، في لحظة تهز المشاعر ، أن هتفت به :

ـ أتريد أن تلقي أم بنفسها على ركبتيك ؟...

تم نسيان ذلك الى حد ، لكن بقي منه أثر .

ـ هل جئت تلقي تحية المساء على ابنتي خالتك ؟... إنهما فوق ... البارحة ، بالضبط ، كانتا تتكلمان عنك...

لا ، يؤثر قفص الزجاج الحميم من حيث تتم مراقبة المتجر . وجلس جيل في المكان ذاته الذي جلس فيه ربان المركب الذي لمحه جيل في اليوم الأول عبر ألواح الزجاج ، عندما كان ، هو ، جالساً على إحدى قواعد الأعمدة ، المغروسة في الرصيف البحري .

ـ ألا تسأل عن أخبار بوب ؟

لم يكن جيل يكن أية عاطفة لابن الخالة هذا ، الذي حاولوا أن يلقوا به في طريقه . كان بوب فتى كبيراً في الخامسة والعشرين ، غزير الدم ، ضخماً وبحترياً ، غليظ الشفتين ، عيناه على سطح وجهه ، يحدث انطباعاً عن حيوان تمت تغذيته بإفراط .

وبدأت العلاقة بين الشابين بداية سيئة :

ـ قل يا جيل ... لابدّ أن يتعين عليك شراء سيارة ... اعتمد عليّ... أنا خبير بها . غداً سنذهب لرؤية سيارة أرغب منذ زمان بها وسأعلمك القيادة...

ولم يشتر جيل السيارة . ولم يتعلم القيادة مع ابن خالته الذي كان في المرة الثالثة أو الرابعة من ارتكابه حادث سير ، بل مع ميكانيكي من مرآب رونو .

ـ سأقدمك الى بعض الأصحاب والصاحبات ... لا يعني هذا أن مدينة الـ : روشيل هي مدينة مرح يضج بطيش وطرافة ، ولكن عندما يعرف المرء بعض الأركان المخفية ... خذ مثلاً ، البارحة ليلاً...

ـ لا رغبة لي في الخروج...

ومن دون أن يروي أحد له ذلك ، يتخيل جيل وراء ظهره المشاهد الثقيلة على النفس التي تجري ، وخالته إيلوا التي تدفع ابنها وتعنفه :

ـ إنك تفزعه ... رويدك عليه . ينبغي ألا تمضي معه بهذه السرعة...

وما مضى أسبوع إلا وجاء أمر العشرة آلاف فرنك! وقد بادره بوب من عل أول الأمر :

ـ ألا يمكن أن تقرضني عشرة آلاف فرنك ؟ كنت أفرطت في الشراب ... وتركت نفسي أنجرف في لعبة بوكر ... إن لم أدفع غداً...

ودفع جيل العشرة آلاف فرنك ، من دون كلمة ، وبنظرة جليدية . وبعد ثلاثة أسابيع من ذلك ، جاء بوب يطلب منه عشرين ألفاً .

ـ آسف يا صاحبي ... أنا أستفظع أن أمد يدي لأقترض من الناس ، ولكنني أمر في مرحلة نحس... راكب دراجة أبله ألقى بنفسه بين عجلات سيارتي... إنه في المستشفى ... وهو أب لأسرة كبيرة العدد... وما لم أسوِّ الأمر ودياً ، فسنواجه كل متاعب العالم ، وبخاصة أن الرجل وراءه من يحميه .

ورفض جيل . وإذ ذاك ، كان أن جاءت خالته إيلوا للمساندة ، وبكت ، و...

نالت ما أرادت ، طبعاً ...

وغمغم جيل هامساً :

ـ إنما يا خالتي أريد ألا يأتي بوب لعندي بعد ويلاحقني بطلباته...

ـ أنت لا تعرفه يا جيل ... قلبه من ذهب . وهو بالضبط لأن قلبه من ذهب ...

كانت في عينيه لذعة ما من سخرية وهو ينظر إلى خالته عندما بدأ يتكلم ، وفكر في الوقت ذاته بابنتي خالته ، اللتين أملوا بالنسبة لكل واحدة منهما بدورها في أن يروه يتزوجها .

ـ جئت لأعلمك بخبر عظيم ... سأتزوج ...

واضطرت جيراردين ، حفظاً لمظهرها ، لأن تتناول بلهفة مقبض النظارة اليدوية التي تحجز عن انطباع الوجه ، والتي تبقى دائماً على دفتر سجل يظل مفتوحاً .

ـ آ ؟ ... أيمكن أن نعرف مع من ؟...

ـ شابة أعرفها ... أليس ... إنها ابنة أحد العاملين عندي ...

ـ تهانئي يا جيل ... أفترض أنك حصلت على كل المعلومات التي تحتاج وأنك تعرف ما تفعل ... إنك صغير العمر ، ولكنك اكتسبت عادة أن تتصرف بمفردك سريعاً ... وعلى الرغم من أنني شقيقة والدتك ، فأنا لا أسمح لنفسي ...

ـ سينشر إعلان الزواج غداً أو بعد غد ... وسيجري الزواج في جو يقتصر على الأشخاص الحميمين فقط ... وأدعوك لأن تحضري الزواج طبعاً ...

يا للخالة المسكينة ! إنه أبدى شراسة بحقها ، إذ كان يتمتع بالبلبلة التي أصابتها ، إلا أنه لم يكن بوسعه أن يمنع نفسه عن الرثاء لها .

فمنذ عشر سنوات انقضت للآن على وفاة زوجها ، وهي تتخبط معاركة الحياة كرجل . وفي فترة عسر أصابت أعمالها ، لجأت الى موقوازان ، وهذا الأخير ، بدلاً من أن ينقذها ، أغرقها بأكثر مما هي غارقة .

ومن شركة إيلوا ، التي كانت مزدهرة في زمن ماض ، وإحدى أعرق الشركات في الـ : روشيل ، لم يبق على وجه الإجمال إلا الواجهة . وإلى جانب هذا ، بوب الذي لا يفعل أي شيء فيه نفع . ويغيب كل ثلاثة أيام معاً من دون أن يرجع الى البيت ، ولويز

الحولاء، والتي لا تبدو ملائمة لأن يتزوجها أحد ، وجيرمين ، الأوفر حظاً بين الاثنتين ، والتي لها علاقة على ما يؤكدون ، مع رجل متزوج .

لم يحبط الوضع عزيمة جيراردين في التصدي مجابهةً أمور الأعمال والعائلة ، ملتزمة دائماً موقف حرص على الذات ، يحدوها الأمل الأخرق في إنقاذ مستقبل أولادها .

ـ و... ستستمر في السكن في منزل رصيف الـ « أورسولين ؟ سيتعين عليك أن ترتب وضع البيت...

ـ فكرت بكل شيء يا خالتي ... سيكون جاهزاً ... والآن ، حان وقت العشاء ...

ـ بالمناسبة ... أتعرف الخبر ؟

بغتة ، وقد استعادت تمالك نفسها . إذ كيف أمكنها أن تنسى أنها تملك رداً على الضربة التي كالها جيل لها ؟

ـ أي خبر ؟

ـ ألم تقل زوجة عمك كوليت لك أي شيء ؟... ما تزالان على علاقة حسنة معاً أليس كذلك ؟...

ـ جيدة جداً .

ـ لابد أنها في أقصى حالات اضطرابها ... فهذا الصباح ، توفيت السيدة سوفاجيه ... سوى أنه طرأت تعقيدات غير متوقعة ، على الأقل هذا هو ما يؤكدونه... طاب مساؤك يا جيل... وإذا ما احتجتني ، فلا تنسَ أنني شقيقة أمك ، وأنه رغم كل شيء ...

وضغطت على عبارة « رغم كل شيء » مؤكدة عليها ، من دون أن تنهي جملتها .

ولم يكن قد انصرف بعد حتى اندفعت الى الهاتف .

ـ ألو ... أهذا أنت يا پلانتيل ؟ هنا جيراردين ... نعم... خرج من هنا لتوه... سيتزوج... ماذا تقول ؟... أفضل ؟... لماذا أفضل ؟... تصور أن ذلك ... كيف ، أنت على اطلاع ؟... حسنا! نعم ، ابنة واحد من العاملين عنده نسيت اسمه ... إن كنت تأخذ المسألة على هذا النحو...

كان جيل منقوعاً بالمطر عندما بلغ رصيف الـ : أورسولين ، الأكثر عتمة من بقية أنحاء المدينة . كانت تلك ساعة عودة آخر سيارات السفر . يقع النظر على كتل قاتمة ، تبعثرت عليها المصابيح الحمراء الخلفية ، وهي تناور ، مثل حيوانات ضخمة ، لتدخل المرآب .

ومر من دون أن يتوقف . وكان على وشك أن يبلغ سياج المنزل عندما توقف دفعة واحدة في مكانه ، وقد فاجأه أن يرى زوجة عمه كوليت أمامه ، رقيقة القامة كلياً أمام السياج . وكان وجهها ، وهي في ثيابها السوداء ، هو وحده الذي يظهر على صفحة الظلام ، وقد هرب منه الدم . وندت عنها حركة متلهفة للإمساك بذراعه وهي تهتف به :

ـ جيل !...

ـ مساء الخير يا امرأة عمي... لماذا تقفين تحت المطر ...

ـ جيل ... تعال ... سأكلمك أثناء الطريق ... لو أنك تعرف ...

ـ إنها ماتت ، أعرف .

ـ ليس هذا كل شيء . إنه لفظيع يا جيل ! ... لم أجسر على الدخول الى البيت ... هذ ا الصباح ، اتصل بي بالهاتف لينبئني بالخبر ... ولم يقلقني الأمر ، رغم أنه كان هنالك شيء غير طبيعي في رنة صوته ، وفي الجمل التي ينطق بها... يكاد يظن المرء أنه قد تلقى لتوه ضربة رهيبة ... حتى أنني تساءلت عما إذا كان يحبها ...

كانت ممسكة بذراعه ما تزال ، وتجره معها بمحاذاة القناة ، بطريقة وعرة في المشي متقطعة ، تطلع وتنزل ، من دون أن تأبه للمطر المنهمر ، ولا لبرك الماء التي كانت تنفجر تحت أقدامها .

واجتازا المعبر ليصلا بأسرع إلى مركز المدينة .

ـ قبل قليل جاء شقيق السيدة رانكية الى المنزل ... لابد أنك سبق أن لمحته ... إنه مفتش بالشرطة ، ودائماً بالملابس المدنية ... ويعمل في مكتب المحقق المركزي ... ويبدو ...

كانت تعض على شفتيها حتى الدم . وكاد في هذه اللحظة ، لشدة ما أحسه من حيرتها وأنها أعيتها الحيلة ، أن يحيط بذراعه خصرها الهش .

ـ لقد رفضوا قبل قليل منح إذن بالدفن وطلبوا إلى موريس ألا يغادر البيت وهنالك شرطي على الباب .

ـ ماذا تقولين ؟...

ـ أقسم لك يا جيل أنه لم يقتلها ... أعرف أنه ، أتسمع ما أقول ، أنه لا قدرة له على فعل ذلك ... والبرهان ، أنه صبر كل هذه المدة الطويلة ... لا ... هذا مستحيل... أنت ، يحق لك أن تدخل الى البيت ... اذا ما ذهبت أنا إلى هناك ، فقد يحدث ذلك فضيحة ... إنني حمت في شارع مِناج ، لقد سمّروا على الباب الستائر المأتمية ، ولكن عربة نقل الموتى أخذت الجثة معها من البيت .

ـ اهدئي يا امرأة عمي ... لست أفهم ... ما الذي جرى ؟

ـ قال رانكية لأخته ...

لم تكن تبكي ؛ كانت تعاني من اختناق واضطرت لأن تتوقف عن الكلام كي تتنفس ، مفتوحة الفم للهواء ، مثل سمكة خارج الماء . وقد التفت بعض المارة نحوهما ، وخطر لجيل ، الذي لم يكن

قد استغرق في المأساة بعد ، بأنه اذا اتفق أن تعرف أحد عليهما ، فستُروى عبر المدينة قصص غريبة .

ـ قبل أن تموت ، كتبت السيدة سوڤاجيه رسالة لأختها ... وهي زوجة تاجر دراجات في شارع دوپاتي ... في الساعة الحادية عشرة . كانت هذه الأخيرة قد صارت عند نائب عام الجمهورية ومعها الرسالة... وتطلب السيدة سوڤاجيه فيها . إذا ما وقع لها مكروه ، أن يعمدوا الى تشريح جثتها ، محددة فيها أنها منذ بعض الوقت تولد انطباع لديها بأنها ضحية عملية تسميم تدريجي مضطرد... أتفهم يا جيل ؟... وفُتح تحقيق ... وأُرسل طبيبان الى شارع مِناج ... فرفضا الإذن بالدفن ... وكلف المحقق المركزي بالقضية ، وهكذا أمكن لرانكية أن يأتي ليطلع شقيقته على الأمور ... ينبغي قطعاً أن ترى موريس... وبموجب معرفتي له فإنه قادر اذ طاش صوابه ...

كانت تتعثر بالبلاطات السيئة في أرض شارع ڤيللنوف ، لكنها ظلت تشده معها بخطى سريعة ...

ـ قل له بخاصة إنني أعرف أنه لم يفعل هذا ، وأنني أثق به ، وأن ... ما عدت أتحمل يا جيل !... كنت خائفة ألا تعود ... وما عدت أملك الصبر لانتظارك داخل البيت ... أنا على يقين ، أترى الأمر ، من أن هذه المرأة انتقمت لنفسها... إنها قادرة ، وقد أدركت أنها ضاعت ، على أن تكون أخذت هي نفسها السم .

كانا يجتازان السوق ، المقفر في هذه الساعة ، وانخرطا تحت أقواس شارع مِناج . وكان الناظر يرى فعلاً أحد رجال الشرطة بزيه الرسمي يسير جيئة وذهاباً ، وجماعتين أو ثلاث من الفضوليين يتناقشون .

ـ لا تمضي لأبعد يا زوجة عمي... سيعرفونك و ...

كان يبحث عن مكان يتركها فيه خلال مدة زيارته للطبيب سوڤاجيه .

ـ لا يمكن أن تبقي في الطريق ... يوجد مقهى في الزاوية ...

وفتح الباب بروح الفرض ، من دون أن يسألها رأيها . كان بعضهم يلعبون البليار ، واتجهت الأنظار إليهما بفضول .

ـ ستقدم قدح روم أو كونياك للسيدة ...

وبصوت منخفض :

ـ عديني بالبقاء هنا ، وبأن تظلي هادئة ...

ـ إنك تصدقني يا جيل أنت على الأقل ؟... إنه بريء ، أقسم لك ... أحس ذلك ... أنا أعرف ذلك ... أنا ...

وعندما أراد جيل أن يدخل الى منزل الطبيب ، اقترب رجل الأمن منه :

ـ إلى أين ذاهب ؟...

ـ لرؤية السيد سوڤاجيه ...

ـ هل أنت أحد مرضاه ؟...

ـ صديق ... جيل موڤوازان ؟...

ـ تعرف أن السيدة سوڤاجيه توفيت وأن هنالك تحقيقاً .

ـ أعرف...

ـ كرر علي اسمك .

وكرره جيل ، فسجله الشرطي على دفتره الصغير ذي المطاطة...

ـ يمكنك الدخول ...

ـ ٢ ـ

نهاراً ، يكون الدهليز في ظليل نصف مظلم ، ويكاد المرء تتلمس يده السبيل كي يعثر على الإبهام المعدني لباب غرفة الانتظار ، وليرتفع بالضغط عليه الرتاج الذي على الجانب الآخر من الباب . وفوجئ جيل وهو يكتشف هذه الليلة أن الدهليز هو على هذا القدر من سوء الحال . وكان مصباح ذو صحن عاكس ، أسود بسبب فرط القذارة ، يظهر الدهليز أكثر طولاً ، وأكثر ضيقاً ، وتلحظ العين عدم استواء الجدران وتقشرها . وفي الصدر ، باب زجاجي منفتح على باحة تركت فيها مبعثرة دلاء وسلال نفايات .

وانحنى جيل ولمّ زهرة من الأرض . إنه ولابد شخص لا يدري فأحضر زهوراً مثلما بالنسبة لميتة عادية .

وكان باب غرفة الانتظار مفتوحاً على عرضه ، والمصباح مضاء فيها ولكن الغرفة خالية ، خالية كذلك غرفة الفحص الطبي التي تسودها الفوضى .

وسعل جيل ليعلن عن حضوره ، وقد أخذ بالصمت وبهذا الهجران وتلك القذارة البادية ، ولكن لم يجبه أي صوت . وبالمقابل ،

سقطت نظرته على خزانة الصاج المطلي بالريبولين البراق ، فبرزت بجلاء أكبر أختام الشمع الأحمر .

وبلغ أخيراً حجرة لم تكن لا غرفة استقبال ولا غرفة طعام هي الحجرة التي كانت السيدة سوفاجيه تلزمها غالباً وهي في مقعدها المتحرك الذي ما زال في الغرفة . والتي كانت تتلصص منها على زوجها . الفوضى ذاتها تسود المكان . ملاءة سرير على الأرض . ومخدة مريبة النظافة على أريكة قاتمة اللون .

فجأة ، التفت جيل ، وفي إطار باب أخير ، رأى الطبيب سوفاجيه ينظر إليه ، كان ينظر إليه بثبات متصل . بحيث يخيل للمرء أن الطبيب لم يتعرف الى هوية زائره . شعره مشعث . وذقنه غير محلوقة . لم يضع ياقته التركيب . وأزرار قميصه محلولة ، وقد وضع قدميه في خفين من اللباد البني ، بقي ملازماً المكان هناك . تلمح النظرة وراء ظهره ديكور مطبخ فقير ، وفتاة بدينة غريبة المنظر ، تحدق هي أيضاً بثبات بالقادم الجديد .

وسأل الطبيب بصوت حيادي :

ـ كوليت ؟

ـ جاءت معي ... الأفضل ألا تدخل ... إنها تنتظر في مقهى عند زاوية الزقاق .

وبدأ الطبيب حركة رخوة بساعده ، كأنما ليقول :

ـ ادخل اذا شئت ...

وكان يشير بحركته الى المطبخ . وكان ثمة ابريق قهوة مطلي بمِيناء بيضاء على القماش المشمع الذي يغطي المنضدة ، وطاسان خزفيان وكسر من الخبز . وكانت الفتاة البدينة ، وهي خادمة البيت ، مذهولة بقدر ذهول سيدها . ولم تفكر حتى بتقديم كرسي

لجيل . بقيت واقفة بالقرب من المدفأة متدلية الذراعين ، على وجهها خصلة شعر بلون قشر القنب ، وقد انتفخ قميصها عند الصدر بنهدين بدينين لا شكل لهما .

كان موريس سوڤاجيه يتكلم بصوت منخفض ولا ينظر الى أي مكان . وخطر لجيل الذي انعقد حلقه بأن « هذا » ، هو الرجل الذي انقضت عشر سنوات عليه وهو يحب كوليت بتوحش ، وأن هذا الرجل أيضاً ، هو الذي أحبته كوليت حباًعجائبياً بذلك القدر .

كل شيء كان يشي بحياة تفه مقرفة .هذه الحجرات التي لا يأتيها الضوء إلا من الباحة ، والأريكة التي يستخدمها الطبيب سريراً ، والدرج الحديدي الذي يؤدي الى تصفية تقع فيها غرفة المتوفاة ، تلك المرأة ، العاجزة ، والشابة مع ذلك ، التي تجر نفسها من الصباح الى المساء على مقعدها ، وهذه الفتاة المذهولة التي تتولى خدمة البيت...

ـ إنها تعرف أنك لم تفعل هذا ...

ولم يضئ وجه الطبيب . بل اكتفى وهو ينظر إلى جيل بعينين خاليتين من أي تعبير فيهما ، بأن سأل :

ـ وأنت ؟...

ـ رأيي هو مثلها ...

علماً بأن جيل لم يحدث له أبداً من قبل أن وجد نفسه على ذلك القدر من القرب الشديد كي يفهم جريمة ما ، لم يحدث أبداً ، وفي أي مكان آخر ، أن أحس جوّ جريمة ممكنة كهذا الجو ، وتقريباً الضرورية .

وتابع الطبيب :

ـ لقد نقّبوا في كل شيء جاعلين إياه عاليه سافله . أخذوا معهم مراسلاتي ، وختموا الخزائن بالشمع الأحمر... بعد قليل أو غداً صباحاً سيأتون لتوقيفي ...

وأفلتت من الفتاة انتحابة أجشة ، وأخفت وجهها في مئزرها القذر .

ـ هل تعتقد بأنهم سيوقفونك ؟...

وهز سوفاجيه رأسه بالإيجاب ، وجلس على كرسي من الخشب الأبيض ، وتأمل حالماً قدميه اللذين وضعهما في خفين . وقال زافراً :

ـ عندي قناعة بأنها سممت نفسها ... أحسست دائماً أن هذا سينتهي نهاية سيئة ... منذ بضعة أيام أخذت تعاملني بطريقة غريبة ، بدت أكثر هدوءاً ، وكأنما أكثر صفاء نفس...

وهزته اختلاجة ، وأخذ رأسه بين يديه ، ومرر أصابعه بحمى يتخلل بها خصلات شعره ، وهدأ بالسرعة ذاتها التي كان تشنّج فيها .

ـ اطلب منك المعذرة ... فأولئك السادة لم يكلفوا أنفسهم حتى بأن يكونوا مهذبين ... أما بالنسبة لزميليّ ، فقد تجنبا أن يوجها كلمة إليّ... تحسن صنعاً اذا أنت رحلت يا جيل ...

وفهم جيل أن الطبيب لم يكن يعني مغادرة منزل زقاق المِناج فقط ، ولكن أيضاً منزل رصيف الـ : أورسولين . والبرهان على ذلك هو أنه أضاف :

ـ ما الذي جئت تفعله وسط هذا كله ؟...

كان ذلك غريباً : انطباع غير واضح المعالم لاهتزاز صورته ، ومع ذلك دقيق ، مثلما في بعض الأحلام...

إذ رأى جيل في ظلمة الطرقات الثنائي الذي يعذبه القلق ، وكل يبحث عن الآخر ، يلتقيان ، ويفترقان ، ورأى نفسه ، تائهاً في المدينة ، مرة في ذراع زوجة عمه ، ومرة ممسكاً بيد أليس ...

يجعل ذلك في الأمر ثنائيين ، وكانت تُبذل المحاولة لتفكيكهما ،

أناس ، من كل جانب ، يشدونهم من كل طرف ، جيراردين إيلوا بضحكة شرسة تُظهر أسنانها الكبيرة ، بابان وهو يعض طرف سيكاره عبر زجاج مشرب لوران ، ويلانتيل ، رجل المجتمع الراقي ذو الابتسامة الساخرة ، ويونو راتوه الذي يشتط لعابه ، وهرفينو المتهكم ذو وجه المهرج في سيرك...

ـ هل اخترت محامياً ؟...

والطبيب ، وقد استدارت عيناه :

ـ صحيح ... سيتعين عليَّ أن أختار محامياً ...

ـ هل تعرف واحداً جيداً ؟...

ـ لا أعرف ... ما عدت أعرف أي شيء ...

واختلاجة جديدة . كان ذلك ينبثق بغتة لدرجة ، وحاداً لدرجة ، بحيث إنه صار مفزعاً .

ونطق جيل من دون قناعة :

ـ لا مناص لهم من أن يقروا ببراءتك... فلكي يلقوا بك في السجن ، يتعين عليهم أن يملكوا إثباتات ضدك ...

ـ نعم ... بالتأكيد ... الأفضل أن تذهب لتلتقي كوليت مجدداً... قل لها ... قل لها كل ما تشاء ... وأن تتحلى بالشجاعة ، وأن ... وأنني ...

ولم يصمد أكثر من ذلك ، وفرّ من المطبخ بما يشبه صرخة ، وتوارى في الدرج الحديدي . وسُمع وهو يتهاوى ، هنالك فوق ، على سرير ، وأخذ يصرخ مثل حيوان .

وناحت الخادمة ذات العينين المذهولتين :

ـ أنا خائفة ... لا تنصرف ... ما عدت أجرؤ على البقاء وحدي معه... قل يا سيدي ، أصحيح أنهم سيوقفونه ؟...

ولم يجد جيل شيئاً يجيبها به وابتعد من دون أن يتفوه بكلمة .

واجتاز مجدداً الغرف التي تسودها الفوضى ، متّبعاً الدهليز الطويل الذي وجد عند نهايته الزيّ الرسمي لرجل الأمن .

كان معه رجل بالثياب المدنية ترك انطباعاً لدى جيل بأنه سبق أن رآه ، لكن لم يكترث للأمر . ولم يكن جيل قد قطع مسافة خمسين متراً تحت الأقواس حتى سمع خطى مسرعة واستدار ملتفتاً وراءه .

ـ أطلب عفوك يا سيد موقوازان ... أنا شقيق السيدة رانكية ... أعرف أن السيدة كوليت تنتظرك عند الزاوية ... وأتساءل عما اذا كان يجب أن تخبرها بذلك ، ولكن الأمرهو لليلة...

وكرر جيل من دون أن يفهم :

ـ لليلة ؟...

ـ أنتظر المحقق من لحظة لأخرى هل تفهم ؟... فالنائب العام يخشى أن يدمر نفسه... وهكذا ، فسوف ...

في زاوية المقهى ، لزما الصمت طوال المدة التي استغرقتها إعادة تتمة النقود . وأخذ لاعبو البليار يتظرون نحوهما بفضول ما عادوا يحاولون إخفاءه .

ـ تعالي يا كوليت ...

لم يكن يقوى على تحمل النظرة التي تفطر القلب في عيني زوجة عمه التي تنتظر خبراً ، أيا كان . في الخارج ، في ظلمة زقاق صغير جرها إليه ، أحاط كتفيها بذراعه وسارا بضع خطى بصمت .

وتمتمت أخيراً :

ـ ماذا قال ؟... كيف حاله ؟

ـ جيد .

لم يجرؤ جيل . خشي أن ينفجر باكياً . وأحس بزوجة عمه رقيقة الجسم كلياً ، وترتعش كلها . ومثلما في المطبخ قبل قليل ،

انبثق انطباع لديه بأنه جزء من المأساة . لم يكونا اثنين ، بل ثلاثة ، بل أربعة ، يتخبطون في ديجور المدينة المعادية .

ـ سيتوجب عليهم أن يعترفوا ببراءته ...

وهزت رأسها سلباً .

ـ يفيضون رضا لأنهم أوقعوا به ، أوقعوا بنا... أترى يا جيل ، جميعهم ، بالغاً ما بلغ عددهم ، إنهم يمقتوننا... لا أعرف كيف أفسر لك...

وفجأة ، طرحت هذا السؤال غير المتوقع :

ـ هل أكل شيئاً على الأقل ؟...

ـ طبعاً فعل يا زوجة عمي الصغيرة... إنه أكثر هدوءاً مما خطر لي... وقال لي يجب ألا تعذبي نفسك بالقلق ، وأن ...

ـ متى سيوقفونه ؟...

وبلغا القناة . لم يكن إلا ضوء واحد يُرى ، في الطابق الثاني من منزل رصيف الـ : أورسولين ، هو الذي في غرفة الطعام . السيدة رانكية ، التي لا تهتز لاضطراب ، لابد أنها تنتظر بقرب المائدة المعدّة ، تحت مصباح يرسم دائرة نور ساخن .

لقد تشكل ثنائي ،على النحو ذاته ، منذ قديم جداً ، وفرّ الاثنان من المدينة ، وتاها من بلد لبلد ، لينتهيا في ميناء نورڤيجي... وقبل قليل ، في الحديقة العامة الكبيرة ، تحت شجرة الصنوبر ، كان جيل يضم الى صدره صبية صغيرة ، يرى عينيها قريبتين من عينيه ، ويطلب إليها أن تنضم إليه الى الأبد...

وشدّ كتفي زوجة عمه أكثر بذراعه . وما عاد يعرف إن كانت هي التي يضمها ، أو أنها أليس ، أو هي أمه... إنها كانت المرأة التي مع رجل ، تمضي الى جانبه ،على طريق مجهول ، وتتعذب .

وعندئذ ، بحركة حنان لم يفكر بها ، مال بخده على خد كوليت . أحس شعرها القصير المجنون على جلده . وضغط . جاءت الملامسة دافئة الحرارة ، مبللة ، لأنها كانت تبكي بصمت .

ـ يا امرأة عمي الصغيرة المسكينة...

ولكي تشكره ، ضغطت ضغطة خفيفة جداً على ذراعه ، بأناملها الهشة ، وتمتمت في زفرة :

ـ جيل ...

لم تكن تأكل . يحسبها المرء مرهقة ، ولا تملك مع ذلك الشجاعة لمغادرة جو غرفة الطعام الدافئ كي تذهب فتحجز نفسها في غرفتها . وعندما تسقط نظرتها على جيل ، كانت تبذل جهدها لرسم بداية ابتسامة على وجهها ، وكأنما تطلب صفحه لكونها حزينة الى ذلك الحد ، ومهدودة القوى الى ذلك الحد . كانت السيدة رانكية تقوم بالخدمة بصمت يفوق المعتاد ، ومن حين لآخر تتوقف لتراقبهما كليهما .

ـ سأعلمك بنبأ يا زوجة عمي... وبخاصة ، لا أريدك أن تظني بأنني لا أفكر إلا بنفسي ...

كانت فكرته معقدة التركيب ، ولكنه غير قادر على التعبير عنها . ولئن كان راغباً في أن يكلمها عن أليس ، فذلك بالضبط لأنه ، عن طريق أليس ، كان يحس نفسه أكثر قرباً من كوليت ، ولأن حادثة بعد الظهر ، في يوم كهذا ، تكتسب وقعاً أكثر خطورة ، أعمق ، لأن غرام جيل كان يشده برباط أوثق الى المأساة التي يعيشها الطبيب وزوجة عمه .

ـ سأتزوج يا امرأة عمي .

وجمدت السيدة رانكية في مكانها ، وعلى يديها صحاف طعام .

ورفعت كوليت رأسها ببطء وعبرت عيناها النجلاوان عن مفاجأة شبه محزونة . وانتبهت فعلاً لذلك بحيث إنها حاولت مسح طابع الحزن ذاك . وابتسمت . ولكن ابتسامتها ظلت معبرة عن أسى...

ـ تتزوج ، جيل ؟...

ودارت نظرتها حول الغرفة التي عاشا فيها معاً طوال الشتاء . يكاد يقول المرء إنها تحاول أن تتخيل حضور شخص جديد ، دخيلة فيها .

وجيل ، لأنه أحس تحت كل ذلك أشياء غامضة ، إنما معرضة لأن تنجلي ، بادر الى قول :

ـ سأتزوج ابنة إيـ سپري لوپار ... وتعزفين ، إنه العامل ذو الحاجبين الغليظين الذي كان فيما سبق في الكوة والذي يصعد للعمل معي ... عمرها ثمانية عشر .

كانت عينا كوليت مغرورقتين كأنما ببخار . وطرأ اضطراب على وجهها .

وقالت بزفرة وهي تبعد فوطة طعامها وتنهض :

ـ أنت محق يا جيل .

إنما ظلت تعاني صعوبة في أن تحزم أمرها وتمضي :

ـ إنني منهكة.. أعتقد أن من الأفضل أن أرتاح ... طاب مساؤك يا جيل ... طاب مساؤك يا سيدة رانكية ...

لكن هذه احتجت :

ـ أنا ذاهبة معك ... يجب أن أضعك في سريرك ...

يبعث ذلك على الكآبة ويدعو للتطير ، مثل منظر شتائي أدكن اللون ضارب الى رصاصي ، حين يسود الانطباع بأن الشمس لن تعود بعد للظهور أبداً . وكانت الجريدة سيئة الطباعة ، بأسطر

بعضها يهدد بأن يتطي بعضاً آخر ، حبر شاحب ، وورق من نوع رخيص :

قضية خطيرة

. لتسميم في الـ ؛ روشيل

كل الكلمات وكل الجمل ، كانت تعطي المأساة مظهراً بشعاً وفظاً .

«قضية تسميم خطيرة لن تفاجئ إلا الذين لم يكونوا على اطلاع على فضيحة بقيت مستمرة منذ مدة طويلة .

موريس سوفاجيه صار في الجريدة الطبيب س... «المعروف جيداً في مدينتنا ...

كوليت ،هي ، ... «زوجة أحد الوجهاء الرئيسيين لمدينة الروشيل ، المتوفى مؤخراً والذي أثارت مسألة وراثته تعليقات عديدة... » .

كان ذلك بغلظة القلب ذاتها لبعض الرسوم الكاريكاتورية التي بالأبيض والأسود ، ذات التضاد العنيف ، والخطوط المفرطة في قسوتها .

«إن مأساة اليوم ليست إلا نقطة الوصول الأخيرة ، هي التي فيما مضى...

«لم يطو النسيان الزواج غير المتوقع لأحد أغنى شخصيات المدينة من عاملة سينما ترشد الزبائن إلى مقاعدهم...

«والأمر ، هو أنه بعد عامين من هذا الزواج ، فُجع الزوج باكتشاف...

وكل ذلك آل بعد ذلك إلى سوقية غثة مفزعة . بيت الطبيب... زوجته البائسة ، المقعدة ، تتآكلها الغيرة ، كشكل آخر للتعبير عن أنها مهجورة عضلها زوجها...

العاشقان اللذان ما عادا يطيقان صبراً لانتظار موتها . واللذان عجلا ، عمداً ، بساعة هذه الأخيرة...

« ويبدو أنه تم إثبات أن الطبيب . طوال أسابيع ، وهو الذي يملك كل الوسائل التي يتطلبها ذلك ، قد أعطى زوجته يوماً بعد يوم ، كميات صغيرة من الزرنيخ ، ضابطاً عيار الكمية بحيث ... »

كانت الساعة هي العاشرة صباحاً . والسماء نيرة ذلك اليوم ، ضوؤها صاف بشكل خاص ، وصوت الصافرات يُسمع من بعيد . ورأى جيل من نافذته رجلاً يرتدي معطفاً بنياً يتوقف أمام سور البيت ويشهر كرة ضغط آلة تصوير ضخمة .

وقريباً ، يأتي الناس ليقلّبوا بنظرهم منزل رصيف الـ : أورسولين ، كأحد المعالم التي تستثير الفضول .

والتفت جيل آلياً ناحية نافذة زوجة عمه فلمح هذه الأخيرة واقفة وراء الستارة « التول » الشفافة . إنها رأت المصور هي أيضاً .

وجرى إلى المطبخ . ووجد عدد جريدة على المنضدة . الجريدة عينها التي قرأها لتوه .

وقال للسيدة رانكية :

ـ أرجو ألا تكوني قد أعطيتها إياها .

ـ للأسف ، ذهبت هي نفسها لإحضارها من علبة البريد ...

ـ ماذا قالت ؟...

ـ لا شيء... لقد أوقفوه ... جاء أخي ليراني هذا الصباح... وسلمته السيدة رسالة الى الطبيب... يبدو أنه اختار المحامي كوزيل... إنه من أفضل المحامين ... ما الذي سيحدث يا سيد جيل ؟

وخرج من دون أن يجيب ، نزل ودخل الى الكنيسة القديمة . أحس أن الجميع ينظرون إليه بفضول .

ـ هلا صعدت يا سيد لوپار ؟

وجمع المستخدم أوراقه ، وأخذ نظاراته ذات الإطار الفولاذي ، ومسكة ـ ريشته وقلمه الأحمر والأزرق .

ـ حالاً يا سيد جيل ...

كان يبدو دائماً ، وكلما ناداه أحد ، وكأنما فوجئ في لحظة خطأ . وصعد جيل معه إلى المكتب الذي أعدّه بالقرب من غرفة نومه .

ـ أترغب في أن تتابع دراسة ملف إيلوا ؟...

ـ لا يا سيد لوپار ... ليس العمل هو الذي رجوتك أن تأتي من أجله ... سيد لوپار ، لدي سؤال هام أريد طرحه عليك .

وبالضبط ، بسبب الأحداث ، لم يكن جيل يريد الانتظار .

ـ يا سيد لوپار ، هل تقبل بتزويجي ابنتك ؟

ونظر المستخدم اليه بعينين خاليتين من أي تعبير ، ثم بذل جهده ليبتسم :

ـ لماذا تطرح عليّ مثل هذا السؤال يا سيد جيل ؟ أنت لا تعرفها ، ثم إن...

ـ ثم إن ماذا ؟...

ـ لا أعرف ، أنا ... لا يمكن لك أن ...

ـ يا سيد لوپار ، أطلب إليك رسمياً يد أليس ، وأعترف لك بأنني طوال هذا الشتاء ظللت أراها في كل يوم سراً...

ـ آه!...

كان ذلك كل رد الفعل الذي صدر عنه . وبدا وكأنه في جمود حجر .

ـ البارحة ، عندما طلبت إلى أليس إن كانت تقبل بي زوجاً ، لم

يكن بالمستطاع توقع أن منزلنا سيصبح موضوعاً تتداوله الجرائد ...
فكر بإمعان يا سيد لوپار ... هل تريد استشارة زوجتك ؟... وهل تتكرم بإعطائي الجواب غداً ؟...

ـ نعم ... نعم ... ســ ...

وخرج مرتطماً بإطار الباب .

في الدهليز ، لمح جيل السيد پلانتيل يتقدم في سيره السيدة رانكية .

ـ هل أزعجك ؟...

ـ ادخل ... تقدمت لتوي بطلب زواج ...

وصدرت عن پلانتيل حركة كأنما يقصد بها :

ـ هذا لا أهمية له ... ليس هذا ما يتعلق به الأمر ...

كانت المرة الأولى التي يدخل پلانتيل فيها مكتب جيل . وارتسمت على وجهه ابتسامة مرة لدى رؤيته رفوف الخشب الأبيض التي صُفت عليهاجنباً لجنب ملفات موڤوازان .

وقال وهو يجلس :

ـ هل تسمح ؟... طابقان ، ذلك وحده عال... أفترض أنك قرأت الجريدة ؟...

ـ قرأتها ...

ـ ذهبت البارحة الى زقاق مِناج ، أليس كذلك ؟...

ـ ذهبت الى هناك ...

ـ حسناً ! في هذه الساعة ، نصف المدينة تعرف الأمر ويؤكدون أنك كنت على اتفاق مع زوجة عمك...

ـ اتفاق ، ما غايته ، وحول أي شيء ؟...

ـ اسمعني يا جيل... إنك شاب... هذا الشتاء ، ادعيت العيش وفقاً

لهواك ، من دون أن تصغي الى نصائح يسديها لك من هم أكبر منك سناً ، والبارحة مساء بعد ، علمت أنك قررت أن تتزوج لا أعرف أية واحدة من فتيات المدينة ... هذا شأنك... وأنا مضطر للأسف بأن أذكرك بأنك قد ورثت عمك موڤوازان الذي كان صديقي... وأنت هنا في بيته... ولا تجهل شيئاً عن سلوك زوجته... وفي ظروف كهذه ، يكون فاضحاً أن تظهر علناً وأنت تعمل لصالحها ، وبخاصة بعدما جرى مؤخراً ، وهو تعاطف قد يثير تفسيره الاستغراب... رأيت خالتك إيلوا هذا الصباح... إنها وصية عليك كذلك ... لعلك تجهل القانون ، ولكن المستخدم الذي اخترته مستشاراً سيعلمك بأنه توجد تدابير قد يمكن أن تدفع الأمور بنا لاتخاذها في حال ما إذا أنت ...

ونهض ، ونفض رماد سيكاره وأخذ قبعته التي وضعها ببطء على رأسه :

ـ هذا كل ما كنت أريد قوله لك يا صديقي ، وآمل في أنك ستفهم...

- ٣ -

يكاد يقول المرء إن الكنيسة لم تكن بانتظارهم . كانت خالية ، وكأنما تغيرت وظيفتها متحولة عما وجدت من أجله . لاشيء غير بضع شمعات تشتعل وراء أحد الأعمدة أمام أيقونة نذور . كان الضوء هو ضوء كل الأيام ذاته ، ضوء الشارع ، ضوء كل مكان ، والخطى ترن جوفاء شأنها في منزل مهجور منذ زمان .

وما من أحد ليدلهم على ما يجب أن يفعلوه ، وأين يجب أن يذهبوا ، وكانت جيراردين ، مرتادة الكنائس وأليفتها الدائمة ، هي التي وجهتهم ناحية صف المقاعد الأيمن .

لم يكونوا غير مجموعة صغيرة . جيراردين وبوب وحدهما لتمثيل كل عائلة جيل ، فالفتاتان إيلوا بقيتا في آخر الكنيسة في الصدر . ومن ناحية عائلة لوبار ، كان هنالك السيد والسيدة لوبار ، وكذلك شقيق لهذه الأخيرة ، وهو خال هرم أصم كلياً ، وجبت دعوته كي لا يحز ذلك في نفسه ، وبخاصة أنه من يوم يومه كان قد وعد أليس بأن يترك لها بعد موته البيت الصغير الذي يملكه .

كان الهيكل خالياً . ويمكن للمرء أن يتساءل عما اذا قد غلط في

اليوم . وفي الجهة الأخرى من محور الكنيسة ، كانت هنالك مجموعة ثانية من الناس ، زواج أيضاً على الأرجح ، ينتظرون جميعاً ، وأخذ الزفافان يرقب الناس فيهما بعضهم بعضاً ، وكأنما لمعرفة أي زفاف من الاثنين سيقام أولاً .

وهمست أليس في أذن جيل :

ـ أراهن على أنها ابنتهما .

وفي فراغ الكنيسة ، لم تستطع أن تمسك ضحكتها عن أن تنطلق رنانة . وكان الثنائي الآخر المقابل لهما قد تجاوز عمر العروسين فيه الأربعين . حياة زوجية غير نظامية على الأرجح ، ظل الاثنان يعيشان على ذلك النحو منذ مدة طويلة ، والفتاة الصغيرة التي تغطيها البثور لابد أنها ابنتهما . ما الذي جعلهما يقرران تسوية وضعهما وجعله نظامياً ؟ لعله بلوغ الفتاة سن تناول القربان المقدس لأول مرة ؟...

التفت جيل مرات عديدة . ومن حين لآخر ، كان الباب الذي في الصدر يصر فعلاً على مفصلاته ، وتسمع خطى على بلاطات الرخام الكبيرة ، أو يصل صوت كرسي حرك من مكانه . ومن بعيد ، تعرف جيل على جاجا ، التي يراها لأول مرة بقبعة على رأسها ، والتي جثت أمام إيقونة النذور . ولعلها أيضاً قد أشعلت شمعة على نيته .

وكان قد ذهب مرة أخرى لعندها ليلة البارحة . ولم يكن قد تردد عليها من قبل بهذا القدر إلا منذ أن اتخذ القرار بالزواج . كانت جاجا جالسة في مواجهته ، مرفقاها على الطاولة ، في وضعيتها المألوفة :

ـ ينبغي أن تكون شديد الانتباه غداً في الاحتفال . فقد سمعت همساً يدور بأنهم يدبرون لنا دوراً خبيثاً .

ـ وما الذي قد يمكنهم أن يفعلوه ؟

ـ لا أعرف يا صغيري... أنا ، أسمع ما يتهامسون به لا أكثر ، وعليّ أن أحذرك ... أما كنت فعلت خيراً لو سمعت مني وذهبت الى مدينة نيس أو أي مكان آخر ، ومعك الصغيرة إن كنت متمسكاً ، حيث ...

ثلاثة أسابيع انقضت للآن والطبيب سوڤاجيه ما يزال في السجن ، على الرغم من جهود محاميه للحصول له على حريته المؤقتة مقابل كفالة . كان يجري في هذا الشأن شيء غامض السر يُحدث الاضطراب لجيل ويثير أعصابه ، بالضبط لأنه لم يكن يفهم .

فالرأي العام ، بدلاً من أن يفتر اهتمامه بالقضية مع مرور الزمن ، أخذ يتابعها بحماسة مضطردة ، للأسف ! ودائماً في المنحى ذاته ، أي ضد الطبيب . والآن ، يوم الأحد مثلاً ، صار الناس يجعلون هدف نزهتهم رصيف الـ : أورسولين الذي يأتون إليه لكي يروا ، كأحد المعالم المثيرة للفضول ، منزل «عشيقة الذي دس السم» .

يكاد يعتقد المرء بأن إيعازات سرية قد أعطيت ، ويجري بلا انقطاع ترويج أخبار القصد منها إثارة حفيظة الرأي العام .

. . . وأخيراً انفتح باب ، من جهة الذراع الأيسر لشكل الصليب الذي تمثله الكنيسة . وصعد أحد صبية خدمة القداس الى الهيكل ، في قدميه حذاءان كبيران بمسامير ، تحت ردائه الأحمر والعباءة النصفية البيضاء على الكتفين ، المثقلة ، والتي لا تتجاوز المرفقين ، وأشعل شمعتين . ورغماً عنه ، شعر جيل بأنه كان يأمل في أن توقد كل الشموع . صحيح ، بالطبع ، أنه طلب أن يجري عقد القران في إطار لا يضم إلا الأشخاص الحميمين ، ولكنه ما كان ليرغب بهذا الاقتصار على شمعتين شاحبتي اللهب بما يشيع روح فقر شحيح .

لحظات أخرى تلت ذلك ، وعاد فتى خدمة القداس وهو يتقدم الكاهن . وفي الوقت ذاته وصل القندلفت آتياً من آخر الكنيسة .

وهمست أليس عندما اقترب القندلفت منهم :

ـ دورنا نحن في الأول .

ولم تكن متأثرة أو منفعلة . وقد ارتدت ثوباً نير اللون أوصت على عمله في الروشيل ، ومعطفاً للخروج ، وحذاءين جديدين ، وقبعة جديدة أيضاً ، لأنها عادة تسير عارية الرأس . وكان إيسپري لوپار أكثر الجميع رسمية ، بالأسود كله ، وبالصدارة البيضاء المنشاة تحت سترته ، بينما توجب على زوجته ، وهي امرأة قصيرة وبدينة وأليفة عن طيب خاطر ، أن تتمخط طوال فترة عقد القران .

جيل ، هو ، ظل ثابت النظرة على الكاهن الذي كانت شفتاه تتحركان وهو يتمتم بصلوات الطقس ، ومن دون أن يعرف لماذا ، اتجه فكره إلى كوليت .

لم تكن حاضرة . لم يجسر على دعوتها ، لأن حضورها كان يمكن أن يحدث فضيحة . ولم يجرؤ كذلك على أن يقيم وليمة غداء الزفاف في رصيف الـ : أورسولين ، لأنه في تلك الحال سيشق على النفس الحيلولة دون أن تظهر كوليت . والأمر ، أن الخالة إيلوا كانت ترفض أن تلتقي بها .

وأعلنت هي :

ـ سنتناول غداء الزفاف عندي في البيت :

وجيل هو الذي رفض هذه المرة ، لأنه يعرف أن حمويه لن يكونا على سجيتهما في منزل رصيف دو بيّريه .

ولم يكن الأمر بأفضل بالنسبة لاجتماع الكل في منزل زقاق جوردان . كما أنه ليس بالإمكان تناول الغداء في مطعم في المدينة .

هذا هو السبب في أنه جرى الحجز للغداء في مطعم نزل ريفي في إيسناند ، على بعد عشرة كيلومترات من الـ : روشيل .

ـ هل تقبل باتخاذ ز...

وقال نعم ، بجد رصين وبعض أسى تقريباً .

وألقت أليس بكلمتها نعم وكأنها تهزل ، والتفتت على الفور ناحية جيل وهي تبتسم .

وهمس القندلفت ، بينما الثنائي الآخر كان قد غادر مكانه :

ـ إذا تفضل السادة والسيدات بأن يتبعوني الى الهيكل .

وأثناء اجتيازه الكنيسة مجدداً ، تبين جيل أن عدداً من الأشخاص ، وبخاصة نساء ، جاؤوا لحضور زواجه . كانت السيدة رانكية جاثية أمام أحد الأعمدة . ووجهت جاجا الى جيل اشارة تشجيع . وفيما بعد ، بزمن ، أخبرته :

ـ ليتك رأيت ، يا صغيري كم كنت شاحباً...

كان متأثراً فعلاً ، ولكن ليس على النحو الذي سبق أن راود مخيلته . كان يردد لنفسه :

ـ الآن ، نحن متزوجان ... إننا نشكل ثنائياً ...

ما الذي كان ينقص فرحه ؟ ولماذا ، مرة أخرى ، كانت كوليت هي التي استدعى صورتها الى خياله ، كوليت التي ما أكثر ما بكت منذ ثلاثة أسابيع والتي بقيت وحيدة في منزل الـ : أورسولين ؟

ومع ذلك فإنها بذلت الجهد لتبتسم له هذا الصباح وهي تعقد ربطة عنقه .

ـ تهانئي يا جيل... وكل تمنياتي لك بالسعادة...

كانت ابتسامة مرتعشة ، مثل شمس قبل وابل المطر . حتى أن الصوت ، قبل آخر مقاطع الكلمات ، بدأت تشوبه غصة .

ـ الى هذا المســاء...

وما كادت المجموعة الصغيرة تقترب من آخر الكنيسة حتى ميّزت أذن جيل صرخة ، آتية من الخارج ، وتســاءل عما اذا كانت جاجا على حق .

في فناء مدخل الكنيسة ، تجمع بعض الأشخاص ، هم أنفسهم الذين يتركون انطباعاً بأن المرء يتعرف على وجوههم حيثما وجد تجمع . ولم يكن جيل يعرف أن الأمرهو على هذا النحو في كل حفلات الزواج . واعتقد أنه مستهدف شخصياً . على أية حال فقد عاد الصراخ مجدداً .

كان بائع جرائد ، في العشرين من العمر تقريباً ، يروح ويجيء وهو يصيح بكل ما في رئتيه من قوة :

ـ اطلبوا جريدة المونيتور ... عدد يهز المشاعر... الطبيب الذي دس السم... هل سيستخرجون جثة أوكتاف موڤوازان ؟

وتوقف جيل جامداً في مكانه . وبحث بعينيه عن البائع . وأمسك شخص بساعده . وانتبه الى أنها الخالة إيلوا التي دفعته لداخل السيارة .

وأقلّت سيارة أولى ، هي التي اشتراها جيل خلال الشتاء ، العروسين والأبوين لوپار . وفي سيارة بوب ، أخذهذا الأخير معه أمه وشقيقتيه . وصوت المنادي يلاحقهم :

ـ هل سيستخرجون جثة أوكتاف موڤوازان ؟...

ومن قبل ، كان الجميع يتوجسون من وقعة الغداء هذه ، لدرجة أن جيل اقترح الاستغناء عن الغداء نهائياً .

وردت خالته جيراردين :

ـ مستحيل ! فقد يعتقد أهل زوجتك أن ذلك دليل احتقار لهم . آه! لن يمكنك أن توجه أي لوم إلي... فأنت من أراد ذلك ...

وأمر طريف ، فمن يوم تكلم جيل عن زواج ، صارت هي تكلمه بضمير المخاطب المفرد الدال على رفع التكلف ، كما لو أن هذا الزواج وثق في الوقت ذاته روابط عائلية أخرى .

كما أنها تكلمت عن رحلة شهر عسل ، ولكن جيل لم يقدر أن يحزم أمره على ترك كوليت وحيدة في لحظة كهذه .

كان نهاراً جميلاً مشمساً ، مع بعض النسمات الدافئة أحياناً تعلن عن قدوم الربيع . وتوقفت السيارتان في إيسناند ، الواحدة بعد الأخرى ، في مواجهة « فندق المرفأ » .

وصاحب النزل وصاحبته ، بصحة مزدهرة ، كانا ينتظرانهم على عتبة النزل . وقدمت فتاة صغيرة باقة من الزهور الى السيدة موفوازان الجديدة .

وغمغم صاحب النزل بعد قليل وهو يعود الى فرنه :

ـ إنني لأتساءل ماذا بهم ؟

بكل الأحوال فإنهم استقروا ، بارتباك وحركات خائبة ، كل في مكانه ، في غرفة الطعام التي حجزت لهم .كان المكان بسيطاً ، وأكثر من ريفي ، ولكنه معدود على أنه أفضل مطعم في المنطقة ، ومن المشرب فيه كانت تصل أصوات الصيادين وهم يطلبون أنصاف ليتر من النبيذ الأبيض .

ـ أعطني معطفك يا با...

وطرأ فاصل صمت :

ـ بابا .

وأول من فوجئ بالكلمة هو ايسپري لوپار ، وهو أول من أحرجه أن يُنادى بهذه الكلمة :

ـ لعلك نسيت أنني الآن صهرك وينبغي عليك أن تناديني جيل ؟

كان جيل يرغم نفسه . فهذه الـ « بابا » كانت شديدة الوطأة عليه لتمر . وتذكر لمدة ثانية خاطفة وجه أبيه الحقيقي وهو على سرير موته ، بشاربيه المشمعين الطويلين يرتسمان بأكثر جلاء في تعارض لونهما مع بياض الملاءة .

جيراردين التي قررت عمل كل ما يلزم تولت أمر أليس :

ـ ألم يستول عليك انفعال بالغ ؟...

ـ ولماذا ؟... لم يكن في الأمر ما يوقع في النفس أليس كذلك ؟... انصرف تفكيري الى الثنائي الآخر الذي كان ينتظر و...

ـ ستوصين على ملابسك من باريس اعتباراً من الآن ؟...

ـ ربما ... لا أعرف... لم نتكلم عن الأمر بعد أنا وجيل ...

ـ ابنتاي تحت تصرفك اذا ما احتجت الى نصائح...

كانت أليس على قدر من برود الأعصاب بحيث إنها لدى سماعها هذا الاقتراح خطر لها أن توجه نظرة خاطفة ناحية جيل الذي كان يتمتم :

ـ لعلنا يمكننا أن نأخذ نبيذ پورتو ، أليس كذلك ؟

كان الأمر يتطلب أحداً يحيي الجلسة ، سلطاناً للحفلة . ولم يشغل صاحب النزل ، المستغرق كلياً في عمله في المطبخ ، نفسه بهم . وكانت زوجته تمر من وقت لآخر لإلقاء نظرة ،والقائم على خدمة الطاولة مجرد نفاية حقيقي .

عندما كانوا واقفين بعد ولم يجلسوا ، اقترب جيل من خالته وسألها :

ـ هل سمعت نداءاته ؟...

ـ للأسف !

ـ ماذا قصد ؟

ـ ما نطق به... فمنذ يومين كلمني پلانتيل عن الأمر... لم يكن ذلك مؤكداً بعد ... والآن ما يزال غير مؤكد على أية حال... إن عضو مجلس الشيوخ پونو ـ راتو هو الذي علم به من صديقه النائب العام...

ـ لكن لماذا ؟

ولاحظ أن أصابع خالته تشي باضطرابها ، وأنها كانت تمد عنقها وتمط شفتيها شأنها عندما تعوزها ثقة حقيقية بالنفس .

ـ يا مسكيني جيل ، لم أقل لك شيئاً قبل الآن لأن ذلك ليس وقتاً لأن تشغل بالك وتقلق في أيام أنت مشرف فيها على الزواج... كما أنني لا أرغب في أن أوجه إليك عتاباً أو لوماً في يوم كهذا اليوم . لكن تذكر ... إنك وصلت الى هناك وأنت لا تعرف شيئاً عن المدينة أو عن الحياة ... وليست غلطة أختي اذا هي لم تتمكن من أن توليك التربية التي يلزمك أن تكون متمتعاً بها... وقد حاولنا جميعاً أن نساعدك ، وأن ننصحك... واعتبرك إدغار پلانتيل مثل ابنه تقريباً... وآلمته أنت بعمق يوم رفضت تعاونه معك ، وطلبت كل الملفات التي عُهد بها إليه... لكن لنتكلم عن شيء آخر... ماذا لو جلسنا الى المائدة ؟ وأخفت سحابة ، لمدة بضع دقائق ، الشمس فظهرت القاعة فعلاًعلى حقيقتها ، غرفة طعام ريفية ذات جدران مطلية بالكلس ، الزوايا والثنايا غير نظيفة جداً ، والأشياء سوقية الذوق الى حد حزين .

كان ثمة على الطاولة محار ورخويات ثنائية الحلمة من المتوسط وقريدس ، بينما وصلت الى الأنف من المطبخ رائحة موكلاد ، وذلك بلح بحر يطهى مع القشطة . ولكن شوك الطعام كانت حديدية والأوعية بها ثلوم .

وكأنما باتفاق عام . ما عاد أحد على المائدة يتكلم عن استخراج جثة أوكتاف موثوازان ، ولكن كان بديهياً أن كلاً منهم كان يفكر بذلك ، ما عدا أليس . التي ظلت هي نفسها ، شأنها عند مواعيدها في الحديقة العامة الكبيرة . الآنستان إيلوا تركتا ابتسامة مهذبة تطوف على وجهيهما دالة أيضاً على تنازل . وايسپري لوپار كان من شدة التأثر بالجو بحيث لم يجرؤ على أن يسكب لنفسه في صحنه . أما بوب ، عند أحد طرفي الطاولة . فكان يتحايل على ضجره بإمعانه في تناول نبيذ أبيض من إنتاج المنطقة .

ـ وهاك ، قال جيل لنفسه ، اليوم الأهم في عمري كله ، اليوم الذي سيقرر ماهية بقية حياتي ! وبعد ثلاثين سنة ، أو أربعين ، سيتواصل الاحتفال بذكراه . وإذا ما رزقنا أطفالاً ، فمن هذا اليوم أيضاً إنما هم آتون ، وبالاختصار ، فإن سلالة كاملة ستنحدر منه ، ستولد أسر أخرى ، أزواج أخر ، وزيجات غيرها...

والأمر ، هو أن ذلك كله جار ببلادة ، من دون أية رسمية احتفالية . وعندما قبل زوجته لأول مرة على مرأى من الجميع ، في الهيكل ، أمل في أن ترتجف يدها ، أن ترتعش شفتاها ، أو تشيع رطوبة ندية في عينيها .

ولكن لا! فقد شدت أليس أطراف أصابعه بحركة شريك متواطئ . وتساءل هو عما اذا أغاظه ذلك منها .

ـ ما الذي تفكر فيه يا جيل ؟

ـ لا شيء...

وللأسف بلى ، كان يفكر ! ويفكر بشكل مفرط للغاية . إذ لم يسبق وحدث له يوماً أن هاجمه هذا القدر الكبير من الأفكار وفي آن

معاً . كان الأمر في رأسه أشبه بدغل من الأغصان الصغيرة المتشابكة وهو وسطها يحاول عبثاً أن يهتدي .

فما دامت جاجا قد أعلمته مقدماً منذ البارحة ، فمعنى ذلك أن الأمر كان مقصوداً . ذلك المجيء والنداء على المونيتور عند مغادرة الكنيسة . فمنذا الذي أرسل بائع الصحف ؟

وكانت جاجا هي التي أيضاً قبل عدة شهور رددت عليه بلا أمل في أن يسمع كلامها :

ـ تفعل خيراً بأن تشتري لنفسك ثياباً أنيقة ، وسيارة جميلة ، وأن تمضي الى باريس أو الجنوب ... فهنا ، «المكان ليس لك» .

ولم تفسر أبداً بصراحة ما قالت .

وكانت تقول ، من دون أن تحدد يوماً بدقة من الذين تقصدهم بـ : هم :

ـ ليس لك أي شأن بهم .

أو أيضاً :

ـ ليست هذه مهنة لك ... سينتهي الأمر بهم لأن يوقعوا بك...

ولم يصدق ذلك . ما يزال يرفض أن يقتنع به... ومع ذلك ، فإنه بدأ يتصور احتمال وجود مؤامرة خفية غادرة .

وكان صاحب النزل يأتي أحياناً ليسأل :

ـ أعندكم كل ما يلزمكم ؟

ـ لكن طبعاً ...

ـ إذن كل شيء على ما يرام .

ثم يعود الى مطبخه ليعلن :

ـ إنني وايم الحق ، شهدت طعام رحمة عن روح الموتى أكثر بهجة من هذا الزفاف .

وقد أفرطوا في تناول الطعام إخفاء لارتباكهم ، فإن أحداً لم يكن يتكلم ليبث الحيوية والبهجة ، وأخذ بوب يشرب كثيراً بحيث إنه عند نهاية الغداء ، بدا قرمزي اللون ، وقد نتأت عيناه من محجريهما .

وأعلن وهو ينهض :

ـ أنا . . . منصرف !...

واضطرت أمه للجري وراءه ، وأن توجه له التأنيب بصوت منخفض ، فعاد ليجلس من جديد وهو يغمغم :

ـ مفهوم !

جيل ، لأن هذه هي العادة ، طلب تقديم شامبانيا . ثم مر الى الغرفة المجاورة كي يدفع الحساب . وفي الساعة الرابعة ، كان كل شيء قد انتهى . ووجد السبيل مرة أخرى لأن يتبادل بضع كلمات مع خالته إيلوا :

ـ أتعتقدين حقاً يا خالتي بأنه جرى تسميم عمي ؟...

وارتعشت ، وابتسمت ، وعضت الهواء بأسنانها الكبيرة :

ـ ماذا تريدني أن أقول يا فتاي ؟... يعرف الجميع انك « تناصرها » ... عمك رجل قوي البنية ، مثله مثل أبيه الذي كان فلاحاً من نيول ، ومات في غضون بضعة أشهر... كان يذوب ذوباناً على مرأى البصر ... هنالك أناس شأنهم أن يتذكروا بعض التفاصيل... إنك حر في أن تتصرف وفق هواك ، قلت لي ذلك ، لكن ينبغي ألا تلومني ذات يوم على أنني لم أحذرك ...

كان الجميع واقفين ، والباب مفتوحاً ، وبوب يُعمل بوق سيارته .

وانطلقت سيارة إيلوا الأولى بعد مجاملات جرت التمتمة بها من أطراف الشفاه .

إيسبري لوبار ، الذي في العادة له لون الأوراق التي ينكب عليها ، بدت وجنتاه محمرتين ، وعند نهاية وجبة الطعام انتزعت زوجته منه كأس خمر فاخرة كان على وشك أن يشربها .

ومر جيل في طريق العودة بزقاق جوردان كي ينزل حمويه ، فاقترح إيسبري بينما اهتزت الستائر في منازل مجاورة :

ـ ألا تقبلان بالدخول للحظة ؟... لكن بلى!... تعال هيا لتناول كأس أرمانياك ...

ـ ماذا دهاك يا إيسبري ! تعرف جيداً أن جيل وأليس ...

ونفرت نفس جيل بشدة من النظرة التي رمتهما بها والتي تلمح بتحديد الى كثيرمن المشاريع المتوقعة . وقال :

ـ طبعاً لا ... عندنا ولابد لحظة ...

وقد فعل ذلك من أجل الجيران ، وإرضاء لإيسبري ، كي تبقى السيارة أمام الباب ، ولكي يُعرف أن موقوازان لا يستكبر على المجيء الى زقاق جوردان والجلوس في البيت الصغير .

ـ ولكن كل شيء فوضى ! كنا في منتهى العجلة هذا الصباح !...

كان كل شيء صغير الأبعاد في ذلك البيت . الدهليز ، والأبواب ، وغرفة الاستقبال ذات المقاعد الأربعة والأريكة التي باللون الذهبي كلها ، وطاولة الوسط المستديرة طراز لويس الخامس عشر ،وغرفة الطعام التي لا تستخدم أبداً ، لأن تناول الطعام هو عملي أكثر في المطبخ المفصول بألواح زجاج .

ـ لا تولِ الأمر انتباهك يا جيل .

وأخذت تلم حوائج مبعثرة ، قطع ملابس ، زوج أحذية ، بل وحتى ، على طاولة غرفة الاستقبال التي فيها أفضل مرآة في البيت ، مكواة تجعيد الشعر .

ـ لا أعرف لماذا جعلك زوجي تدخل... صحيح أنه ليس من عادته أن يشرب وأعتقد أنه تجاوز حده اليوم... على أية حال ، بلح بحرهم بالقشطة ، الموكلاد ، كان زائد الفلفل... أما فرَوجهم...

عندما غادرا زقاق جوردان ، كان الليل قد أخذ في الانتشار والصبية الصغار يحيطون بالسيارة . وهي الساعة التي ، في الأيام الأخرى ، درجا على أن يلتقيا فيها عند مدخل الحديقة العامة الكبيرة ، حيث يتنقلان كالتائهين من مكان لآخر ويختاران الأركان الأكثر ظلاماً . اليوم ، معهماالسيارة ، ولم يلزمهما أكثر من بضع دقائق ليبلغا رصيف الـ : أورسولين . وقد علقت أليس بكل طبيعية يدهاعلى ذراع جيل الذي كان يقود .

ولاشك في أنهم كانوا وضعوا راصداً بالقرب من الكنيسة القديمة ، ذلك أنه حالما توقفت السيارة ، ظهر ما يقرب من عشرة أشخاص عند مدخل مرآب موڤوازان ، وعلى رأسهم پوانو ، وقدمت مستخدمة قديمة باقة زهور لأليس .

ـ باسم العاملين في مؤسسة موڤوازان الأهلية للنقليات ،أرى من واجبي ...

وتلا پوانو تهنئته بأفضل ما استطاع ، قلق النظرة ، وعيناه محاطتان بهالتين .

في المنزل ، كانت السيدة رانكية هي التي استقبلت الزوجين ، برفقة خادمة صغيرة ، مارت ، اختارتها السيدة رانكية لخدمة الأسرة الشابة . وكان سؤال يلهب شفتي جيل :

ـ وزوجة عمي ؟...

ـ إنها فوق ...وحالها ليست بأحسن .

وصعدا الى الطابق الأول ، الذي كان جيل رتبه في الأيام الأخيرة بهذا القدر أو ذاك من التوفيق . نُظفت الغرف ، وجرت تهويتها . وتمّ تحويل الجناح الأيسر الى شقة للمعيشة ، قديمة المسحة ، لكن مريحة .

وكانت غرفة الاستقبال مزدحمة بالزهور . سلال ، وباقات ، وأخذت أليس تنتقل من الواحدة للأخرى وهي تقرأ الأسماء على البطاقات : راوول بابان ، إدغار پلانتيل ، پونو ـ راتوه ، كونت دو ڤيڤر ، الأستاذ هرڤينو ... وآخرون أيضاً ، جميع الموردين ، وجميع زبائن مؤسسة موڤوازان الأهلية للأعمال .

وتمتمت أليس :

ـ أتساءل أين سنضعها ! يوجد منها ما قيمته ألوف الفرنكات ... العلّة أنها بعد يومين أو ثلاثة ستذبل كلها...

لو أنه أصغى لما في نفسه ، فما كان حتى ليتوقف في الطابق الأول ، بل اندفع الى الثاني ليعاود الاتصال مع كوليت .

ولم تنزل هي ، تحفظاً منها وتجنباً لفرض حضورها . والليلة الماضية كادا يصلان الى التخاصم حول هذا الأمر . إذ ما داموا يعيشون في المنزل ذاته ، فإن جيل كان راغباً في أن تستمر الحياة كما من قبل .

ـ لكن لا يا جيل! إن زوجة شابة تتمسك بالبقاء وحيدة مع زوجها ، وأنا شخص ثالث في كل وجبات طعامكما ...

وعاند . وكل ماحصلت عليه هو ألا تتناول العشاء معهما هذه الليلة .

ـ أؤكد لك أنها ستغتاظ منك وستمقتني اذا ما سرقت منها انفرادكما الأول هذا أنت وإياها وحدكما .

ـ هل تسمحين لمدة ثانية يا أليس ؟
ونظر الى السقف . وفهمت .
ـ ألا تعتقد بأنني أحسن صنعاً بأن آتي معك ؟
بماذا يجيب ؟... بأنه راغب في أن يبقى لحظة وحده مع زوجة عمه ؟... حتى ولم يعترف بذلك لنفسه هو .
ـ انتظر ثانية ، ريثما أمر بضربة مشط على شعري... لقد التقيتها كثيراً في المدينة ، لكن لم يحدث أن قُدّمت لها .
ـ حسن يا حبيبتي...
ـ هل يضايقك ذلك ؟
ـ لا ... لماذا ؟
سخط على نفسه . كان عليه ألا يفكر إلا بزوجته .
وصعدا . وعندما بلغا موزع الطابق الثاني ، تساءل جيل عما اذا كان سيقود أليس نحو غرفة زوجة عمه أو أنه سيبعث الى هذه لتوافيهما في غرفة الطعام .
ـ أين ؟
ولم يقع عليه أن يتخذ أي قرار . فقد سمع وقع خطى صغيرة ناعمة . وكانت كوليت ، التي استغلت نصف الظلمة السائدة في الدهليز لتمسح مرة أخيرة عينيها بحركة مختلسة ، وبشجاعة ، تقدمت مادة يدها :
ـ طاب يومك يا سيدتي ... هل تسمحين بأن أقبلك ؟...
ثم استدارت ناحية جيل ، ولكنها ظلت جامدة الحركة ، وهو الذي بادر لأخذها بين ذراعيه والذي ، ولأول مرة ، مس خديها مساً خفيفاً بشفتيه .
أحسها ترتعش من رأسها لقدميها . وتمتمت :

ـ كل تمنياتي . من أعماق قلبي أتمنى لك يا جيل ...

وأدار رأسه . فإن هبة حارة اندفعت الى وجهه . وخيل إليه أنه شديد الاحمرار ، في حين أنه على العكس من ذلك ، صار أكثر شحوباً .

ـ لا تنشغلا بي هذه الليلة بعد ، هل تتكرمان ؟... أشكر لكما كليكما أنكما صعدتما ... وكان من شأني أن أنزل بنفسي ، ولكن ما كنت أرغب في أن أزعجكما و ...

وابتعدت باتجاه غرفة الطعام بخفة سريعة لدرجة ، بحيث فهم جيل بأنها لم تعد تملك أعصابها .

وسألت أليس وهما ينزلان الى شقتهما :

ـ ماذا بها ؟

وهتفت ، لدى اكتشافها أخيراً ، بين الزهور ، تلك التي أرسلتها زميلاتها في الـ « پوبليكس » .

ـ حلو ! الزميلات لم تنشق جيوبهنّ .

- ٤ -

كان جهاز الهاتف موضوعاً على طاولة صغيرة من ناحية جيل . وتركت أليس الهاتف يرن طويلاً ، وهي ما تزال دبقة من النوم وعيناها مغلقتان ، قبل أن تفطن الى طبيعة الصوت . ثم فكرت بأنها قد تزوجت ، وجيل هنا وسيرد هو ،وأخيراً نهضت واقفة وأخذت تفرك عينيها .

فقد انتبهت الى أنه لم يعد هنالك أحد بجانبها . والسرير قد برد ، ورنين الهاتف يتواصل بعناد . والتفتت ناحية باب غرفة الحمام ونادت :

- جيل ... هل أنت هنا ؟

ورفعت السماعة وهي واقفة ، وأحد نهديها قد أفلت خارج البيجاما ، وقبل أن تصل السماعة إلى أذنها ، سمعت صوتاً نابضاً يهتز في مذياع الصوت ، ولابد أنه مسموع في كل الغرفة .

- هل أنا فعلاً مع منزل السيد جيل موقوازان ؟

- نعم يا سيدتي .

- أعطيني السيد جيل على الهاتف من فضلك .

ـ مِن قِبل من ؟...

وكل مدينة الروشيل تعرف مفعول البوق الذي يحدثه على الهاتف صوت جيراردين إيلوا . إذ يمكن أن يضع المرء السماعة من يده ، ويذهب ويجيء في الغرفة ، من دون أن يكف عن سماع ما تقول :

ـ أهذه زوجته ؟ ... ناديه إذا تكرمت... هو بالذات ، شخصياً ، من أريد أن أتكلم إليه ... وكيف ذلك ؟... ولا تعرفين أين هو ؟...

في تلك اللحظة ، دخل جيل الغرفة ، قادماً من ناحية الدرج الكبير ، ولاح متضايقاً لأنه وجد أليس واقفة .

ـ إنها خالتك ...

ـ ألو ، خالتي... نعم ، هذا أنا... كيف ؟... أن أذهب لرؤيتك بالضرورة في بداية بعد الظهر ؟... نعم... حسناً ... إن كان ضرورياً... ألا يمكن أن تقوليه لي على الهاتف ؟

وسألت أليس أول الأمر وهي جالسة على السرير ولا تفكر بستر نهدها الذي كانت تشعر بالسرور لإظهاره .

ـ أين كنت ؟

ـ صعدت لحظة الى فوق... لم يكن باستطاعتي أن أنام... لذلك ، ولكي لا أوقظك ذهبت الى مكتبي .

كان يكذب ، فقد مضت عليه ساعات والنوم يجافيه ، وهو متمدد في ظلام الغرفة وعيناه مفتوحتان . وعندما خطّ ضوء النهار حزوزاً دقيقة بين ضلوع أغلاق النافذة ، نهض من دون أن يحدث صوتاً .

كان في حاجة لأن يذهب الى هناك فوق ، وأن يلتقي مجدداً اتصاله مع كوليت . لم يكن قد رآها في غرفة الطعام ، وسألته السيدة رانكية ببعض الدهشة :

ـ أمن الآن مستيقظ يا جيل ؟... الساعة لم تكد تبلغ الثامنة والنصف ... هل أنت بحاجة لشيء ؟...

لا ! لم يكن بحاجة لشيء . وأخذ يذهب ويجيء في غرفة الطعام ، ودخل الى المطبخ ، وصب لنفسه فنجان قهوة . كان يرتدي البيجاما وفوقها رداء غرفة النوم . ومن النافذة ، نظر الى طرف الجناح الأيمن والنافذة فيه فأدهشه أن يجدها مفتوحة . ثم ، على طبق ، لاحظ بقايا إفطار .

وعندئذ فقط جرؤ على أن يسأل :

ـ هل نهضت زوجة عمي ؟

ـ منذ نصف ساعة والسيدة خرجت من المنزل .

كانت تمطر ذلك الصباح ، والأزقة ملساء ، بلون أخضر ضارب الى الزرقة ، والنهار كامد .

ـ أعتقد أنني أسمع رنين الهاتف ، تحت .

فقد سمعه ، هو أيضاً . ولم يكترث له . لم يكن قد تمثل في مشاعره بعد أن «بيته» ، إنما يقع في الطابق الأول . ونزل ، ووجد أليس على الهاتف .

وذلك النهد العاري ، وهي تعرضه بذلك القدر من الطبيعية ، ضايقه . وقد ضايقه منها كذلك أن يراها تستدعي الخادمة التي نفذت بذلك مطلعة على المنظر الصميم لغرفة النوم بينما هذه غير مرتبة .

ـ الإفطار يا مارت ... ألم تأكل يا جيل ؟... إذن إفطار السيد أيضاً .

تمطّت . كانت هانئة . ومضت لفتح النافذة وهتفت :

ـ غريب ! إنها تمطر ...

ثم انتقلت من غرفة لأخرى .

ـ هل رأيت زوجة عمك ؟

ـ إنها خرجت ...

ـ ألا تجد أن ذلك لن يكون ظريفاً دائماً أن تتناول الطعام معنا ؟...

وكان بوده أن يغلق باب غرفة الحمام بالمفتاح لترتيب هندامه إنما لم يجرؤ . وأخذت أليس تتابعه بنظرها ، ولاحظت :

ـ يا له أمر غريب . لك شامة كبيرة على ترقوتك اليسرى... أنا ، عندي واحدة هنا ، على فخذي . ولكنها أصغر ... انظر ...

إنها أصبحت امرأة بكل بساطة وكانت تجد ذلك ظريفاً :

ـ ماذا سنفعل هذا الصباح ؟

ـ يجب أولاً أن أنزل لحظة الى المكتب ...

ـ يقول من يراك إنك مشغول البال ... أما زلت تفكر بتلك القصة عن الطبيب ؟...

نعم ... نعم ولا ... الأمر أكثر تعقيداً وتشابكاً وهو قبل كل شيء توجس مبهم ... لعله أفرط في التفكير أثناء أرقه ؟ ربما كان على خطأ في أنه طرح على نفسه بعض الأسئلة بطريقة مفرطة في عريها النيء ؟...

ـ هل أنا سعيد ؟

وبخاصة :

ـ هل أحبها ؟...

الآن ، ما عاد يعرف . فمنذ أن كان غلاماً صغيراً بعد ، وهو ينظر بعيون ملأى بالرغبة والحسد الى الثنائيات ، بعض الثنائيات بشكل خاص ، التي يحسها المرء مشغولة بنفسها بحيث لا يعود لبقية العالم وجود .

وأول رؤية له ، وهو ينزل الى البر في مدينة الروشيل كان ثنائياً متعانقاً عناقاً لصيقاً جداً ، فأحس رغبة عنيفة بأن يضم الى صدره مخلوقاً يستسلم له بكل طمأنينة .

والمشهد اليومي لزوجة عمه ، التي لم تكن تحيا إلا بحبها الكبير ، غذّى فيه ما صار حاجة عنده .

ودخلت أليس في مغطسها وتمتمت :

ـ حتى ولا تنظر إلي ...

وأبدى لها اللطف ، بشكل طبيعي تقريباً . وماذا لو أنه لن يبقى على حبه لها . اذا لم يعد سعيداً ولم يجعلها سعيدة ؟ لم تكن ترتاب في شيء . لم تكن تمعن التفكير . فإنها وقد صارت امرأة ما بين يوم وغده ، مضت تمثل دور المرأة كما مثلت دور الصبية الشابة . وكما سبق ولعبت بالدمية في الماضي .

ـ أنا عائد حالاً ...

لماذا ، طوال ذلك النهار الطويل يوم البارحة ، فاجأ نفسه وهو لا يكف عن التفكير بزوجة عمه ، حتى في الكنيسة ، حتى في لحظة إعطاء الجواب على أسئلة الكاهن في الطقس .

اجتاز الباحة ، ودخل ، محدودب الظهر بسبب المطر ، إلى الردهة التي ما تزال باردة برداً جليدياً ، حيث جرى صف الطرود والرزم ، وحيث كان يجري إصلاح محرك سيارة وقع لها حادث في اليوم السابق .

إيسپري لوپار ، بتواضع ، كان قد أعاد ارتداء كميه المستعارين على ساعديه ، واستعاد مكانه في القفص الزجاجي ، ووجّه إلى رب عمله التحية ذاتها المعبرة عن الاحترام مثل الأيام الأخرى .

ـ قل لي يا سيد پوانو ...

وعندما نظر هذا اليه ، أدرك جيل ان شيئاً ما لم يكن على ما يرام ، ولكن تظاهر بأنه لم يلحظ ذلك :

ـ اعتباراً من اليوم ، لن يعود حمي تابعاً للمكاتب بمعنى الكلمة ، ولكنه سيعمل معي فوق ، طوال النهار . فمن فضلك ، لو تتخذ ترتيباتك على أساس ذلك و...

ـ عندي كلمة أقولها لك يا سيد جيل ...

ـ أنا مصغ إليك ...

وأجال رئيس العمال النظر فيما حوله ليستوثق من أن أحداً لم يكن بمقدوره أن يسمعهما . وقد غطى محرك جرى تشغيله للتو الصوت جزئياً :

ـ هاك الأمر ... أنا مضطر لأن أترك العمل عندك ...

ـ كيف ؟ ... تريد أن تترك سفريات موڤوازان ؟...

ـ أرجو العفو منك ،ولكن يصعب عليَ أن أتصرف بشكل مختلف...

ـ أيمكن لي أن أسألك عن السبب ؟...

ـ كنت أوثر بنفس القدر ألا تفعل يا سيد جيل ... فمنذ بضعة أيام ، تجري هنا أشياء ليست واضحة جداً... البارحة أيضاً ، جاء مفتش في الشرطة ليطرح علي عدداً كبيراً من الأسئلة... وإن شرطة آخرين ينتظرون السائقين والمستخدمين ساعة الخروج...

وقد فهم جيل الآن ، إلا أنه يريد معرفة المزيد :

ـ لقد دخلت للعمل هنا من أيام عمك ، ويمكنني قول إنني بقيت دائماً رجل الثقة عنده... فوضعي له دقته ... مع كل هذا الذي يُروى حول موته...

وسأل جيل متظاهراً بأنه غير معني تماماً :

ـ وما الذي تنوي عمله يا سيد پوانو ؟
ـ لا أعرف بعد ...
وأحس جيل أن مخاطبه يكذب ، فألح :
ـ أموقن أنت مما تقول ؟... فأنا لا أنسى أن لك عائلة كبيرة العدد وأن أمراضاً متعاقبة لم تسمح لك بأن توفر أية مدخرات ...
ـ رأيي أنني سأجد عملاً .
ـ وقد وجدت فعلاً أليس كذلك ؟...
ـ يعني أنه قُدم لي بكلام مبهم عرض ...
ـ من ؟...
ظلا واقفين طوال الوقت في الردهة سيئة الإنارة ، واستدار رئيس العمال ناحية الباب ليتمتم :
ـ السيد بابان ... منذ زمان وأنا أعرف بأنه سيأخذني عن طيب خاطر لتسيير نقلياته ...
ـ ومتى قابلته لآخر مرة ؟...
إزاء هذه الأسئلة قاطعة الوضوح والدقيقة ، لم يتمكن پوانو من أن يكذب .
ـ البارحة ...
ـ إنك إذن انفككت عن العمل ؟...
ـ منذ ربع ساعة أو يكاد ...
ـ هل اتصل بك بالهاتف ؟
ـ طلب مني فقط أن أمر على مشرب لورّان... وذهبت الى هناك وافهمني...
ـ هل أنت الوحيد في ترك نقليات موفوازان ؟... هذه المرة بلغ ارتباك پوانو أوجه :

ـ أعتقد أن اثنين أو ثلاثة ميكانيكيين من بين الأقدم ، سيلتحقون معي في الوقت ذاته للعمل عند السيد بابان ... أنت ترى ولابد ، في الظروف الراهنة ، فجميع الذين اشتغلوا طوال سنوات مع السيد أوكتاف ...

عندئذ وببساطة ، ترك جيل العبارة تسقط من فمه :

ـ حسن جداً يا سيد پوانو ... سأخطر حميّ...

ـ الأرجح أنه على بعض العلم بالأمر ...

ـ ستكون الحسابات جاهزة لهذا المساء...

وقد شهد إيسپري لوپار من بعيد ، عبر الزجاج ، المحاورة . وعندما دخل جيل الى القفص ، فإنه نهض مرتبكاً :

ـ ما الذي ستفعله يا سيد جيل ؟

ـ أنت قادر على إدارة قسم السيارات والطرود لبعض الوقت أليس كذلك ؟...

ـ سأبذل جهدي ... ما قد أفتقد أكثر إليه هو القدرة على إملاء سلطتي... إنما ما دام الأمر مؤقتاً لا أكثر ...

ـ أعدّ حسابات الذين يريدون الرحيل... إنني لا أبحث عن استبقاء أحد ... أخبرني ، ألم يقولوا لك شيئاً أنت أيضاً ؟...

وأدرك لوپار أن الكلام لم يكن يتعلق بپوانو والميكانيكيين ، فهز رأسه إيجاباً .

ـ بابان ؟...

ـ لا ... إنك تعرف أن زوجتي تشتغل بياضات منزلية لبعض الناس في المدينة... والسيدة پلانتيل هي التي أفهمتها ...

ـ متى ؟...

ـ مضى أسبوع على ذلك ...

هكذا إذن ! حتى قبل الزواج ، جرت محاولة للتأثير على إيسبري لوبار ، الذي لم يقل شيئاً لأحد عن ذلك!

ومدّ جيل له يده ، وشدها بقوة أكبر من المعتاد .

ـ شكراً .

وبقي واقفاً على عتبة الكنيسة القديمة عشر دقائق طويلة ، وهو ينظر الى المطر يتساقط ، وتساءل أين يمكن أن تكون ذهبت زوجة عمه مبكرة على ذلك النحو... .

وأخيراً ، بزفرة أطلقها ، صعد مجدداً الى شقته . وجد أليس ما تزال في مشمل غرفة النوم ، قدماها في خفين جميلين ، جالسة عند أحد أركان طاولة المطبخ . وكانت الخادمة ، من دون فاصل بينها وبين الطاولة إياها تقشر بعض الخضار . والاثنتان تضحكان ، فما الذي كانت أليس ترويه لخادمة البيت ؟...

ـ أهو أنت يا جيل ؟... أنا قادمة... كنت أعطي بعض الأوامر من أجل الغداء...

عند وصوله في الثانية والنصف الى متجر خالته إيلوا ، فاجأه ألاّ يجد هذه في المكتب حيث درجت على أن تقضي النهار . وبالمقابل ، فإن بوب ، الذي يندر أن يهتم بالأعمال ، كان هناك ، في حديث مع رجل على رأسه عمرة ريّس بحار...

ـ هل خالتي هنا ؟

ـ إنها تنتظر فوق...

وارتقى الدرج اللولبي الذي يظهر أدناه في صدر المتجر . وعندما بلغ الطابق الأول ، فُتح باب . وبما أن عتمة كثيفة كانت سائدة ، فقد جاءه صوت يسأل :

ـ أهو أنت يا جيل ؟ ادخل ...

ودخل الى غرفة الاستقبال ، ولم يستغرب قط ، أو يكاد ، عندما وجد هناك السيد پلانتيل مستقراً في مقعد وثير . ولم ينهض مجهز السفن ، أناقته على عادته بالغة العناية ، بل مدّ اليد بإهمال :

ـ اجلس يا صديقي ...

وساد صمت ، همست جيراردين في نهايته :

ـ أعطني معطفك يا جيل ... إنه مبلل .

وتبادلت الخالة وپلانتيل نظرة . وأدخل پلانتيل طرف سيكاره في مبسم من العنبر ، ونفض الرماد الأبيض بظاهر اصبعه وبعد أن وضع ساقاً على ساق :

ـ يؤسفني أن أعلمك بأن النيابة العامة أمرت هذا الصباح باستخراج جثة عمك موڤوازان ...

ونظر جيل إلى وجهه مباشرة . وكان الضوء سيئاً في غرفة الاستقبال بسبب الطقس المطير ، وصوت حبات المطر يُسمع وهي تنقر على رف من التوتياء مائل ، لوقاية النوافذ من الماء .

ـ هل تعتقد بأنه جرى تسميم عمي يا سيد پلانتيل ؟

هذا السؤال البسيط زعزع لمدة لحظة مجهز السفن .

ـ ليس لي أن أبدي رأيي... موڤوازان وهو يسلم الروح عهد إلينا أنا وخالتك بدور معيّن... وحتى الآن كان عسيراً جداً علينا أن نؤدي مهمتنا ، نظراً لإرادتك السيئة الجلية...

وتدخلت جيراردين قائلة :

ـ اعترف يا جيل بأنك لم تفعل أي شيء كي...

وبحركة من يده أوعز پلانتيل إليها بأن تسكت :

ـ صديقي موڤوازان كان يعرف ولاشك ما الذي يفعله وهو يتخذ

ترتيباته في وصيته ... فعلى إثر تسميم السيدة سوفاجيه ، اهتاج الرأي العام . وجرت صياغة اتهامات جديدة... وتساءل الناس عن الرجل الذي قتل بكل برود أعصاب زوجته ، وعما إذا لم يكن قادراً على أن يعمل وبنفس المعيار على أن يختفي زوج عشيقته . بعد الآن ، ما من شيء قادر على لجم الفضيحة ومنع انتشارها...

وقال جيل :

ـ ما عدا الحقيقة ! ...

ورفع پلانتيل كتفيه في هزة خفيفة :

ـ لا توجد حقيقة ، بل هناك كثرة من الحقائق وبالعدد الذي يراد اختراعه منها... إنك أصررت على أن تتزوج ، ووجب طبعاً تركك تفعل... وأردت أن تعرض نفسك علناً مع زوجة عمك ، وأنت ترى بنفسك نتيجة ذلك ... البارحة ، أقدم عدد من طاقم العاملين عندك على الذهاب لمقابلة صديقي بابان وأبلغوه بقرارهم بأنهم لن يبقوا في خدمتك...

ـ بابان ، كان اتصل بهم هاتفياً قبلها ...

ـ وتظاهر پلانتيل بعدم السماع .

ـ أنت شاب ، ولا تعرف شيئاً عن الحياة ، وخبرتك في الأعمال أقل أيضاً . إنك مضيت في قلة الوعي لدى موت السيدة سوفاجيه لحد القيام بزيارة زوجها ، وانتظرتك زوجة عمك خلال ذلك في مقهى مجاور... كل ذلك يُعرف أيها الشاب... كله يجري التهامس به ، ويُروى ، وربما نُشر غداً... ويعلم الله إلى أين ستبلغ ألسنة السوء حالما تنطلق ، حول ما صار يدعى من الآن : قضية موفوازان ... وقد تسبب سلوكك للآن بوشايات مغفلة ، وها هم يأمرون باستخراج جثة عمك... لقد قررنا أنا وخالتك إيلوا ...

ونهض . وذهب ينفض رماد سيكاره في موقد المدفأة الجدارية :

ـ قررنا ، قلت ، أنه يجب تجنب أن تأخذ الفضيحة أبعاداً أكبر... إننا جميعاً متضامنون بهذا القدر أو ذاك ... وزواجك ، بما أنه عقد زواج ، يقدم حداً أدنى من حل ... فمن المعمول به ، بالفعل ، أن يقوم المتزوجون الجدد برحلة الى الجنوب أو إلى ايطاليا... ستبقيان غائبين هناك طوال ما يلزم من وقت ، وعند عودتكما ، آمل في أنه لن يكون هنالك بعد أي موضوع يتعلق بتلك المرأة وعشيقها...

وقد قرأت جيراردين الجواب على شفتي ابن أختها قبل أن ينطق به ، فبادرت للتدخل :

ـ لا تتسرع في كلامك يا جيل ... الأمر أخطر مما تعتقد ... خذ وقتك لتفكر بعمق ...

ـ تفكيري بالأمر منته ... أنا باق ...

ونظر پلانتيل الى صديقته ... وكانت نظرته تعني :

ـ ماذا قلت لك ؟...

ثم ، بلهجة شخص يزين كلماته :

ـ اسمعني جيداً أيها الشاب ... ليس من عادتي التهديد ... وكنت على استعداد لمساعدتك في الحياة ، إكراماً لذكرى صديقي موڤوازان ... إنما منذ الأيام الأولى انتصبت أنت بالأحرى كعدو... ولا أعرف إن كانت هذه الثروة المفاجئة ، التي ما كان يمكن أن تتوقعها ، قد أدارت رأسك... يبقى أنك لم تشأ أن تصغي لا إلى نصائح ولا إلى آراء ، وأنك قررت أن تحيا على هواك ...

ونهض جيل ، وتناول معطفه الموضوع على ساعد أحد المقاعد .

ـ لن أدع مجالاً لأية عواطف ... وستفهم يوماً إلى أي حدّ كان سلوكك ظالماً بله شنيعاً... والآن أعلن لك هذا : نحن نفر ، وسندافع

عن ذكرى صديقنا موڤوازان ، حتى لو كان ذلك ضد وريثه ... إننا عرضنا عليك مساعدتنا إياك ... وما زلنا نعرضها عليك ... إنك ترفضها : فليكن !... هي الحرب إذن ...

وناشدته جيراردين مرة أخرى :

ـ جيل ! ... اسمع ما يقوله لك السيد پلانتيل ولا تركب رأسك في موقف من شأنه ...

ـ دعي عنك يا صديقتي ... فبعد بضعة أيام سيأتي هو كي يتوسل إلينا ...

كان جيل قد ارتدى معطفه وتناول قبعته . وبالارتعاشة المعهودة التي تمر على شفته ، سأل ، متوتراً :

ـ أهذا كل ما عندك لتقوله لي ؟

ـ هذا كل شيء .

وفي لحظة استدارته على عقبيه ليتوجه الى الباب ، لم يستطع السيد پلانتيل مقاومة رغبته في أن يقذفه بعبارته :

ـ أنت ولد صغير يا سيد موڤوازان ...

ـ ٥ ـ

في اللحظة التي دفع جيل فيها بالمفتاح في ثقب الباب ، هبت الريح ، وانقلب موج البحر مرتداً ، والمراكب التي هي في جزء مقدمة المرفأ أخذت تنحرف حول مراسيها ، وتلقى جيل وابلاً من المطر بلله من رأسه لقدميه .

وعقد حاجبيه ، فهذه الصفعة المائية ، وطعمها الباهت على شفتيه ، وخيط دقيق من ماء سال على عنقه ، أعاد ذلك إليه ذكرى ما . لكن أية ذكرى ؟ أكان الأمر في الشمال أم في وسط أوربا ؟...

وأغلق الباب مجدداً وراءه بعناية ، وهو ما يزال يبحث . ومسح قدميه ، وشرع يصعد الدرج الذي ظلت رائحة عفن تفوح منه . وعندئذ ، وقبل أن يبلغ الطابق الأول ، وصل إليه صوت أليس فتوقف آلياً ، من دون أن يخطر له أنه بذلك كان يرتكب ربما عمل تطفل فضولي .

ـ نعم ... نعم... كيف... ؟ لا ، الأمر بالأحرى هرج يضحك ... ماهذا الذي تقولين يا صغيرتي ؟... لم يحدث أبداً أن وعدت بهذا... ستتحققين فيما بعد بنفسك ... جيل ؟... إنه « زوج ـ سكرة »... نعم... تخيّلي أنني

حتى هذه الساعة ، مازلت في مشمل غرفة النوم ، أتسكع... كيف ؟... نعم... وهو كذلك ، قبّليهن عني ... إن كنت سأذهب معكنّ يوم الأحد الى السينما ؟ آه! لا ، وبعد ؟... شكراً جزيلاً!

واضطر جيل لأن يحدث صوتاً كي تسمعه :

ـ وداعاً يا صغيرتي ... أعتقد أنه عاد ...

وصوت آلي في جهاز الهاتف . وكان باب غرفة الاستقبال قد ترك مفتوحاً ، واندفعت أليس ناحية زوجها ، ملقية بذراعيها حول عنقه .

وأوضحت ، مع لذعة ارتباك خفيفة جداً في الصوت :

ـ إنهن الرفيقات كلمنني على الهاتف :

وترجم هو كلامها على أنها هي التي على الهاتف طلبت صديقاتها اللواتي يعملن في مؤسسة « پوبليكس » .

ـ لا أخبار سيئة على الأقل ؟...

ـ ليست أسوأ من المتوقع . لا ...

ـ إنك مبلل... اذهب بسرعة لخلع معطفك ... مارت!... ستقدمين الكاكاو والحلويات ...

وكانت عملت على إعداد وقعة العصر الخفيفة ، العصرونية ، على طاولة صغيرة مستديرة السطح . ولاحظ أيضاً أنها قد غيرت أمكنة عدد من الأشياء ، وعلى الطاولة سكائر شرقية لم تكن عليها هذا الصباح عند مغادرته البيت . لابد أنها أرسلت الخادمة لشرائها .

ـ ألا يزعجك أن أدخن ؟...

ـ لا يا حبيبتي ...

ـ حتى لو كلفك ذلك مبلغاً مرتفعاً ؟... أنت تعرف ، فثمن العلبة اثنان وعشرون فرنكاً ونصف .

وإذ ذاك ، وهو يراها تتولى دور السيدة ، تملكه شعور بتبكيت الضمير . اغتاظ من نفسه لأنه لا يظهر فرحاً وحناناً أكبر ازاءها ، بل لام نفسه حتى على مشاعر قلقه السرية .

ـ لم أشعل المصابيح ولا أغلقت النوافذ . هكذا أحب الأمر عندما تمطر ، بينما ينعم المرء في البيت بدفء هانئ ، وأنت ؟

وجرت تأوي الى أريكة ، متجمعة على نفسها ، وتبعها هو إليها . كانت تلك ، أصلاً ، ساعتهما ، تلك التي طوال ثلاثة أشهر التقيا فيها في الحديقة العامة الكبيرة .

ـ هل تتخيل يا جيل كم يمكن للأمر أن يكون بهيجاً في مثل هذا الطقس ؟... أنت مسرور على الأقل ؟...

ـ مسرور ...

وبقي ملتصقاً يحسّ لحمها الحار على خدّه . كانت قد تعطرت ، ولم يكن يجرؤ بعد على أن يصارحها بأنه لا يحب العطور .

وبدأت مارت ، وهي بالمئزر الأبيض ، تصب الكاكاو ، وقربت منهما الطاولة المستديرة التي تنزلق على عجلات .

ـ انتظر ... سأشعل المصباح الصغير الذي على البيانو ... وبعاكس ضوئه الزهر ، فهو سيجعل الجو حميماً أكثر أيضاً...

وهبّت ، بالحيوية الخاطفة التي لحيوان فتيّ ، كاشفة في كل حركة من حركاتها جسدها الشاب ونافد الصبر...

ـ كثير من الكاكاو ؟... قطعة كاتو بالكريما أو من دون كريما ؟

وعندما صارت مجدداً بين ذراعيه وشعرها يدغدغ خده ، فإنه ترك نظرته تسرح في غرفة الاستقبال .

كانت قطع الأثاث قديمة ولامعة ، والستائر والسجادة قد حال لونهما . وتذكر غرف استقبال متشابهة كلها ، كان يسترق نظره

إليها أحياناً ، في الشتاء ، في المدن ، في الساعة التي لا يكون جرى بعد فيها رد الأغلاق الخشبية على النوافذ . وكان يلقي نظرة خاطفة عليها ، ثم يعود الى غرفته في الفندق ، أو هو يعود الى الكواليس التي تغمرها تيارات الهواء في أحد مسارح المنوعات .

ولاحظت أليس : ـ أنت لا تتكلم .

ـ إنني أهنأ بالراحة ...

وكان ذلك صحيحاً . وهو ما يزال يفكر أيضاً . يظل يفكر ، وحتى وهو صغير ـ كان غلاماً شاحياً ونحيلاً ولكن لا يمرض أبداً ـ قالوا عنه :

ـ إنه يفرط في التفكير .

ولم يكن ذلك ذنبه . فمن الذي كان يمكنه أن يلعب معه ؟ واذا اتفق ، مصادفة ، أن توقف أبواه لعدة أشهر في إحدى المدن أو وضعاه في مدرسة ، فإنه في معظم الأحيان لم يكن يفهم لغة رفاقه في الصف . كما أنه يرتدي ملابس مختلفة الزي عما يرتدون . وعاداته غير عاداتهم . إنه كان : الغريب الأجنبي .

ثم يرحلون مجدداً ، ويتكرر الأمر في مكان آخر من أوله . لم يكن يلتقي إلا أشخاصاً كباراً في السن . إنما لم يكونوا أشخاصاً كباراً كالآخرين ، لهم بيتهم ، وعائلتهم ، ويعيشون بحسب ما تقضي الأصول به .

كانوا يتناقشون في العقود ، ووكلاء العمل . وبخاصة وكلاء العمل ، أولئك الناس الذين يكذبون ، ويغشّون الفنانين ، ويسرقونهم ، والذين يجد الفنان نفسه مرغماً معهم على إبداء اللطف...

ـ بماذا تفكر ؟...

ـ بكِ...

وكان ذلك صحيحاً تقريباً... إذ كان يفكر بأليس أيضاً... فلأنه عاني طوال حياته من الفقر ، ولأنه سمع طوال الوقت الكلام يدور عن المال ، فقد ظن أن فتاة صغيرة فقيرة ستكون بشكل ما من الفصيلة نفسها التي ينتمي هو إليها .

لقد اعتقد ، مثلاً ، أنه سيكون هانئاً تماماً وكأنه في بيته ، في المساء ، في البيت الصغير في زقاق جوردان . وقد ذهب الى هناك في الليلة الفائتة فوجد نفسه في أرض غريبة ، بقدر الغربة التي وجد نفسه عليها عند خالته إيلوا .

وقبل قليل ، نطقت أليس بكلمات ...

« هرج يضحك »... « عريس ـ سكرة » .

وبذل جهده كي لا يصدق ذلك . وهو ، الذي كان على خطأ . فهي ، إنها على ما هي عليه . كما هي . وقد تزوجها .

ـ متى اشتريت الكمان ؟... لم يكن معك واحد وأنت تنزل من مركب الشحن النرفيجي ، أليس كذلك ؟ إنني رأيت واحداً قبل قليل على رف الخزانة الجدارية ...

لا! لم يكن كمان والده ، الذي اضطر لبيعه في ترونديهم مع أشياء أخرى ، كي يسدد نفقات الدفن . هذا الكمان الأخير ، اشتراه قبل أسبوعين ، ولم يعزف عليه إلا مرة واحدة ، هناك فوق ، في غرفته .

ـ ألا تريد أن تعزف شيئاً لنا يا جيل ؟

وفعل ، في نصف الظلمة ، وحدقت هي اليه بإعجاب جديد .

ـ هل تعزف على البيانو أيضاً ؟...

ـ وعلى الكلارينيت ... وحتى على الساكسوفون ...

وذهب لإحضار هذه الآلات التي اشتراها هدية لنفسه . وعزف ألحاناً من السيرك ، من تلك الألحان العزيزة على قلوب المهرجين الموسيقيين ، أو أيضاً تلك التي ترافق عروض لاعبي الخفة . فمرات عديدة ، عندما كان صغيراً ، ويطرأ ثقب في البرنامج ، ظهر على المسرح ، مرتدياً حلة بحار ذات ياقة كبيرة على ظهره ، بيضاء ومطرزة الحافة .

وكان يتقن أيضاً أشياء أخرى . وهي ليست من تلك التي يعلّمونها للأطفال عادة . وهكذا ، فإنه كان يعرف تقريباً كل أدوار وخدع أبيه في إخفاء الأشياء ، وكانت يداه الطويلتان الشاحبتان تخدمان غرضه على خير ما يرام .

ـ انظري ... ها قد أخذت الملعقة... إنها في يدي أليس كذلك ؟... هل أنت على يقين ؟... حسن . لا ... فيدي خالية ، والملعقة موجودة وراءك على الأريكة ...

وكان يضحك ... ويظهر بعض لهب على خديه ، مثل الأطفال الذين يهتاجون عند اللعب فلا يعودون يشعرون بأنفسهم . لم تره أليس هكذا أبداً من قبل .

ـ واحدة أخرى...

ـ يلزمني ورق لعب...

ـ يوجد ورق لعب في غرفة الطعام ...

وبين ذهابها لإحضار علبة الورق وعودتها ، عزف على الكلارينيت لحناً شيطانياً يعرفه جميع مهرجي العالم . كان سعيداً ، ومع ذلك غمرت الدموع عينيه ، إنما هذه ، لم تكن دموع حزن .

ـ أيضاً !

ـ اختاري ورقة ... لا تظهريها لي... أعيديها أنت نفسك الى

الكدسة واخلطي الورق ... والآن أراهن على أن الورقة التي اخترتِها هي في خفّك...

وفي غمرة حماستها ، قامت إليه وقبلته ملء شفتيها ، ثم أخذت في التهام الكاتو وهي تطلب :

ـ المزيد ! ... اعزف لي الآن على البيانو ...

وبين حين وآخر ، كانت عصفة ريح تهز الأغلاق الخشبية للنافذة . ومياه الأحواض تتلاطم بفعل ارتداد الأمواج بهوج ، فيلطخ رذاذها الأرصفة . وكانت المراكب الراسية يرتطم بعضها ببعض ، ويقوّس المارة ظهورهم ، ويحاولون الاحتفاظ بمظلاتهم بعكس اتجاه الريح .

وطوال ساعتين ، لم يفكر جيل لا بعمه موفوازان ولا بزوجة عمه كوليت . وبالمقابل فإنه فكر بأبيه وأمه ، وبالغرف التي كان أقام فيها ، واستعاد فجأة الذكرى المبهمة التي مرت به وهو يفتح باب البيت قبل قليل .

حدث ذلك في مدينة صغيرة في هولانده ، أزقتها مبلطة بالآجر ، ومراكبها الصندل الراسية ، الموسوقة الواحد بعد الآخر ، يداني ارتفاعها ارتفاع المنازل نفسه تقريباً . كان الظلام سائداً ، وهو يمسك بذراع أمه . وكانت هذه قد دخلت الى حانوت لبيع اللحوم ، وبما أن العادة في محلات البيع الأخرى هي أن تقدم له قطعة سكاكر ، فإن بائعة اللحم مدت له قطعة دهن نيئة وقالت :

ـ اعزف لي ثانية لحن الكلارينيت ، إنه... تعرف ، ذلك الذي ...

وكان قد بدأ عزف لحن الكلارينيت ، عندما سُمع على باب الغرفة نقر خجول . وقطع من فوره العزف . وفُتح الباب ، ودخلت كوليت قادمة من الخارج ، وثياب حدادها ملتصقة بجسمها ، والحذاءان وجورباها مغطاة كلها بالوحل . وتمتمت :

ـ عفواً ، إنني أزعجكما أليس كذلك ؟...

ـ طبعاً لا ...

ـ الساعة هي السابعة والنصف ، وخطر لي ...

ـ يا إلهي ! وأنا التي لم أرتد ملابسي بعد! ألست ساخطة عليّ يا سيدتي ؟... حتى ولا أعرف إن كان العشاء جاهزاً...

ـ خففي عنك ملابسك يا امرأة عمي ...

وأخذت تتطلع بدهشة إلى الأدوات الموسيقية ، وإلى أوراق اللعب المبعثرة على الطاولة ، وقبعة عالية استخدمها لأداء بعض أدوار الاخفاء . كان هنالك بعد قدحان فارغان وقطع كاتو على الطاولة المستديرة ،ووسائد الأرائك محتفظة بآثار الأجسام .

ـ أمصرّان أنتما فعلاً على أن أبقى ؟

وفي النظرة التي رمت جيل بها ، يحس المرء أنها كانت راغبة في أن تكلم جيل ، ولكنها لا تجرؤ على أن تفعل ذلك بحضور أليس .

وأعلنت هذه وهي تثب باتجاه المطبخ :

ـ سأرى ما إذا تم مدّ الطاولة للعشاء .

عندئذ قال بصوت منخفض :

ـ هل كنتِ في الخارج طوال اليوم ؟

لم يكن ذلك سؤالاً فقط . وإنما فيه ما يشبه ظلاً من لوم في صوته ، لأنها ذهبت منذ الصباح الباكر من دون أن تقول له أي شيء ، وبقيت خارجاً حتى هذا الوقت المتأخر .

وأوضحت ، وهي تنزع عنها معطفها وتخلع قبعتها :

ـ ذهبت الى نيول ...

وأعلنت أليس مع عودتها :

ـ يمكننا أن نجلس الى المائدة . وكانت الخادمة على وشك أن تنطق بـ : السيدة ، جهزت خدمتها ...

وكانت تلك أول وجبة طعام يتناولها ثلاثتهم وهم معاً ، نظراً لأن كوليت لم تظهر على الغداء . كانت غرفة الطعام أوسع من التي في الطابق الثاني ، وأغنى أيضاً . فعلى الجدران ، تقع العين على لوحات بصور أسلاف ، هم أسلاف الكونت دو ڤيڤر ، لأن أوكتاف موڤوازان كان اشترى المنزل بوضعه القائم كما هو ، بما في ذلك اللوحات العائلية :

ـ حسناً ، سيدتي ...

ـ كنت وعدتني بأن تناديني يا عمتي ...

ـ إذن ، يا عمتي ...

كانت أليس تبذل جهدها لتكون لطيفة ، وشعر جيل بالامتنان لها .

ـ هيا صبّي لنفسك .. لكن بلى ، أريد أن تصبّي الأولى لنفسك ... يقول من يراك إنه رغم هذا الطقس السيء فإنك قد خضت في بريّة ...

وكررت :

ـ ذهبت الى قرية نيول ـ على ـ البحر ...

وترددت . بدت وكأنها تسأل جيل إن كان عليها أن تتكلم . قالت أخيراً :

ـ طوال الليلة الماضية ، قضيت الوقت وأنا أفكر بالصندوق الحديد ...

وشرح جيل الأمر لزوجته .

ـ وما الذي يحتوي عليه ؟

ـ لا أحد يعرف بالضبط ... وثائق هامة ولاشك ... ولو أن هذه

الوثائق معنا ، فلربما أمكن إقناع بعض الأشخاص بأن يغيروا موقفهم...

ـ آه ...

لم يكن ذلك يهمها ... وأومأ جيل لزوجة عمه كي تتابع :

ـ تذكرت أن موڤوازان كان في كل أسبوع تقريباً يأخذ السيارة ويذهب فيها الى الريف ... لم يكن أبداً يأخذ أحداً معه ، ما عدا اللهم سائقه جان ، والذي يقود إحدى سيارات السفر ... نزلتُ باكراً لأسأل جان ... ولقيت الأمرّين كي أجعله بشق النفس يتكلم ...

وأوكتاف موڤوازان ، لقلة تنقله ، لم يكن عنده إلا سيارة عائلية هرمة ، وبما أنه لم يعد يقود بنفسه ، فإنه أرغم على اللجوء الى جان .

وعلمت في النهاية أن موڤوازان كان يذهب ليرى في نيول ابنة خالة له تقيم في البيت الذي ولد فيه ...

وأخذ جيل ينظر بدهشة مفعمة إعجاباً الى هذه المرأة بالغة الهشاشة التي تبدي هذا القدر من بأس العصب في إنقاذ عشيقها .

وهكذا ، فهي رغم كونها على يقين تقريباً من أنها ستُستقبل استقبالاً سيئاً ، ذهبت الى نيول ، و...

ـ لماذا لم تطلبي إليّ أن أوصلك الى هناك بالسيارة ؟

وما كان له أن يقول ذلك ، فقد رمته أليس بنظرة مستاءة .

ـ لم يكن يوماً مما يمكن أن أشركك فيه بتقديم معونة... أخذت الحافلة... وابنة الخالة لا تدعى موڤوازان ، وإنما هنريكيه... إنها زوجة ساعي البريد...

وضغطت أليس على الإجاصة الكهربائية إشارة الى الاستمرار في تقديم الطعام وأثبتت نظرها على غطاء الطاولة بضجر . عاد جيل ، على العكس ، بعد ذلك الفاصل القصير في نهاية بعد الظهر مع

زوجته ، لتستولي المأساة عليه ، التي وجد نفسه غائصاً فيها حال وصوله إلى الـ : روشيل .

عدة مرات ، شعر بالرغبة هو أيضاً في أن يذهب الى نيول ، حيث ولد أبوه . البارحة أيضاً ، كي يذهبوا إلى إيسناند ويعودوا منها ، مروا بالقرية كذلك .

وتابعت كوليت :

ـ إنها امرأة طيبة.. عرفتني على الفور... ورغم هذا ، فإنها أدخلتني وقدمت لي كأس مشروب پينو ، من عصير العنب والكونياك ... ويبدو أن موفوازان قد وعد دائماً بأن يترك مالاً لأطفالها ... عندها ستة منهم .

كانت أليس تبذل الجهد كي لا تدع نفاد صبرها يظهر . فكل هذه القصص عن موفوازان تضجرها ..ولكن جيل كان مستغرقاً في أفكاره بأكثر من أن يفطن لحالها .

وقد حدث كثيراً في الليل ، أن جلس في غرفة نوم عمه ، في مكان هذا الأخير ، أمام المكتب ذي الدرج المستور . وهناك ، طوال ساعات ، كان يبذل جهده كي يفهم .

وما من أحد أراه صورة شخصية لأوكتاف موفوازان الذي كان يمقت المصورين . وهو بالضبط اذا ما وجد ، عند خالته إيلوا ، صورة جماعية تمثل الأخوين موفوازان ، أوكتاف وجيرار ، في فترة كان الأكبر عمراً منهما في حوالي العاشرة . وكانت الصورة قد حال لونها الى شحوب ، والوجوه فيها مهزوزة الملامح . كان والد جيل هو الأطول قامة بين الاثنين ، لكن يحس المرء أن الإرادة منذئذ كانت الى جانب أوكتاف ، ذي الوجه الكثيف ، والقامة القصيرة البدينة .

ما الذي كانته في الحقيقة حياة هذا الرجل ؟ إن أبوي جيل ، وهما ركضا طوال حياتهما وراء قليل من المال ، ووراء قوت يومهما ، تلحّ عليهما مشاكل الأحذية واجبة الترقيع أو الملابس التي ينبغي شراؤها .

أما هو ، فوحيد في منزله في رصيف الـ « أورسولين ...

ما الشعور الذي خضع له وهو يتزوج كوليت ؟... ما الذي كانت عليه علاقاتهما ؟... هل نشأت بينهما في أي يوم علاقة حميمة حقيقية ؟...

وأشاح جيل بنظرته . هل سيدوم مثل ذلك الشعور بالانفراد الحميم بينه وبين أليس ؟...

وتابعت زوجة عمه :

ـ ألا أضجرك يا أليس ؟...

ـ طبعاً لا يا عمتي !...

ـ كان موفوازان يأتي فعلاً في كل أسبوع لعند ابنة عمه هنريكية ، وقد تساءلت هذه كثيراً لماذا ؟... فهي تقيم في بيت على طريق البحر متداع بما يكفي ... ويعرف أهل القرية السيارة التي كانت تتوقف على حافة الطريق بينما يبقى جان وراء المقود يقرأ جريدة... كان موفوازان يدخل ، ولا يكبد نفسه أبداً ، على ما يبدو ، عناء أن يقبل الأطفال " بل يكاد يعتقد المرء أنه لم يكن يراهم... فقط ، وعندما يحدثون كثيراً من الجلبة ، كان يعقد حاجبيه فتدفعهم أمهم لخارج البيت... لم يكن يجلب معه لا سكاكر ولا شوكولا ولا ألعاب ، حتى في حوالي عيد الميلاد ...

كان جيل منصرفاً الى مشهد يعيشه . لدرجة أنه نسي أن يتابع طعامه ، ولأول مرة ، تبنّت أليس الابتسامة المذعنة التي للزوجات .

ـ كان يقول وهو داخل :

« ـ على ما يرام يا هنرييت ؟

« ويجلس أمام الموقد على مقعد من القصب أُصلح شأنه بواسطة خيوط التخريم المتينة... ويبدو أنه مقعد أبيه القديم ولم يشأ أن يغيروه .

« كان يشعل غليوناً أو سيكاراً... ويحتفظ على رأسه بالقبعة المكورة...

« وإذا ما تظاهرت ابنة عمه بالتخلص من العمل الذي بيدها ، أمرها قائلاً :

ـ تابعي ما كنت تعملين ...

« صار ذلك عادة... ومرات كثيرة ، عندما يأتي على ذلك النحو ، كان لا يجد أحداً في المنزل... وهذا لم يمنع أن السيدة هنريكية كانت تجده في مكانه عند دخولها ، لأنه كان يعرف النافذة المطلة على البحر التي لا تغلق جيداً...

« لم يكن يتكلم تقريباً... وأحياناً يطرح أسئلة في غاية البساطة :

ـ كم موتنت فاصولياء هذا العام ؟

« أويهتم بالأرانب ...

« تساءلت يا جيل إن لم يتحدث عن أعماله أبداً...

فشيء في غاية الندرة إنسان لا يتكلم إلى أحد! » .

أليس الشاغل نفسه هو الذي كان يشغل بال جيل عندما يمضي الى غرفة عمه ويجلس فيها ؟ كان يبدو له هو أيضاً ، أن في هذه الكتلة ، اللاإنسانية كقدر مقضي ، شرخاً ما .

حتى هوى المال والسلطة التي يمنحها ، ما كانا يفسران في عينيه

تلك الوحدة المتوحشة ، وذلك الغياب لكل استرخاء أعصاب ولكل استسلام في حياته .

وها هو ذا ، بفضل حدس كوليت ، تم اكتشاف لحظات استسلام موڤوازان . كان يذهب الى هناك ، الى الكوخ الذي ولد أبوه فيه ، وحيث قضى طفولته . كان يجلس على مقعد والده ، لا يقول شيئاً ، لا يفعل شيئاً ، مشاركاً لمدة ساعة أو ساعتين أسرة فقيرة حياتها .

ومع ذلك ، فإنه ذات مرة ، وتتذكر هنرييت ذلك ، على الرغم من أنها لم تفهم الأمر أبداً...

ـ خسارة فعلاً أن أطفالك اسمهم ليس موڤوازان ...

فهو ولاشك كان سيجعل منهم ورثته ، بدلاً من أن يترك كل ثرواته لابن أخ لم يسبق له أن رآه أبداً...

ـ وهنا جيل ، أما من جديد ؟...

ـ لا شيء هام...

ـ واستخراج الجثة ؟...

ـ أعتقد أن نعم ...

كانا قد انتهيا من العشاء ، وزوجة عمه قد نهضت ...

ـ أطلب منكما الصفح إن أنا أتيت وأزعجتكما على هذه الصورة... أؤكد لك يا جيل أن الأفضل هو أن أتناول أنا طعامي في الأعلى فوق ، كما في الماضي ... لشد ما أنا معتادة على أن أكون وحيدة ...

ولكن جيل هز رأسه بعناد .

ـ كنتما تقضيان وقتاً ظريفاً عندما وصلت !... هيا !... آن الأوان لأصعد ... طاب مساؤك يا أليس ... مساء سعيداً يا جيل...

وكان ينتظر اللحظة التي يتناول فيها في يده يدها المحرورة

دائماً . ثم ، بعد أن ذهبت ، ساد صمت . وزفرت أليس . ونظرت إليه وهو واقف وسط غرفة الطعام ، ولعلها أحست بشكل مبهم أنه في ذهنه ، كان يتبع زوجة عمه على الدرج ، وأنه قد صار هناك فوق وعاد للاستغراق في قصص موقوازان .

ـ هل ستعزف لي بعض الموسيقى أيضاً ؟

ووثب على المناسبة ، جلس الى البيانو ، وأطلق أصابعه الطويلة تتيه على ملامس المعزف ، وسرعان ما أخذت ترن في غرفة الاستقبال جمل شوبان الحزينة أو متقدة الهوى .

لم يجرؤ هذه المرة على أن ينهض من السرير قبل زوجته ، وبما أنه يستيقظ باكراً ، فإنه ظل يحدق بنظرة ثابتة إلى خطوط الضوء المكفهر تحز عرضاً الأغلاق الخشبية التي ما تزال الريح تهزها . وسمع قرعاً على باب البيت ومارت وهي ذاهبة تفتح ، والزائر الذي صعد مباشرة الى الطابق العلوي حيث لم يتأخر إلا لحظات .

وأخيراً ، مدت أليس في إغفائها نصف النائم يدها ، فالتقت جسد زوجها وابتسمت . وتمتمت بامتنان :

ـ أنت هنا !

ثم استيقظت كلياً .

ـ أشعل النور يا جيل... يقول المرء إن العاصفة مستمرة ... ماذا لو تناولنا الإفطار في السرير ؟... كان حلمي دائما أن أتناول إفطاري في السرير ، ولكن والدي لم يكن يقبل... عندئذ ، كان علي أن أتظاهر بالمرض... اقرع لطلب مارت يا جيل من فضلك .

ولم يملك الشجاعة لأن يخيبها . ومع ذلك ، فإنه تضايق من أن تلك الفتاة التي لا يعرفها ستراه وهو في السرير مع زوجته .

ـ ماذا سنفعل اليوم ؟... أتعرف ما الذي فكرت فيه وأنا أستسلم للنوم... سنأخذ السيارة ونمر على جميع المتاجر ... لقد جهزت مقدماً قائمة بالحوائج التي تنقصنا ...

كان يسمع السيدة رانكية تذهب وتجيء فوق رأسه .

ـ من الذي قرع الجرس قبل قليل ؟

ـ ساعي البريد يا سيدي ، مع رسالة مسجلة للسيدة موفوازان .

وفطنت إلى أنه قد ينشأ اختلاط ، فحدّدت بسذاجة :

ـ للسيدة موفوازان التي فوق .

ولم يتيسر لجيل الصعود لعند زوجة عمه إلا بعد نصف ساعة ، بينما انصرفت أليس الى ترتيب هندامها . كانت قد أعدت نفسها . ومدت له الكتاب الرسمي الذي تلقته في الصباح .

كان قاضي التحقيق يعلمها فيه أن استخراج جثة أوكتاف موفوازان قد تقرر ، وأن ذلك سيتم في اليوم التالي في الساعة العاشرة في المقبرة ، ويصرح لها بأنها يحق لها أن تحضر الأمر أو تنتدب ممثلاً عنها .

ـ ٦ ـ

يوم الأحد بعد الظهر ، بالنظر لانهمار المطر ـ أُعلن أن العاصفة لن تنتهي إلا مع القمر ـ ذهب جيل وأليس الى السينما . وكانت عصابة البنات ، كما تدعو أليس رفيقاتها ، حاضرة هناك ، يجلس أفرادها أمامهما ببضعة صفوف ، كما جلس عدد من الفتية وراءهن وهم متكئون بألفة على مقاعدهن .

وأكثر جورج ، الذي كان واحداً من الجماعة ، من الالتفات ناحية الزوجين . زاخر الشعر بزيت يلمعه ، حاجباه أسودان ، ولون بشرته كامد بلا لمع ، وفي عينيه النظرة الهجومية لفتى يعتقد أنه جميل . هل تراها ، بقصد غفران تلك القبل التي لانهاية لها في الحوض البحري ، دسّت أليس يدها في يد زوجها ؟...

كوليت ذهبت لعند أمها في زقاق إيفيسكو . ذات مرة ، لمح جيل الأم وهي تشتري الحليب من البائعة . إنها امرأة بدينة ، محيط جسمها غير محدد الخطوط لرخاوته ، كانت تتقدم نحو البائعة كأنها تطفو عائمة ، تحيط أقمشة سميكة بفخذيها البلغميين ، وجهها مستدير بدين وغائب اللون ، باللون ذاته الذي لشعرها ، وكانت

عيناها نجلاوين مثل عيني طفل ، وشفتاها الرخوتان قد سكنتا على ابتسامة طوباوية .

وسألت أليس :

ـ أما زلت تضمر غيظاً مني ؟...

ـ بشأن أي شيء ؟

ـ بسبب جورج... تعرف ، أمر جورج كان فقط بقصد متعة أن أنتزعه من لينيت .

الآخرون أمامهما ، كانوا يحدثون جلبة عظيمة . وفي عتمة الصالة ، كانت النظرة تلاحظ الرؤوس حين يلتفت أصحابها الواحد نحو الآخر وجهاً لوجه ، وكذلك الوشوشات .كن يجدن في أي شيء ما يستثير تسليتهن ، ويلتفتن ناحية الزوجين ، وهكذا ، فوجئ جيل تماماً وهو يكتشف ما كانته زوجته قبل بضعة أيام لا أكثر .

وهمست ، إذ أحست ضغط يده طويلاً وبحنان :

ـ هل تحبني ؟...

عندما خرج الناس وهم يدفع بعضهم بعضاً ، دخلا إلى « كافيه لاپيه » ، مقهى السلام ، حيث وجدا بصعوبة مكانين لهما ، فقد كانت تلك ساعة تناول قدح فاتح الشهية . كانت أليس شديدة الحيوية ، فهي المرة الأولى التي تظهر فيها أمام كل هذا الجمع من الناس وهي مع زوجها ، شاعرة بأنهم ينظرون اليها ويتبادلون التعليقات بشأنهما .

ـ أنا ، سآخذ قدح پورتو... في كل أيام الآحاد ، كنا نتناول أنا والبنات پورتو بعد السينما...

والنساء ، في غالبيتهن ، كن في معاطف مبطنة بالفرو . أما الرجال ، فبثيابهم ليوم الأحد ، يحسّون نفسهم أكثر ثقة بالنفس مما

في الأيام الأخرى . لكن لم يكن بينهم أحد ممن يعرفهم جيل ، أي من الأشخاص المهمين في المدينة...

فأولئك لا يظهرون في المقاهي . بل يعيشون في منازلهم الخاصة ، وربما لا يذهبون الى السينما .

والذين يقع النظر عليهم هم التجار الصغار ، والمحاسبون ، والموظفون التجاريون ، والمندوبون التجاريون ، ووكلاء التأمين ، وكان بعض المستخدمين في مؤسسة موڤوازان للسفريات ينهضون نصف نهوض محرجين لتحية رب عملهم .

وفي حوالي السابعة ، عاد الزوجان الى منزل رصيف الـ : أورسولين ، يتأبط كل منهما ذراع الآخر في الطريق ، متلاصقين تحت المطر . وعند مرورهما أمام مشرب لوران ، تحركت الستارة الكريم ، ثم وبعد أن قطع جيل وزوجته بضع خطوات أخرى ، فُتح الباب ، وارتفع صوت منادياً :

ـ سيد موڤوازان ...

كان ذلك هو بابان ، واقفاً على العتبة وبين أسنانه سيكار ، وانحنى أمام الشابة التي ما تزال متعلقة بذراع زوجها :

ـ المعذرة يا سيدتي .

ثم ، ملتفتاً الى جيل ، ومن دون أن يدعوه للدخول :

ـ كنت أريد أن أقول لك هذا... يحتمل أنك الليلة ستحتاج لأن تكلمني ... في هذه الحال ستجدني حتى منتصف الليل عند أرماندين... تتذكر العنوان ٢٧ ، شارع الـ : ميل ...

وبعد تحية وجدها جيل ساخرة ، عاد الى المشرب الذي كان يقوم مقام مقر قيادة بالنسبة اليه .

ـ ماذا قصد ؟...

ـ لا أعرف ...

وبضع لحظات عقب ذلك ، كان جيل يولج المفتاح في قفل باب منزله في الـ : أورسولين ، مشغول البال ، ويساوره بعض القلق . وأخذت أليس تنفض جسمها وهي تصعد الدرج ، ونزعت قبعتها التي أخذت تسقط منها حبات المطر العالقة بها .

كانت السيدة رانكية تنتظرهما على موزع الطابق الأول :

ـ سيد جيل ...

وترددت في أن تتكلم أمام الشابة ، التي تابعت طريقها باتجاه غرفة النوم كي تتخلص من ملابسها المبللة .

ـ كنت أود أن أقول لك كلمة قبل عودة كوليت ... تلقيت للتو رقعة من أخي... وبسبب من مركزه في الشرطة ، فهو يفضل ألا يأتي بنفسه بعد الآن ، لأن ذلك قد يجر عليه متاعب ... إنه يرغب في مقابلتك... وهو يطلب ، إن أرضاك هذا ، أن تذهب هذه الليلة الى بيت حمويك ... ونظراً لأنه يقيم في زقاق جوردان على مسافة بيتين من منزلهما ، فسيكون سهلاً عليه أن يوافيك من دون أن يلحظه أحد... كتب في نهاية الرقعة أنه قد أخطر السيد لوپار وأن هذا هو بانتظارك ... وأرى ، من ناحيتي ، أن الأفضل عدم إعلام كوليت قبل معرفة ما الأمر ، فهي متوترة الأعصاب جداً حتى قبل ذلك .

وعادت هذه في السابعة والنصف ، وجلس الجميع الى الطاولة . لقد بدأ البيت تستقر عادات له . وكوليت ، كي تتفادى إزعاج أليس بمشاكلها ، توجهت الى أليس وطلبت اليها أن تروي لها فيلم بعد الظهر .

ثم ، على غرار ما يفعل رجل وزوجته مضى زمن طويل على زواجهما ، ارتدى الاثنان ملابسهما وخرجا ، قطعا المدينة ،

يصفعهما الريح والمطر الذي كان له رجع مذاق ملح بسبب الرذاذ المنتشر من تحطم الأمواج والذي خالط المطر ، وبدلاً من قرع الباب ، نقرت أليس على علبة البريد ، مثلما كانت تفعل وهي فتاة صغيرة بعد ، وأبوها هو الذي جاء لفتح الباب لهما .

تخلصا مما عليهما أمام المشجب الخاص بالمعاطف ، وعلى الفور اندفعت أليس باتجاه المطبخ الذي كان بابه الزجاجي يُرى في صدر الدهليز ، بينما أُدخل جيل الى غرفة الاستقبال .

وعلى الرغم من أنهما أُخطرا في وقت متأخر ، فإن الزوجين لوپار لم يدعا الأمر من دون إعداد صينية للمشروبات ، عليها كؤوس صغيرة مذهبة الحافة وحلويات من منوعات الكعك جافة . كان إيسپري لوپار بالأسود الرسمي كله ، شأنه في كل يوم أحد ، صدارته منشّاة ، وصلعته تلمع تحت المصباح ، بينما حاجباه الكثيفان وشارباه الغليظان يجهدان بلا جدوى في أن ينزعا عنه سيماء الرجل طيب القلب ، المتواضع والكادح .

... طلب إليَّ السيد رانكية أن أذهب وأقرع بابه حال وصولك . تفضل اجلس أرجوك... ستخدم بحرية نفسك ، أليس كذلك ؟

وسُمعت ضحكة أليس آتية من المطبخ ، ثم باب الطريق الذي تركه لوپار من دون إرتاج يُفتح ، ودخل پول رانكية مفتش الشرطة الى غرفة الاستقبال ، من دون قبعة ولا معطف .

كان طويل القامة ، رخواً وباهتاً ، ينتمي لصنف إيسپري لوپار ذاته ، أي لنوع الناس الصغار الذين تتمثل أفراحهم الوحيدة ، المشوبة بالمرارة ، في رضاهم عن الواجب الذي أدّوه ، بضمير ووجدان ، وبشرف متشدد .

وقد أشاعت هذ المقابلة السرية تشويشاً في نفسه كان يشعر بنوع من الخزي بسببها . ويبذل جهده ليعذر نفسه .

ـ إن أختي ، وترى أنت الأمر ، قد تعرض نفسها للقتل في سبيل كوليت . ولذلك ، وعلى الرغم من السر المهني...

وأراد لوپار أن ينسحب ، تكتماً منه ، وأن ينضم الى زوجته في المطبخ . فقال جيل له :

ـ عمي ، ابق . ليس في الأمر ما لا يمكن أن تعرفه ... أليس كذلك يا سيد رانكية ؟...

وبدأ هذا الأخير ، الذي كان يضفي عن طيب خاطر على مواقفه بعض الرسمية ، فأجاب بحركة تعني :

ـ أنت وحدك من يحكم في هذا ...

ولم تكن لديه الجرأة على أن يجلس على المقاعد الصغيرة المذهبة .

ـ هل أصب لك قدحاً صغيراً ؟...

وأخذ لوپار ، ولأن هذه هي العادة في الاستقبال ، يملأ الكؤوس الصغيرة .واقتضى الأمر بضع دقائق ريثما استقر كل في مكانه وسخن الجو :

ـ هاك يا سيد موڤوازان ... تعرف أن تشريح جثة عمك أجراه الطبيب ڤيتال ... سيقال لك إن ڤيتال هو من أصدقاء السيد پلانتيل ، وهو يتعشى عنده كل مساء يوم جمعة... إلا أن محامي السيد سوڤاجيه كان حاضراً... وأذكر لك هذا لأنه يستبعد بعض الفرضيات

لقد أُرسلت الأحشاء ، كما تعرف ، الى معهد الطب الشرعي في باريس... ولم يصل بعد تقرير مصدّق إلى النيابة العامة لمدينة الـ : روشيل . ولكننا بالمقابل تلقينا في مديرية الشرطة مخابرة هاتفية...

كان يمسك في يده قدحه الصغير ذا الحافة المذهبة ، غير عارف أين يضعه ، متردداً في أن يغمس شفتيه فيه .

ـ كنت في مكتب المفوض عند استلام هذه المخابرة الهاتفية ..وحرصت على أن أخبرك على الفور ... إن تحليل أحشاء السيد موڤوازان أدى إلى اكتشاف آثار هامة من الزرنيخ...

وحدق إيسپري لوپار بالأرض بنظرة ثابتة . وصوت أليس يُسمع من المطبخ وهي تزرزر ، لا يهدأ لسانها .

وسأل جيل :

ـ تقصد أن عمي قد جرى دس السم له فعلاً ؟...

ـ هذا ما يستخلص من التحليل ... ولئن أعلمونا أولاً ، فلأن التحقيق بهذه الواقعة سيتخذ أبعاداً أوسع...

وخطر لحظة أمام عيني جيل طيف زوجة عمه الخفيف .

وراوده لمدة لحظة ، وغار الدم من وجنتيه منسحباً منهما .

ـ لا أفهم كيف أمكن هذا...

ـ وأنا لا أفهم... منذ الغد سيجري بالتأكيد استجواب السيدة كوليت... فقد صدرت إلينا في الشرطة المهمة بإعادة بناء الصورة لحركات وسكنات أوكتاف موڤوازان خلال الأيام الأخيرة التي سبقت موته... وللأسف ، فإنه انقضت ستة شهور على ذلك... وسيكون العمل عسيراً جداً إن لم يكن خيالياً ... بكل الأحوال ، فالطبيب سوڤاجيه يستحيل عليه أن يدس السم شخصياً لعمك ، لأن الطبيب انقطع عن أن يطأ بعد بقدميه رصيف الـ : أورسولين ، ولم تعد له أية علاقة مع موڤوازان...

وتابع پول رانكية :

ـ أتسمح لي يا سيد جيل بأن أطلعك على رأيي ؟... لست إلا

مفتشاً صغيراً ، ولم أذهب طويلاً الى المدرسة... ولكنني أعرف جيداً مدينة الـ : روشيل ... وأتردد فيها على أماكن أنت لا تذهب إليها : المقاهي الصغيرة ، والخمارات ، وكل مكان يدور فيه كلام . والناس لا يحذرونني أكثر مما يجب...

«اعتقدت حتى هذه الليلة أنهم يسعون لأن يجعلوك تقرف حياتك ...

وكرر جيل محاولاً أن يفهم :

ـ أقرف حياتي ؟ .

ـ انه تعبير مستمد من الرياضة ... إذ عندما لا تكون هنالك إمكانية للانتصار على الخصم ، فإنهم يعرّضونه لعدد من القذارات الصغيرة بحيث يفقد برود أعصابه . ويشتد استنكاره فيفقد روحه المعنوية ... تعرف جيداً ، أليس كذلك ، أن في الروشيل عدداً معيناً من الأشخاص الذين قد يفضلون أن يروك تعيش في مكان آخر...

ورفع لوپار رأسه ، ونظر الى الرجلين بارتباك ، فهو الذي ظل طوال حياته مستخدماً صغيراً متواضعاً ، وقد أحرجه أن يرى نفسه بغتة منغمساً في شؤون أرباب العمل الكبار .

أما بالنسبة للمفتش ، فقد قرر أن يشرب جرعة من كأسه :

ـ لاحظ يا سيد موڤوازان أن عمك كان قد توصل لأن يشغل مكاناً هاماً ، بل ربما مفرط الأهمية في أعمال المنطقة ... ولا أعرف إن كان بمقدوري أن أسمح لنفسي ...

ـ تفضل ، أرجوك ...

ـ كان كل الناس يمقتونه ، الكبار والصغار سواء في ذلك... وما كان يمكن أن تجد في المدينة كلها شخصاً واحداً ليتكلم بالخير عنه . أما الصغار ، هم ، فلم يكن بيدهم أن يفعلوا أي شيء... ومع ذلك فإن

منهم من أرسلوا إلينا رسائل مغفلة يؤكدون فيها أن عمك ما هو إلا لص ومكانه هو السجن ...

كان لوپار مستعداً لأن يدفع الكثير مقابل أن يكون في هذه اللحظة في المطبخ مع أسرته ، ولم يفهم جسارة المفتش ، الذي لم يكن إلا رجلاً مثله ، ويسمح لنفسه بأن يتكلم على ذلك النحو...

ـ عندما رفع أسعار المقاعد في السيارات ، مثلاً ، قامت مظاهرة تقريباً ووضعت الشرطة حراسة على منزل رصيف الـ : أورسولين لمدة خمسة عشر يوماً... بل جرى قلب إحدى السيارات على طريق لوزيير مع محاولة لإضرام النار فيها ... سوى أنه ...

ـ سوى أنه ؟...

ـ خسارة أنك لا تعرف الـ : روشيل أكثر من هذا . توجد مسائل أفضل ألا أتعرض لذكرها ... فالذين يمقتون عمك أكثر الجميع لأنهم يخشون جانبه ، كانوا جماعة الـ : « سنديكا »... هل حدث وسمعت أحداً تكلم أمامك عنهم ؟...

وأجاب جيل بالإيجاب بحركة من رأسه . ثم ، وبعد صمت ، قال :

ـ هل تعتقد بأن أولئك السادة في الـ : سنديكا قد تخلصوا منه ؟...

ـ أرجوك يا سيد موڤوازان ، لا تنسب إليّ قول ما لم أقله ... السيد پلانتيل غير قادر بالتأكيد على ارتكاب جريمة ... والسيد بابان كذلك ... والسيد پونو ـ راتو هو عضو في مجلس الشيوخ والمحافظ صديقه الحميم ... والسيد هرڤينو هو ابن ... وإنك ترى ، لا أعرف كيف أعبر عما أريد ... ولئن صدقت ما يتردد في بعض المقاهي الصغيرة ، تكون أنت جئت في الظرف غير المناسب بالضبط ،

كشعرة تسقط في الحساء لحظة يهم المرء بتناوله ، اعذرني عن العبارة...

«يبدو أنك لم تشأ أن تفهم شيئاً ، وأنك ممن يطلقون عليه هنا تسمية : «غريب الأطوار» ... والناس عندنا لا يحبون غريبي الأطوار ... حتى زواجك ...

وحاول أن يستدرك ، فالتفت ناحية إيسپري لوپار وتمتم :

ـ أرجو منك المعذرة يا سيد لوپار ... ما قصدت قوله هو أن الناس كانوا يمقتون عمك... وعندما وصلت أنت لتتسلّم ميراثك ، وزعمت أنك ستعيش على هواك من دون أن تتبع نصائح أولئك السادة ... إنك غير مغيظ مني لـ ...

ـ أرجوك ...

ـ انتهيت تقريباً ... كنت اعتقدت أن كل هذه الحكاية عن استخراج الجثة وتلك الشائعات التي يروجونها إنما ترمي الى التخلص منك ... وإلى جعلك تقرف حياتك كما أسلفت لك قبل قليل ... فتذهب لتعيش في أي مكان ، حيث بملايينك ، وأولئك السادة ... نهايته!... أنت تفهمني ... وهذا هو السبب في أنني ذهلت عندما جاءت المخابرة الهاتفية من باريس ... ولئن كان عمك جرى حقيقة د س السم له...

ينبغي العثور على المذنب طبعاً ! وأوكتاف موڤوازان ليس شخصاً ، مثل زوجة الطبيب سوڤاجيه ، يدع نفسه يذوب على نار بطيئة ...

وفهم جيل الآن تدخل بابان المفاجئ عند باب مشرب لورآن وكلماته الملغزة . كان بابان على علم مسبق . كيف ؟ أهو المفوض الذي أطلعه ؟... وهل له أحد في باريس ليعلمه قبل أن تعلم سلطات الـ : روشيل ؟

ـ لعله ينبغي إعداد السيدة كوليت لما سيجري غداً . لاحظ يا

سيد جيل ! إن أختي لا يحدث كثيراً أن تخطئ... وقد لا تكون متعلمة كثيراً . لكن حتى وأنا صغير . لم يكن يجدي أن أكذب عليها... حسناً ! تؤكد أختي أن السيدة موڤوازان لا يمكن أن ...

أكثر الجميع انسحاقاً تحت الوطأة كان لوپار ، الذي تحول رزوحه تحت ثقل ما يسمع الى بلاهة بليدة . فهو ، الذي عمل طوال كل هذه السنوات بعناد هادئ وراء حاجز الزجاج ، هو الذي وقّر دائماً أرباب عمله ، أياً من كانوا ، بحكم أنهم أرباب العمل لا أكثر ، هو الذي إذا ما وقعت عيناه على أشياء غير نظيفة كان يرفض أن يصدق ذلك ، ها هو فجأة ، في اللحظة التي وُفقت فيها ابنته الى زواج ناجح...

لم يكن رانكية يجرؤ على إشعال غليونه المقوّس ، ذي الأنبوب الذي من عظم قرن ، وإنما ظل ممسكاً به في يده :

ـ ثق بخبرتي يا سيد موڤوازان ... إنها قضية ستبلغ بعيداً ، بعيداً جداً... أبعد من كل ما يظنه جميع الناس... لم تكن السيدة سوڤاجيه ترتاب وهي تسم نفسها ـ لأننا نفر في الاعتقاد بأنها سمّت نفسها ـ بالعواقب التي ستترتب على ما أقدمت عليه... أرادت أن تنتقم من زوجها... مجنونة أو تقريباً كذلك ، امرأة منكودة بكل الأحوال...

واستغلوا القضية ضدك ... فالسيد عضو مجلس الشيوخ پونو-راتو الذي لا يرافع إلا في القضايا الكبرى ، وافق على عرض شقيقة السيدة سوڤاجيه بأن يمثل الحق الشخصي... وربما أيضاً ، كان هو من عرض نفسه . فأولئك الناس ليسوا على شيء من غنى...

« وعندها بدؤوا يتهامسون... والأشياء التي لم يحدث أبداً أن نُطق بها مجرد نطق ، طفت على السطح...

« ساد إحساس بأن مؤسسة موڤوازان وقعت بها إصابة ، وبدؤوا لا يخافون منها...

«في هذه الأيام الأخيرة ، تلقينا عشرات من الرسائل المغفلة ، ... وبعضها... وسكت ، نادماً على أنه قد أفرط في الكلام .

ـ تكلم يا سيد رانكية ...

ـ أطلب عفوك ، لكن يفضل أن تعرف ذلك ...

ونظرة ، فيها حرج وضيق ، ناحية إيسپري لوپار .

ـ بعض تلك الرسائل يزعم مشاهدة ضوء في الليل ...

ـ أي ضوء ؟...

ـ أنت لا تعرف المحافظات يا سيد جيل... ما لا يعرفونه فهم يخترعونه ... ضوء كان يتحرك من غرفتك الى غرفة زوجة عمك ... بالمختصر ، يزعمون أنك وإياها ... ويستخلصون من ذلك استنتاجات... إنك خَلَف أوكتاف موڤوازان . هل ترى معي الأمر... وبمجرد أن خيل إليهم أن الفرصة سانحة لمهاجمتك ...

ـ وما الذي تنصحني بعمله ؟

ـ لا أعرف ... لا ، لا أعرف ...

إلا أنه كان يقولها بلهجة شخص عنده فكرته الخاصة والبرهان على ذلك أنه بعد تردده ، وبعد أن أشعل أخيراً غليونه ، إخفاء لارتباكه ، جازف ، هارب النظرة ، بقول :

ـ بديهي أنه ، «اذا ما شاء أولئك السادة» ... فهم يتساندون جميعاً أليس كذلك ؟ فإن لهم تأثيراً بعضهم على بعض... وهكذا ، فإن بوسعي أن أصرح لك بأن النائب العام ، في هذه الليلة ، يتناول عشاءه عند السيد پونو ـ راتو وأن الكاتب العدل هرڤينو ، رغم التهاب مفاصله ، أزعج نفسه...

ـ وإذا ما قُتل عمي ...

ـ أعتقد بأنه قتل ...

ـ أليس الأبسط هو اكتشاف القاتل ؟

واضطرب السيد رانكية على مقعده ، وزفر ، وسحب عدة أنفاس من غليونه . فقد تكلم بلا جدوى قرابة ساعة! إذ أن جيل لم يفهم! ومع ذلك فإن المفتش كان قد بذل كل جهده كي يضع النقاط على الحروف .

ونهض فجأة .

ـ بالتأكيد ... ولكن أهو القاتل الحقيقي ذلك الذي سيتم اكتشافه ؟... الآن ينبغي أن أذهب ... إذ يحدث أن يتصل في الليل رئيسي بي... وما لم يجدني في البيت ... كل هذا سيبقى بيننا ، أليس كذلك يا سيد موڤوازان ؟... وإذا ما علمت بجديد ، فلن أبعث برقعة مكتوبة الى رصيف الـ : أور سولين ، لأن ذلك صار على درجة بالغة من الخطر ، وإنما سأخطر السيد أو " ـدة لوپار ...

واقترح الحم آلياً :

ـ كأس صغير آخر ... لكن بلى !... ليس قوياً جداً...

وبقي جيل ووالد أليس وحدهما لحظة في غرفة الاستقبال الصغيرة ، من دون أن يعرفا ماذا يقول أحدهما للآخر . ثم فتح جيل الباب :

ـ أليس ؟

وهرعت إليه آتية من المطبخ . كانت أمها تتبعها .

ـ متاعب أخرى ؟

ـ لا أعرف ...

ونظرة منه ناحية إيسپري يوصيه بها بأن يلزم الصمت .

ـ ينبغي أن أذهب لأقابل شخصاً . خلال ساعة أكون عدت...

ـ إنها تمطر كأفواه القرب .

ـ لا أهمية لذلك...

كان ماء المطر يسح منه عندما بلغ حيّ الميل ، ولم يتذكر منزل أرماندين الذي لم يأت إليه إلا مرة واحدة ، يوم اختطفته المرأة ، اذا جاز القول ، نهار عيد جميع القديسين . واضطر لأن يشعل أعواد ثقاب كي ينظر الى أرقام المنازل . كان المنزل رقم ٢٧ بناء فاخراً صغيراً ، مغناجاً ، يرى المرء نوراً في نوافذ الطابق الأول أضيء وراء الستائر التي لونها زهر .

ولم يكد يضغط على زر الجرس حتى فتح الباب ، وكأنما كان ثمة من يترصد وصوله . وفي نصف ـ الظلمة في الدهليز ، بلغه صوت بابان الودي الآتي من القلب ، آت من القلب بشكل مبالغ فيه ، وهو يرميه بقوله :

ـ ادخل يا سيد موڤوازان ... كنت أنتظرك...

في الطابق الأول ، قامة تطل من فوق الدرابزين .

ـ أعطني معطفك وقبعتك ...

وأخذ بابان يساعده في التخلص منهما .

ـ أنت تعرف الطريق ، أليس كذلك ؟ تعال... فصديقتنا لم تشأ أن تنام من دون أن تسلم عليك...

وفي غرفة الاستقبال ، ذات الأنوار المصفاة ، نهضت أرماندين نصف نهوض ، في رداء متخفف كاشف ، ملذ للحواس :

ـ أهكذا من يأتي لرؤية أصدقائه ؟ هل نسيت يا سيد موڤوازان أنني كنت الأولى في استقبالك في مدينة الـ : روشيل ؟...

ونفرت نفس جيل بشدة من جو الدفيئة الحارة هذا . وهنا أيضاً كانوا أعدوا المشروبات . ولكن هذه كوكتيلات ، وصبوا له من دون استشارته .

وبعد ذلك ، واستجابة لنظرة من مجهز السفن ، نهضت المرأة ، ومدت يداً معنياً بها ، ذات أظافر تنزف حمرة :

ـ أترككما أيها السيدان ... توجد علبة سيكار على المدفأة الجدارية ، وستجدان ويسكي في هذه الخزانة ...

كانت عينا بابان تضحكان ، ويدخن ، على عادته دائماً ، سيكاراً أسود حالكاً ، يحرق شاربيه . وظل واقفاً ، يداه تحت إبطي الصدرية ، وأخذ يذهب ويجيء ، وهو يرمي زائره بنظرات قصيرة ساخرة ، وقال له أخيراً بشعور بالرضا دسم :

ـ إذن ؟... وبعد ؟...

وردّ جيل عندئذ ، وشفته تمر عليها ارتعاشة ، شأنه في كل مرة يبذل جهده للسيطرة على خجله :

ـ كنت متوقعاً أن أرى كل أولئك السادة هنا ...

ـ ليس سيئاً ، يا صديقي ، ليس سيئاً !... حسن! ليس فقط أن أولئك السادة ليسوا هنا ، بل أوقع لك سنداً باسمي على أنني لا أنوي أن أكلمهم عن هذه المقابلة ... اجلس ...

ولم يفعل جيل .

ـ كما تشاء ... من أعلمك بالنبأ .

صمت ، من موفوازان .

ـ حسن !... حسن !... ليست لذلك أهمية ... سأعرف الأمر غداً صباحاً بكل الأحوال...

وضحك مجدداً ،وصب لنفسه كأساً ، وأخذ يذرع غرفة الاستقبال .

ـ أما زلنا أعداء ؟

ـ لا أفهم ما تقصده ...

ـ خسارة ... فأنت فتى ذكي ، وكان يمكن أن نفعل منك شيئاً ... ها قد انقضت أربعة شهور وأنا أراقبك ... أتريد أن أقول لك رأيي فيك بصراحة ؟ حسناً ! جراء عدم إصغائك لنصائح أشخاص تعدهم من الأعداء ، فإنك ستحرق جناحيك ... أعرف أن الأمر سيان بالنسبة إليك ... فأنت في العمر الذي ينتحرون فيه لأقل الأسباب ، من كلمة نعم أو كلمة لا ، بله لواقعة غرام بسيطة ... والسيء في الأمر هو أن آخرين سيعانون من نتيجة ذلك ، وهم ، ليست لديهم الرغبة في أن يموتوا ...

إذ ذاك ، وبلهجة هي أكثر من متوترة ، نطق جيل بالسؤال :

ـ أتعرف من الذي قام بتسميم عمي ؟...

وثبّت مجهز السفن عينيه الرماديتين على جيل بفضول وقال مرة ثانية مكرراً ، وهو يلعب بسلسلة ساعته :

ـ غير سيئ... غير سيئ .

ثم مضى ليفتح أحد الأبواب ، فوقعت نظرة جيل عبر الباب على جسد أرماندين نصف العاري وهي ترتب هندامها :

ـ أرجو عفوك أيتها الصديقة العزيزة ...

وأعاد إغلاق الباب بعناية وجاء يلقي بجسمه على مقعد وثير ، عريض وعميق ، تجعد حريره بثنيات دقيقة .

ـ اجلس يا سيد موفوازان... افعل ما أقوله لك... واسترخ . يا إلهي ، فأعصابك تكاد تنفجر ... هاك... بكل لطف ! هكذا ... أمامي ... سيكار ؟ ... لا ؟... سيكارة ؟... سيان ، أنت وشأنك !... والآن ، اصغ إلي وحاول ألا تكون بليداً .

- ٧ -

ظلت أصوات الماء تُسمع وارتطامات الكريستال ، آتية من غرفة الاستحمام ، لدرجة أنه استمرت في جو غرفة الاستقبال ، تحوم بالألوان الزهر التي للجسد ، المعني جيداً به ، مزق تتلامح أمام العينين من العري الذي وقع النظر عليه قبل قليل . صميم وساخن ، ناعم جداً ونيء في آن معاً ، شيء يحمل الأفكار الى الحب الجسدي الذي قام هذا المنزل من أجله ، كان ذلك يصعد الى الرأس ، بينما يخمد الجسد في الوقت ذاته ، في هناءة رخوة فاقدة الهمة .

وكان جيل غائصاً ، كما في رمال متحركة ، في مقعده مفرط الانخفاض بالنسبة اليه ، والمفرط في الطراوة ، طراز بيرجير ، الراعية ، وركبتاه ، في زاوية حادة ، أعلى من وجهه ، وهو يحدق بنظرة ثابتة بالرجل الذي يدخن أمامه .

كان ينظر اليه بدرجة من الثبات ، مثلما يفعل الأطفال ذلك على سبيل اللعب ، لدرجة أنه لم يعد يرى إلا سيكار الرجل ، وبعض اللون الأحمر تحت الرماد الأبيض . ثم شيئاً فشيئاً ، أخذ وجه آخر يرتسم حول هذا المركز ، بشفتين أسمك من شفتي بابان ، وأنف بصلي ،

وشعر فوق جبين ضيق : كارينسكي ، وكيل الأعمال ، الذي كان هو أيضاً يقضم سيكاراً بشكل أبدي ، بقامته ، ويديه وراء ظهره ،وقبعته المكورة كحدبة بطيخة مدفوعة دائماً الى الوراء ، والذي ذاع صيته في كل مسارح أوربا .

إن أول غشاوة وهم بالحياة نفضت عن عيني جيل إنما يدين بها لكاريتسكي . كان في العاشرة من عمره . وأبوه ، بأساه الباسم البشوش ، أبوه الذي يعزف على ذلك العدد الكبير من الآلات الموسيقية ، ويأتي بالمعجزات باستخدام أبسط الأشياء ، كان يبدو له كواحد من الرجال الأكثر جدارة برفعة المنزلة ، وهو لو أراد ، فبالتأكيد ...

كانوا في كوبنهاغن ، وكارينسكي يتنقل بين مدينة وأخرى بعرض كامل للمنوعات ، ولم يفهم جيل لماذا أبوه كان مغيظاً من أن ظهوره يقع في أول العرض بعد رفع الستارة .

ويتذكر جيل الكواليس جليدية البرد في ذلك المسرح ، والدرج الحديد ، حيث كاد يكسر إحدى ساقيه ، والقمرة المشتركة مع راقصتين توأمين تتشابهان لحد الخلط بينهما . وكان يستعيد صورة كارينسكي ، في لباسه الرسمي ، والقبعة المكورة ـ إذ عندما يكون المرء هو كارينسكي ، يحق له أن يلبس كما يشاء ـ ، متدفقاً بكل كتلته في الدهاليز الضيقة والرطوبة ،والخوف الذي ينتشر حوله .

ذات مساء ، ومن دون إخطاره بذلك ، جرى إلغاء دور جيرار موثوازان ، في حين كان هذا الأخير جاهزاً للنزول الى حلبة العرض . وغدا والد جيل شاحباً جداً .

وقال :ـ سأكلمه ...

ـ أتعتقد أنه تصرف متبصر يا جيرار وأنت في الحال التي عليها ؟
بعد ذلك بدقائق ولأول مرة ، وقع بصر جيل على أبيه في المشرب وهو يفرغ عدة أقداح من الكحول الواحد بعد الآخر ، ثم يتجه الى مكتب كارينسكي ، أحد شاربيه مرفوع لفوق والآخر متهدل على شفته .

لم يكن أحد منتبهاً للطفل . وقد بقي هو هناك ، منفعلاً ، أمام الباب سيء الطلاء . وسمع أصواتاً مرتفعة . وفجأة ، فُتح الباب . كان أبوه يسير متراجعاً ، وكارينسكي يتقدم باتجاهه ، ووجهه شديد القرب لحد ملامسة وجه الأب تقريباً ، وهو ينطق بكلمات رهيبة ، وفي لحظة صفقه الباب بعنف بقصد إغلاقه ثانية ، بصق سيكاره في وجه موفوازان مباشرة .

ولم يُبدِ والد جيل حراكاً ،ولحسن حظه أنه لم يلمح الطفل . وقد صعد إلى قمرته وترك نفسه يتهاوى على كرسي .

ـ ماذا ؟...

ـ لا شيء .

وفهم جيل في تلك الليلة أشياء كثيرة . فهم أنه يوجد أشخاص بمقدورهم أن يبصقوا بعقب سيكارهم في وجه أشخاص آخرين لا حق لهم إلا في أن يتراجعوا وهم يشحبون...

وأخذ بابان يبدو له الآن ضخماً ، مقدوداً من مادة أكثر قساوة ، وهو أشد قوة من أي كان ، بينما تمسك جيل غريزياً بساعد مقعده ، وكأنما ، هو أيضاً ، سيتوجب عليه أن يتراجع .

ومع ذلك ، فإن الكلمات التي أخذت تخرج من فم مجهز السفن لم تكن تلك التي يتوقعها .

ـ هل تعرف يا موفوازان أنني أكنّ لك الود ؟... لعلك لن

تصدقني ، ومع ذلك فالأمر هو هكذا... فأنا أراك كل يوم وأنت تمر... وأعرف تقريباً كل ما تقوم به من أعمال... وفي كل يوم يمر ، أنت تتصلب أكثر قليلاً لتجابه صامداً كل ما حولك . ولتفهم ما لم تفهم . إنك خائف ، ومع ذلك فأنت تتقدم قدماً إلى الأمام ...

« الحياة عجيبة ... وهكذا ، فأنا عندي فتى... بناتي لن أورد سيرتهن ... إنهن غبيات باهتات ... مثل أمهن !... ابني على الأقل كان يمكن أن يشبهني... ولكنه مجرد خرقة ، متخنث ، يعيش في باريس وسط مجموعة من البلداء .

« أنت ، منذ ثلاثة شهور ، وبمفردك كلياً ، تحاول أن تصير رجلاً...

« إنما لاحظ يا موثوازان ، أنت ابن أبيك ، لا عمك... هل تفهم هذا ؟

« عندما أراك وأنت تمر ، يحدث كثيراً أن يؤلمني ذلك . »

« وهذا هو السبب في أنني نصحتك بأن تأتي ... وأريد أن أقول لك إنك لست من الوزن ، وإنك « كالقدر المقضي به » ، سيتم سحقك .

أحياناً ، كانت تمر لحظة على جيل لا ينتبه فيها . يظل يسمع الكلمات ، ولكن هذه لم يعد لها معنى بالنسبة إليه ، فيعمد مخاطبه الجالس أمامه ، وسيكاره مطفأ بين أسنانه ، إلى هزه من ركبته لكي يعيده الى الواقع .

- انظر إليّ ، وستحصل بذلك على صورة تقريبية لعمِّك... إنه بدأ حياته كسائق... وأنا بدأت في تفريغ السفن... فهل تفهم أنه كي نبلغ ما قد وصلنا إليه ، فلابد أنه لم يكن لنا قوام الأطفال البريئين الذين يتقدمون في الكنيسة لأول مرة الى سر المناولة المقدس ؟...

« كان عمك من حثالة السفلة ، بل هو في ذلك يفوقني ... ولذلك لم يتأخر الأمر به حتى بث الرعب في أولئك المستريحين في امتيازات وضعهم ، وجعلهم يرتعدون ، البرجوازيين الكبار ، مثل الـ : پلانتيل ، والـ : پونو ـ راتو وكل الذين توارثوا غناهم من عدة أجيال...

« إنهم أرغموا على أن يتحملوه ، لأنه كان أقوى منهم ، ويعض بأشد إيلاماً...

« وطالما بقي موڤوازان على قيد الحياة ، تظاهروا بأنهم ينظرون إليه على أنه واحد منهم ، مثلما يتظاهرون بأنهم يعتبرونني واحداً منهم .

« لكن أن أموت . وفي الغد ...

« وإذا بك نازل من المركب ، أنت ، بأعوامك التسعة عشر ، وقامتك الطويلة في ثياب حداد ، وبعينيك اللتين تحاولان فهم كل شيء ، وأعصابك الصغيرة المتوترة ، وحساسيتك مساس جلدك...

« إنك لست من السلالة نفسها ، صدقني... فأنت تنتمي الى الخراف لا إلى الذئاب ... عبثاً تفعل يا موڤوازان ، إنهم هم الذين سينالون منك ، بل هم من الآن أوقعوا بك...

« وأكرر ذلك لك ، وإذا ما كنت ألحَ فلأنني أكن وداً لك ... ولا يهم من الذي قتل عمك ، لا يهم أن تكون زوجة عمك التي فعلت أو لا تكون...

وقال جيل : ـ ليست هي ...

ـ هذا ممكن جداً ... النتيجة هي ذاتها... وسواء أدينت أو لم تدن ، يبقى أن قلعة موڤوازان قد تزعزعت... وكل الذين كانوا يكرهون موڤوازان ، يعني كل الناس ، سيتكالبون عليك... ما الذي

تريد أن تصل إليه ؟... أن تشغل في الأعمال مكان عمك ؟... أن تسيّر وفقاً لهواك أناساً مثل پلانتيل ، ومثلي ، ومثل عضو مجلس الشيوخ ، ومثل آخرين أيضاً ؟... لا يقتصر الأمر على أنك لا تعرف قواعد اللعبة!... بل أنت لا تعرف شيئاً!... ورحت اخترت لتعليمك رجلك الطيب ، حماك ، الذي ظل طوال عمره خروفاً يثغو وسيبقى كذلك...

وأخذ وجه بابان يضيء بابتسامة فيها تقريباً بعض طيبة . ونهض مجهز السفن :

ـ افعل ما قلته لك أيها الشاب... اذهب لرؤية پلانتيل... أو إذا فضلت ، اكتب له كلمة ... أخبره بأنك راغب في أن تسافر مع زوجتك ، وأنك تطلب إليه أن يسهر على إدارة أعمالك... وما تزال هذه هي أفضل وسيلة لإنقاذ زوجة عمك ، بقدر ما بقيت هنالك اللهم فرصة لإنقاذها .

« ... ما جرى فعلاً ، لا أعرف شيئاً عنه ، وربما لم يكن في هذا كله إلا سلسلة مصادفات ... مصادفة ، مثلاً ، أن تنتحر هذه المجنونة المسكينة السيدة سوڤاجيه فتسمّ نفسها قاصدة أن تنتقم من زوجها!... مصادفة ، بادروا هم بعجلة مفرطة لاستغلالها ضدك...

ـ ماذا تقصد ؟...

ـ لا شيء... وأقصد أن أحداً لا يعرف ، عندما يجري تحريك وحل القاع ، ما هو ما سيطفو على السطح ... و ... بلاشك ، فإن بعضاً ممن أعرف ، هم الآن مرتاعون بعض الشيء... عملية أولى فيها سم يُدس ، خدمتهم ... عملية دس سم ثانية ، جاءت وشاية بشأنها يعلم الله ممن ، أعطت القضية أبعاداً غير منتظرة ، ولا يعرف أحد الى أين سيمتد الأمر قبل أن يتوقف ... ومادام الرأي العام يتهم زوجة عمك ،

فالمرجح أنها هي من سيدفع الثمن ، سواء كانت مذنبة أم بريئة . ولا تبحث عن أي معنى سري وراء كلامي...

« كان الـ : سنديكا ، مادام هنالك سنديكا ، يخاف عمك . واعتقد أعضاء الـ : سنديكا أنهم ارتاح بالهم عندما حل في مدينة الـ : روشيل بكل تواضع فتى ليخلفه هو في التاسعة عشرة .

« وقد ضحكت وأنا أرى أولئك السادة يتملقونك خاطبين ودك ، وكدت أصفق بيدي عندما خيّبتهم أنت...

« اليوم . تعقّد الموقف . فإن أحداً ما قتل أوكتاف موڤوازان ، وأؤكد لك ، بشرف بابان ، بأنني لست بأكثر علماً منك حول هذا الأمر .

« إلا أن اللعبة ستجري متلازّة في قتال قريب حامي الوطيس ، عندما ينشب شجار في مقهى ، لا يعرف أحد في أي اتجاه ستنطلق الطاولات والزجاجات ، وأول ما يحرصون عليه هو إبعاد النساء والأطفال ...

ـ عن زوجة عمي كلامك ؟...

ـ عن زوجة عمك وعنك وعن البنية الصغيرة زوجتك... ما الفائدة يا صغيري جيل ؟... تُرى ، هل راودت عمك ذاته الريبة بأن شخصاً ما كان يسمّه ؟... ليس ثمة إلا محتوى الصندوق الحديد ليفيدنا بجلية ذلك . هذا كل شيء... افعل ما بدا لك... واذهب الآن لعند زوجتك التي تنتظرك ، وحاول أن تُنعم التفكير ...

ومن دون أن يشغل باله بمخاطبه أكثر مما فعل ، مضى بابان لفتح الباب . ووقعت النظرة على مصباح وسادة النوم ، باللون الزهر الذي للسلمون ، وسرير واسع حريري النعومة كلياً ، وذراع عارية ، بينما وجه أرماندين منحن على كتاب .

ـ نمتِ من الآن ؟... كان صديقنا الشاب يريد أن يسلم عليك قبل أن يذهب ... ادخل يا موڤوازان ...

عندما وجد جيل نفسه مجدداً في الشارع ، كان مشوّشاً جداً . بحيث كاد ينسى أن أليس تنتظره عند أهلها وأنه قد تجاوز في سيره زقاق جوردان . وتعين عليه أن يدور على عقبيه . كانت صورة أبيه هي التي عادت إليه ، ممتقع الوجه أبوه من المهانة ومن هياج غضب عاجز ، يوم تلقى سيكار اليهودي على وجهه ، وحدث لجيل وهو يمشي تحت المطر أن نطق بصوت مرتفع ، مضموم القبضتين :

ـ لن أتراجع .

في منزل لوپار ، كانوا ينتظرونه في غرفة الطعام .

وسألته زوجته ، التي كانت تأكل حلويات صغيرة خفيفة من منوعات الكعك :

ـ ماذا قال لك ؟...

ـ لا شيء جديد ... سأراك غداً يا عمي... آن الأوان كي نرجع الى البيت...

كل المدينة ، ليلتها ، التي يجتازانها وأحدهما منحن على الآخر لحد الالتصاق ، بدت له مختلفة . هذه المنازل الصغيرة ، أحياء كاملة مؤلفة من منازل صغيرة . لا يكاد يختلف أحدها عن الآخر إلا بشكل واه جداً... طلاء أحدث على الباب والنوافذ ... أو حديقة ضيقة أوسع قليلاً من غيرها ... أحياناً بيت له شرفة ... أو الذين عندهم غرفة استقبال وغيرهم ليس عندهم...

...جميع الذين جاوراهم في عتمة صالة السينما ، الذين بعد العرض ، بدوا في منتهى الفخر لتناولهم فاتح الشهية في « كافيه دو لاپيه » ، وهم في ثيابهم ليوم الأحد ...

الخراف ، كما قالها بابان بوتِر .

وهنا أو هناك ، منزل ضخم ، قلعة عائلة غنية وقوية منذ زمن طويل ...

وأخيراً ، رجال مثل أوكتاف موقوازان أو راوول بابان ، خراف أصيبت بالسعار ، رجال من الأسفل قد هاجموا القلاع ، فوُسّع لهم ، رغم الخاطر ، على مضض ، مكان صغير .

وسألت أليس وهما يسيران :

ـ ما شكلها تلك المرأة ؟...

ـ أية امرأة ؟

ـ أرماندين ... يبدو أنها أجمل امرأة في الـ : روشيل ... لم ألمحها إلا مرة واحدة ... إنها تشتري ملابسها من باريس و ...

عندما ميّز نظرهما من بعيد منزل رصيف الـ : أورسولين ، لاحظ جيل وجود ضوء في غرفة عمه القديمة . ألم تكن تلك هي زوجة عمه التي تنتظر عودته بقلق ؟

كان على عجلة ليراها وليجد نفسه مجدداً قريباً منها . فإنها هي التي كان يتهددها الخطر أكثر من الجميع . وغداً سيجري بلاشك استدعاؤها لعند قاضي التحقيق ، ومن يدري اذا كانت ستخرج من هناك وهي حرّة ؟...

ـ ألن تأتي للنوم ؟

ـ ينبغي أن أذهب لأقول شيئاً لكوليت ...

ـ لا تتأخر طويلاً هناك ... يراودني النعاس...

وصعد الدرج أربعا أربع ، وعندما دخل الى غرفة أوكتاف موقوازان كان يلهث . وأدارت كوليت ، التي كانت جالسة في المقعد القديم ، رأسها ببطء نحوه .

ـ الأمور سيئة ، أليس كذلك يا جيل ؟

ـ ماذا قالوا لكِ ؟

ـ سألت السيدة رانكية ... فحاولت هي أن تكذب ... وانتهى الأمر بها لأن تعترف لي بكل شيء... وكنت على يقين من أنك ستصعد .

ـ أردت أن أراك . نعم .

ـ لابد أن زوجتك تنتظرك يا جيل ... كنت أتيت الى هنا لأحاول بعض التركيبات الجديدة ،ولكن الصندوق ما يزال لا يفتح .

وكانا قد وضعا معاً قوائم بكلمات مؤلفة من خمسة حروف وجرباها كلها بلا طائل .

ـ ينبغي يا امرأة عمي أن تأوي أنت أيضاً الى السرير ...

وكان الأمر عجيباً . فقد بدا له وهو يصعد الدرج أن لديه أشياء كثيرة يقولها لزوجة عمه . والآن وقد صار أمامها ، لم يعد يجد شيئاً . ومرة أخرى ، استولى على نفسه انقباض أصم ، وانحراف مزاج غير محدد . واستبدت به الرغبة في أن يبقى وفي أن يهرب .

وزفرت وهي تنهض :

ـ يجب أن أذهب الى النوم ، نعم . فغداً سأقضي نهاراً شديداً ، أليس كذلك ؟...

مازالت تريد أن تبدي الشجاعة . وبابتسامة ، شكرته على حدبه عليها . ومع ذلك ، تمتمت وهي تهز رأسها .

ـ متى سينتهي هذا كله ؟ لماذا يتكالبون علي ؟ ما الذي فعلته لهم ؟...

وأخذ صوتها يتكسّر .كانت تبذل الجهد كي لا تضعف قبل أن تصير وحدها في غرفتها .

عندما خرجت من الغرفة ، أدار جيل آلياً مفتاح الكهرباء وأعاد اغلاق الباب ، بحيث إنهما بذلك وجدا نفسيهما كليهما في الرواق الطويل الضيق الذي ليس فيه إلا النور الواهن لمصباح ليلي ضعيف .

وخلال سيرهما بمحاذاة الجدران كانا يتلامسان تلامساً خفيفاً من دون قصد .

وبلغا على ذلك النحو أعلى السلم ولم يبق عليهما إلا أن يشد كل منهما على يد الآخر متمنياً له ليلة سعيدة . ومع ذلك ، فإنهما لزما مكانهما ، بحرج ، من دون أن يقر قرارهما .

وكانت كوليت هي التي مدت الأولى يدها الصغيرة . وانفرجت شفتاها لنطق :

ـ طابت ليلتك يا جيل ...

لكن لم تستطع أن تتكلم . وانتفخ جفناها بدمعتين تعلق بهما انعكاس خفيف للضوء .

ـ كوليت !

وفجأة ، أمسك جيل زوجة عمه من كتفيها ، كانت صغيرة القامة جداً ، خفيفة للغاية . وأحس شفقه كبيرة بلا حد تجتاحه ، ورغبة عظيمة جداً في مواساتها ، و...

كان خائب الحركة ، في معطفه المبلل ، وأفلتت يدها القبعة التي كانت ممسكة بها .

ـ كوليت ! ... لا ...

لم تكن به طاقة لأن يراها تبكي ، لأن يعرف أنها لم تعد لها حيلة وأسقط في يدها الى ذلك الحد ، معزولة بذلك القدر وسط هذا العالم عديم الرحمة في قسوته الذي وصفه بابان له ، وانقبضت يداه على كتفيها ، ومن دون أن ينتبه ، كان يجذب زوجة عمه إليه ، ضاماً إياها الى صدره ، ويحس خصلات شعرها القصيرة المجنونة على خده .

كان إحساساً حلواً وذا سخونة فاترة ، ذلك الخد على خده ، وهذا الشعر القصير ، الدمعة ، والجسد الذي يرتعش ...

وفجأة . تحرك وجهها مستديراً بشكل خفيف ، ربما لتنظر اليه ،وربما لتقول شيئاً له ، فتلامست شفتاهما عندئذ . وأغلق جيل عينيه ، ومن دون أن يعرف ماذا كان يفعل ، ضغط ، وعب نفساً طويلاً ، ثم ، ردّ زوجة عمه عنه بحركة مفاجئة وقد اضطرب كيانه كله ، واندفع في الدرج .

ـ أنت هنا يا جيل ؟...

وقد سمعت أليس ، التي كانت رقدت من قبل ذلك ، باب غرفة الاستقبال يفتح ثم يعاد غلقه . ودهشت من عدم رؤيتها زوجها . وأصاخت بأذنها ، منتظرة ...

ـ جيل !...

وقررت أخيراً النهوض ، قلقة ، ومشت حافية القدمين ، لعند الباب الذي فتحته .كانت غرفة الاستقبال غارقة في الظلام . وانتابها خوف .

أدارت بعصبية مفتاح الكهرباء ، واكتشفت عندئذ ، بانتفاضة من فوجئ ، جيل ، الذي كان جالساً ، ممدود الساقين ، على أحد المقاعد ، لم يكن قد نزع معطفه عنه . وشعره المشوش ، وهو ممسك برأسه بين يديه ، متهدل على وجهه .

ـ ما الذي كنت تفعله وحيداً في الظلام ؟...

ـ لا شيء... كنت أفكر ... أسألك العفو ...

ـ هيا بسرعة لتنام ... أشعر ببرد ...

تبعها بطواعية ، ووجهه مجرد من أي تعبير .



النزهة إلى روايان

ـ ١ ـ

كان جيل قد ضبط الساعة المنبه على السادسة ، وعندما انطلق الرنين ، فإنه لم ير خطوط النور تحزّ ضلوع أغلاق النافذة . واضطربت حركة أليس في رقدتها ، لدى سماعها إياه ينهض ، ومدت ذراعها كأنما لشده واستبقائه ، بالحركة التي تصدر عنها ، وهي نائمة ، في كل مرة يتحرك فيها .

ـ ... ما في ؟...

ـ لا شيء يا حبيبتي ، نامي...

أعاد الغطاء عليها قبل أن ينتقل الى غرفة الحمام . ونزلت مارت ، الخادمة ، أثناء ارتدائه لملابسه ، وسمعها وهي تطحن القهوة وتشعل النار .

وقبل السادسة والنصف بقليل ، دخل الى المطبخ بدوره .

ـ لا تزعجي نفسك يا مارت ...

وتناول وعاء من الخزف من الخزانة الجدارية ، وصب فيه لنفسه كي يشرب ، في اللحظة التي وصل فيها صوت نقر على الباب الخارجي يقرع قرعاً خفيفاً .

ـ ستذكّرين السيدة بأنني لن أرجع قبل الظهر ...

وهبط الى الطابق الأرضي ، وسحب السلسلة والرتاج ، فاستقبله الصباح الباكر ، مع پول رانكية في الوقت ذاته ، الذي كان يضرب الأرض بقدميه . كان الجو رطباً ، يخز الأنف وأطراف الأصابع ، وله رجع مذاق « يوم ينهض المرء فيه أبكر من اللازم » .

وقال رانكية بعد أن حيا جيل :

ـ إذا شئت ، يمكننا أن نبدأ .

كان الميكانيكيون قد أخرجوا لتوهم سيارة سفر أولى من الكنيسة القديمة ، بينما كان يسمع صوت المحركات الحارنة ترن تحت القباب .

ـ هاك ... كان « هو » يأتي هكذا ، يعسكر أمام الباب ، يداه وراء ظهره ، من دون أن يكلم أحداً... في الشتاء ، يرتدي معطفه الأسود البدين الذي أخذه المفتش معه البارحة . وفي الصيف ، سترات لونها رمادي داكن ، طويلة بعض الشيء وواسعة أكثر مما يجب ، تظل مفتوحة دائماً كاشفة عن صدريته الجيليه ...

ـ يعني إجمالاً ، لا يكون وصل في هذه الساعة إلا الميكانيكيون ؟...

ـ ليس كذلك ! ... فپوانو هو الذي يفتح الباب دائماً في الصباح ... ولا تنس أنه الوقت الذي يملؤون فيه الخزانات بالوقود ويضبطون عيارات الزيت ،واذا ما راودت أحداً نفسه في أن يحاول تحقيق كسب صغير غير مشروع ...

لحظتها ، لاحظ جيل إيسپري لوپار عائداً من أعماق المرآب ، والذي نظر الى الشاب بدهشة .

ـ لم تقل لي قط إنك كنت تأتي الى هنا في السادسة صباحاً ...

ـ لابدّ . لأحلّ محل السيد پوانو ، أليس كذلك ؟...
ـ وأنا الذي يحدث كثيراً أن أؤخرك عندي في الليل !
ـ ليست للأمر أهمية ...

وفتحت النوافذ عند بائع جملة الخمور . وعلى الجانب الآخر من القناة ، كانت بعض الخادمات يسحبن وراءهن أوعية النفايات لعند حافة الرصيف .

وسحب رانكية ساعة محدبة كبيرة فضية من جيب سترته وأومأ لجيل . وكان ذلك يعني أنه آن الأوان للتوجه ببطء صوب الميناء ، كما كان يفعل كل يوم ، فيما مضى ، في ساعة مماثلة ، أوكتاف موڤوازان .

خمسة أيام قبل الآن ، في اليوم الذي جرى استدعاء كوليت فيه للمثول أمام قاضي التحقيق ، بعث جيل يطلب من رانكية موعداً آخر في غرفة استقبال حمويه . كان ذلك في حوالي العاشرة نهاراً . وكانت السيدة لوپار التي ضمت شعرها في منديل يمسك به ، منهمكة بأعمال ترتيب البيت ، بينما أسندت الفُرُش على حوافي نوافذ الطابق الأول لتهويتها .

وقد فكر جيل طويلاً بهذه الخطوة التي سيجازف بالإقدام عليها والتي كانت الأصعب في حياته .

ـ اجلس يا سيد رانكية ، وأيا ما كان هذا الذي سأقوله لك ، فأرجوك بأن تتكرم علي بألا تغتاظ مني... فأنا أعرف ، عن طريق أختك ، أنك غير راض عن المستقبل المقدر لك في الشرطة ... وأعرف أن المفوض لا يحبك ، وأنه منذ مدة طويلة ، يأبون عليك كل ترقية ... وأعرف أخيراً أنك تتطلع الى إحالتك على التقاعد ، ولن تحصل على ذلك إلا بعد ثلاث سنوات ...

كان لا يجرؤ على النظر إلى رأس هذا الرجل الطيب ذي الوجدان ، وتلكما العينين الكبيرتين اللتين تحدقان اليه بثبات .

ـ تساءلت يا سيد رانكية عما اذا لم تكن توافق على أن تحال الى التقاعد أبكر قليلاً وأن تدخل في خدمتي . فأنت تعرف الوضع خيراً مني . ليس لي أحد أضع ثقتي فيه ومعرفتي بالمدينة قليلة . وقد خطرت لي فعلاً فكرة استدعاء تحرٍّ خاص من باريس ، ولكنه سيكون أقل قدرة منك في الحصول على نتيجة ولن تتوفر لي أية ضمانة بشأن نزاهته...

ظل الأصعب ، هو ما سيأتي الكلام عنه :

ـ سألت السيدة رانكية . وعرفت عن طريقها رقم راتبك ، والمبلغ الذي ستتلقاه عند إحالتك على التقاعد بعد ثلاث سنوات . وأجريت الحساب ، وأعتقد أنني بعرضي مائتي ألف فرنك عليك ...

ولدهشته العظيمة ، لم تهز رانكية انتفاضة ، بل هز رأسه .

ـ كنت أعرف يا سيد جيل ... وأفضل أن أكلمك بصراحة ...

فقد جاءت أختي لرؤيتي هذا المساء وأطلعتني على الأمر فيما عدا الرقم ... ما أتساءل عنه هو إذا كانوا لن يضعوا لي العصي بالعجلات ... من جهة أخرى ، فأنا أود أن أساعد السيدة كوليت التي سيقع عليها أن تخوض الصراع ضد خصم قوي... إنني موافق يا سيد جيل فيما عدا بالنسبة للرقم ، المفرط الارتفاع ... فسأبدو وكأنني بعت نفسي ، تفهم عليَ ؟...

وفي المساء ذاته ، بانتظار صدور القبول الرسمي لاستقالته ، حصل رانكية على اجازة ، والتقى الرجلان في المكتب الذي كان جيل أعده في الطابق الثاني من البيت ، بمواجهة شقة زوجة عمه .

ومن حينها ، أخذ رانكية يروح ويجيء طوال النهار متابعاً تحقيقه على هامش النشاط الذي تضطلع الشرطة به .

وقد قامت هذه بعملية مداهمة لمنزل رصيف الـ : أورسولين وفتشت المبنى كله . ولم يعد المارة الآن يكبدون أنفسهم عناء إخفاء فضولهم بل صاروا يتوقفون في عرض الشارع تماماً لتأمل منزل الجريمة .

أما بالنسبة لكوليت التي ذهبت ثلاث مرات الى قصر العدل ، فإنها ظلت محتفظة ، رغم ما تجيش به نفسها من اضطراب متوتر ، ببرود أعصاب غير متوقع . سوى أن الأحاديث على المائدة مع جيل ، توقفت . زوجة العم وابن أخيه ، كانا يتجنبان أن ينظر أحدهما للآخر ، وكان يتفق لهما في الليل أن يتبادلا التحية من دون مصافحة باليد .

ولاحظت أليس :

ـ يبدو لي يا جيل أنك لست شديد اللطف معها .

وما الذي كان بوسع جيل أن يجيب به زوجته ؟

ـ يكاد يقول المرء أحياناً إنك أنت أيضاً تشك فيها ...

ـ أقسم لك أن لا يا أليس ...

ـ إذن ما عدت أفهم ... فبالضبط ، في الوقت الذي قد تكون هي بأمس الحاجة فيه للتشجيع ! فهي تصل في الدقيقة الأخيرة لتجلس الى المائدة ، وفي كل مرة تجد ذريعة لتنصرف على الفور حالما تنتهي من طعامها ... هل اكتشف رانكية جديداً ؟...

ـ ليس بعد ...

ـ أتظن أنهم سيجسرون على توقيف كوليت ؟

بكل الأحوال لم يصدر أمر بتوقيفها بعد ... وبالمقابل فإن الشرطة أخذت معها الأشياء الخاصة بأوكتاف موفوازان وكل أوراقه التي تحتويها طاولة مكتبه ذي الدرج المخفي بغلق محدب . وكانت النظرة

قادرة على أن تلاحظ مفتشين يحومان حول المنزل والمرآب ، وفي مساء اليو م السابق ، جرى استدعاء السيدة رانكية بدورها للمثول أمام قاضي التحقيق .

كان جيل ورانكية قد قررا في ذلك الصباح أن يعيدا بناء صورة نهار عمل من أيام أوكتاف موقوازان بالتقريب الأقصى الممكن .

واستناداً لما توصل الخبراء إليه ، فهذا الأخير تمّ تسميمه بواسطة زرنيخ جرى دسّه له بكميات مضطردة . وقدروا أن التسميم استغرق عدة أسابيع .

ومن ناحية أخرى ، صرح طبيبه المعالج بأن موقوازان كان مصاباً بمرض القلب . ولذلك ، فهو يحتفظ دائماً في الجيب الأيسر من صدريته الجيليه بعلبة صغيرة مستديرة من الورق المقوى تحتوي على حبوب مصنّعة على أساس مادة الديجيتالين . إلا أن الصيدلي بوكيه ، في ركن ساحة الكايَ ، طائر السمان ، الذي يزوده بهذه الحبوب ، أكد أنه لم يحدث في أي يوم أن مزج بها أدنى قدر من الزرنيخ .

ـ لاحظ يا سيد جيل ، إننا نتبع توقيت عمك بالدقيقة ... كان سهلاً إعادة بناء نهاره ، وأولاً لأن كل الناس كانوا يعرفونه ويحيونه... ولأنه لم يكن يغير ، إذا صح التعبير ، برنامج ساعاته .

« ولكي التزم المطابقة بالضبط ، كان المفروض في المرآب أن أمر على المكتب الزجاجي وألقي نظرة على حسابات اليوم الفائت ... (هو) ، لم يكن ينطق بأية ملاحظة ... وبالمقابل ، اذا حدث ولم يعجبه تفصيل معين ، كان (هو) يخرج من جيبه قلماً أحمر غليظاً ويكتب عبارة ما ... بضع كلمات لا أكثر ، ويندر أن يتجاوز الأمر ذلك ... وكل كان يخاف خوفاً هائلاً من أن يجد مثل تلك الملاحظة بالأحمر على مكتبه ... »

كانت معظم المراكب الجذافة قد عادت الى المرفأ في الليل ، ولكن بعض القوارب المزودة بمحرك أو الشراعية بدت تتسلل بين البرجين على شكل سبحة وترسو غير بعيد عن مقهى جاجا .

ـ عمك في مثل هذه الساعة كان يدخن أول غليون له ...

ونظر حلاق إليهما ، باب محله مفتوح ومنشغل بتنظيف صالونه ، وهما يمران .

ـ أنت ، لا يحييك الناس... وكان كل الناس يبادرون لتحية أوكتاف موڤوزان ... ومع ذلك ، كانوا يعرفون أنه لا يرد ... وأقصى ما يمكن منه غمغمة مبهمة .

ورغم ساقي جيل الطويلتين ، فإنه توصل لأن يسير الهوينا ، بثقل ، مثلما يفترض أن موڤوازان كان يفعل خلال جولته الصباحية .

ولئن كانت المدينة مقفرة تقريباً ، فالحركة بدأت تدب من ناحية سوق المزاد ، الذي أخذت تصله تباعاً ، الواحدة بعد الأخرى ، الشاحنات الصغيرة التي يملكها تجار الجملة المتعاملون بثمار البحر . وجاجا ، يداها على وركيها ، كانت تنادي بحارة مركب رسا لتوه وتكدست على سطحه صناديق السمك .

وهتفت حين وقع نظرها على جيل :

ـ ها إنك أنت ؟ ما الذي جئت تفعله هنا في هذه الساعة ؟... هل تناولت قهوتك على الأقل ؟... تعال واشرب قدحاً صغيراً ، فأنت كلّك أزرق من البرد...

وجرته الى مقهاها . كان بعض من نساء سوق السمك ، بانتظار أن يقرع الجرس ، يكســرن الصفرة ويتناولن إفطارهن على رخام الطاولات .

ـ تعال من هنا لأريك شيئاً ...

وسحبت جاجا جيل معها الى المطبخ .
ـ أصحيح أنك أخذت هذا في خدمتك ؟
وقد ظل رانكية عند العتبة .
ـ أتساءل ما إذا كنت على صواب ... أنا ، من حيث المبدأ لا أحب الشرطة ... وبغض النظر عن وجود بعض الناس يحكون أن أخته... اصغ يا بني ... هذا ليس شأني طبعاً... لكنني ما زلت أراك كما كنت يوم وصلت الى هنا وأنت أشبه بهرة نحيلة ، وينفطر قلبي أسى لسماع كل ما يهذرون به . ... بالنسبة للمرأة رانكية ، يزعمون أنها ظلت طويلاً هي وسيدها يتعاشران . وأنها كانت تتوقع أن يدرج اسمها في الوصية وهي تملك النفس لأن تقدم له قهوة سيئة... تصرف في أمرها كما تشاء . ومع ذلك احرص وابق عى حذر ... ماذا تشرب ؟ كأس صغير ؟ بلى ، بلى ! ... كي تشرب مع جاجا !
وقدمت له من دون أن تطلب رأيه قدح كحول .
ـ افرنقع الآن ... عندي شغل ...
وصاحت من دون أن يكون هناك من تناديه :
ـ جئت يا أولاد ... لا تغضبوا ...

ومضى الرجلان يتجولان كتائهين وسط حشد الناس الذين يغلي سوق السمك بهم ، يخطوان فوق كلاب بحر أو شفانين تنزف دماً ، ويخوضان بين أكداس الأحشاء . وكان الناس يلتفتون نحوهما . وينظرون خاصة بفضول الى موفوازان ابن الأخ ، الذي يجدونه فتياً الى حد كبير . ومع ذلك فإن النساء ذوات القدرة والخبرة كن بعيدات عن إبداء العطف نحوه .
كان صيادو السمك يجلبون صناديق ثقيلة من السمك ويصفّونها على الطاولات الحجرية .

وأوضح رانكية :

ـ الرجل الذي يتخلف يكون هو رب العمل . فهو يحرص على أن يحضر البيع بنفسه ، في حين أن البحارة ينظفون المركب ، ثم يذهبون ليشربوا كأساً عند جاجا أو في مشرب آخر ... أولئك الناس كانوا ينظرون الى عمك نظرة هي حتى أقل وداً من التي يوجهونها إليك ...

وكان جيل يعرف لماذا ذلك . فهو بمساعدة حميه قد وضع قائمة شبه كاملة بتوظيفات عمه ...

وإن بعضاً مما تكشف له لم يثر استغرابه . من ذلك مثلاً ، أن موقوازان يملك أربعين بالمائة من أسهم شركة باس وپلانتيل ، والقدر نفسه تقريباً من مصايد سمك بابان . كما أن إقرارات متعاقبة بالديون جعلته المالك الوحيد تقريباً لمؤسسة إيلوا ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لأعمال أخرى غير متوقعة ، مرآب مثلاً على طريق روشفور ، وعدة مضخات وقود ، ومنشأة توزيع كهرباء ، ومستودع فوسفات . ولا تختلف حال مصرف أوفرار ، وهو مصرف محلي يقع في شارع دوپاتي .

ورغم أن ثروة موقوازان كانت تبلغ بذلك عشرات الملايين ، فإنه لم يكن يترفع عن أعمال أضأل أبعاداً ، فهو يملك حصصاً في قسم كبير من مراكب صيد السمك ، بلغت حدّ أن أربابها ذوي العزم والوزن الذين يرتدون كنزات الصوف السميكة الزرقاء ما عادوا أكثر من مستخدمين عنده .

وسأل جيل الذي بدأت تضايقه النظرات التي تلاحقه :

ـ وما الذي كان يأتي ليفعله هنا ؟

ـ يرى ... إلا أنه كان يراقب على طريقته . فهو في المرآب كان

يعرف مباشرة أن شيئاً ما متعثر ... وهنا ، بنظرة واحدة ، يقدر عدد أصحاب الدَوْر ، وأسعار سمك موسى ، الصول ، وسمك الغُبر ، المرلان... وبعدها ، فليحاول المعلمون أو أصحاب المراكب أن يتلاعبوا في حساباتهم .

عند طرف إحدى الطاولات الحجرية ، بدأ البيع في اللحظة بالضبط التي قرع الجرس فيها بسرعة كبيرة وتجمّع الناس حول المنادي .

ـ تعال ... فعمك لم يكن بحاجة لأن يرى أكثر من هذا ...

وتبعا الأرصفة مجدداً إلى أن بلغا الساعة الضخمة فمرّا تحتها ودخلا لعند بائع الجرائد والتبغ الذي في تلك الناحية .

ـ في مثل هذه الساعة ، لا يوجد إلا الصحف المحلية ... وكان عمك يأخذ جرائد : الجيروند الصغرى ، وفرنسا ـ بوردو ، وبرق الغرب ...

واستغرقت البائعة العجوز ، التي ترتدي ملابس سوداء اللون كلها ، في النظر الى جيل بقدر من الانتباه في نظراتها الثابتة لدرجة أنها نسيت أن تعيد له بقية نقوده .

ـ الساعة الثامنة ... المتاجر تبدأ فتح أبوابها... حلاق شارع القصر كشف لتوه الأغلاق عن النوافذ ... وكان عمك يدخل ، ويعلق قبعته على المشجب ، وبزفرة رضا وارتياح ، يجلس مستقراً على مقعده... وأثناء الحلاقة ، كان الحلاق لا يكف عن الكلام ،ولكن موڤوازان لا ينبس ببنت شفة .

الكلمات نفسها دائماً ، التي تعود وكأنها لازمة أغنية .

ـ لم يكن أوكتاف موڤوازان يتكلم ... لم يكن أوكتاف موڤوازان يحيي ... يصغي . ولا يفتح فمه ...

وهكذا ، أينما ذهبا ... في أية ساعة من النهار ، يقع المرء على اثر مروره ،ولكنه أثر رجل متفرد وحيد .

يكاد يبلغ ذلك بالمرء حد الهلوسة . إذ كيف استطاع هذا الرجل أن يقضي عمره في عزلة مطلقة الى ذلك الحد ؟ ألم يحس يوماً حاجة الى الاسترخاء ، الى تماس مع أشباهه من البشر ؟...

ولئن ذهب الى نيول ، كما كان يفعل في كل أسبوع ، الى منزل ابنة خالته حيث ولد ، فليس ذلك ليطلع على أخبار ذويه أو ليفش ما في صدره . فقد قالتها كوليت : كان يجلس بكل ثقل أمام الموقد ويبقى هناك . بلا حراك ، في حين تتابع ابنة عمه قشر الخضار أو ترتيب البيت .

الساعة التاسعة ... مصرف أوفرار ... غرفة ضيقة ، يقطعها الى نصفين درابزين من خشب سنديان فاتح اللون ... بضعة ملصقات جدارية تعلن عن إصدارات ... أسهم أو سندات ... عاملتا ضرب على الآلة الكاتبة ، وفي مكتب ثان يبقى بابه مفتوحاً ، جورج أوفرار ، وهو رجل قصير أصلع ومتوثب . ذو نظرة متوجسة قلقة :

وغمغم رانكية :

ـ لا أعتقد أن ثمة فائدة من أن نعيد سؤاله . تبادلت وإياه حديثاً طويلاً . كان موقوازان يدخل في الوقت ذاته مع ضاربتي الآلة . ويحتفظ بقبعته على رأسه . فهو في كل مكان يبقى ورأسه مغطى ، وكأنما يحط من قدر شخص كموقوازان أن يكشف عن رأسه ... وكان يجتاز حاجز الدرابزين من بابه الصغير ، وينحني على البريد الذي بدأ فرزه... كان موقوازان يجلس على مقعد أوفرار الذي يبقى واقفاً بكل احترام ، ويفحص البرقيات الواردة التي تحمل آخر الأسعار في البورصات الأجنبية... وأحياناً ، يسطر أمراً . بقلمه الأحمر الثخين ذاته دائماً...

هل سيتقضي النهار بكامله على ذلك النحو ، من دون أن يسفر عن حركة انسانية ، أو عن أي تراخ في إيقاع ذلك الرجل الأشبه بآلة لا تكل ولا تمل ؟...

لم يجرؤ جيل على أن يسأل زوجة عمه كيف عرفت أوكتاف موڤوازان . رانكية هو الذي طرح عليها بضعة أسئلة في هذا الموضوع ، وأجابت بصراحة كاملة .

في تلك الفترة ، كانت والدة كوليت عاجزة وقتها . وهي ، كوليت ، في الثامنة عشرة ، تعمل لكسب حياتها دليلة في سينما أولمبيا ، في ساحة آرم ، أي أنها ترشد إلى مقاعدهم الرواد الذين يدخلون بعد إطفاء الأنوار وبدء العرض . وبذلك ، فإنها كانت ترتدي الزي الأسود من رأسها الى قدميها ، الأمر الذي كان يبرز نحول ورهافة قامتها ، وشقرة شعرها المتموج .

وفي كل أسبوع ، في يوم الجمعة ، أي في النهار الذي يكون فيه عدد الرواد هو الأقل ، كان موڤوازان يدخل الى صالة العرض بعد أن يكون العرض بدأ . والدليلات يقفن متجمعات قريباً من الباب ، وفي أيديهن المصباح الكهربائي الصغير .

وكان موڤوازان يطلب إرشاده الى مقعد في إحدى قمرات الشرفة في الصالة . وأحياناً يهاجم على الفور . فهو يستبقي الدليلة ممسكاً إياها من طرف كمها ويهمس :

ـ ابقي ...

وأحياناً أخرى كان ينتظر ، ثم يشق باب القمرة ، ويومئ بإشارة... هذا هو كل ما كان معروفاً عن حياته الجنسية . ولم يكن ينجح دائماً . فمع كوليت ، لم ينل شيئاً ، وكرر محاولاته مدة عدة أسابيع .

وذات صباح ، رن أحدهم على الباب في زقاق الـ : إيڤيسكو . كان مستخدماً يعمل عند موڤوازان . وفتحت له كوليت التي كانت منصرفة الى شغل البيت .

ـ هل تسكن هنا دليلة شقراء تعمل في سينما أولمپيا ؟...

ـ نعم يا سيدي ... لماذا ؟...

ـ لا لشيء ... أشكرك ...

صار موڤوازان يعرف الآن أين تقيم كوليت . وعرف في أية ساعة تخرج من بيتها لتذهب الى عملها .

وانتظرها ، هادئاً وثقيلاً ، عند زاوية الزقاق . وتواصل الأمر أسابيع أخرى أيضاً . وخلال ذلك وجد السبيل لأن يشتري البيت الذي لم تكن كوليت وأمها إلا مستأجرتين فيه .

ـ اذا وافقت على إبداء اللطف ...

وفرت جرياً منه في ذلك المساء الذي حصرها فيه ووراءها بوابة كبيرة لمرور العربات وقدم لها اقتراحه . وبعد شهر من ذلك عرض عليها الزواج .

وأفضت كوليت لرانكية :

ـ ولم أعد أعرف ماذا أفعل ... كان يملك أن يسترد منا السكن الذي نقيم فيه . وهو قادر على العمل على تسريحي من السينما والحيلولة دون أن أحصل على عمل آخر ...

لم يغير موڤوازان أي شيء في منزل رصيف الـ : أورسولين من أجلها ، ولا في نمط حياته . لقد نامت في السرير العائلي الواسع بجانب رجل بدين ينفخ . وفي الصباح ، كانت تسمعه في الساعة السادسة وهو ينهض ويرتب هندامه . ولم تكن تلتقيه الا في مواعيد تناول الطعام .

ثم ، ذات شتاء ، أصيبت بالحمى التيفية ، وموفوازان ، الذي كان يخاف الأمراض خوفاً جنونياً ، أقصاها الى غرفة في الجناح الأيمن من المنزل ، هي التي ما تزال تشغلها .

واستدعى الطبيب سوفاجيه . ولمدة أسابيع ، ظل هذا يأتي مرتين في اليوم لعيادتها ، وعندما دخلت مرحلة النقاهة ، كان الحب الكبير قد ولد بينهما .

هل بقي موفوازان يفكر بزوجته التي ما عاد يضع قدميه عندها خوف العدوى ؟

بعد انقضاء شهرين على ذلك فقط حتى بدأ يستغرب . وذات يوم ، بخطواته الثقيلة ، توجه ناحية الجناح الأيمن ، يلامس منكباه جدران الرواق . جعلته ضحكات مرتفعة يعقد حاجبيه مقدماً ، وعندما دفع ضلفة الباب . كان ما رآه هو مشهد عاشقين شابين سعيدين .

ـ أبداً بعدها ، لم يوجه كلاماً إليّ . وقضى بأن أتناول وقعات طعامي على مائدته . وفي كل شهر ، كنت أجد على فوطة طعامي مغلفاً يحتوي مبلغ الألف فرنك الذي رتبه لأمي منذ زواجنا ...

هكذا ، فالزواج أيضاً لم يخرج موفوازان من عزلته :

وصرحت كوليت أيضاً :

لم أعرف يوماً شيئاً عما يفكر به ... في البداية ، اعتقدت أنه بخيل ، لكن تبين لي فيما بعد أنه شيء أفظع بكثير ...

في الصباح الصاحي ، مضى الرجلان ، جيل ورانكية ، يتقدمان متبعين شارع دو پاتي ، باتجاه ساحة البريد ، والشمس تتلاعب على الحجارة القديمة لدار المحافظة .

كان كل شيء جذلاً في المدينة ، في تلك الساعة من النهار التي لم تكدرها بعد هموم وأشغال اليوم . وكانت خادمات منازل فتيات يشطفن بالماء الغزير ألواح زجاج أو بلاط البيوت ، والنوافذ المفتوحة للشمس تدعو المرء لأن ينتبه الى حميمية غرف النوم التي ما زالت منداة .

على ذلك النحو كان موفوازان يتقدم فيما مضى بخطواته المتساوية...

ـ من هنا يا سيد جيل ... الساعة هي التاسعة والنصف كما ترى... وكان عمك يجلس الى هذه المائدة ، وفي الشتاء الى طاولة الزاوية في داخل المقهى ...

وكانت أخشاب دغليّة ، نشرت على شكل صناديق صغيرة ، مطلية بالأخضر ، ترسم حدود السطيحة الصغيرة لـ « مقهى البريد » . وصاحب المقهى ، لم يرتب هندامه بعد ، منصرف الى تنظيف جهازه للقهوة على البخار ، قد ظهر على عتبة المقهى . ووسط الساحة ، على قاعدة من الحجر الأبيض ، انتصب بتفخيم مقصود ، تمثال المحافظ غيتون ، مرتدياً قبعة ذات ريشة ، طراز حرس الملك .

ـ ماذا أقدم لكما أيها السيدان ؟

ـ كأسي نبيذ أبيض ...

وكان يُسمع آتياً من المكاتب المجاورة صوت الضرب على الآلة الكاتبة . وفي الطابق الأول من مبنى البريد ، ترن الأجراس في مقسم الهاتف المركزي ، بينما خياط ، بكمي قميص طويلين ، وبأداة القياس حول عنقه ، جاء يستنشق هواء الصباح .

ـ هاك... فهو هنا كان يمر بنظره على الجرائد الثلاث أثناء تناوله كأس النبيذ الأبيض... وكان يطلب كسره بماء ڤيشي ، لكن خطر لي أنك قد لا تحب ذلك بالنسبة لكأس نبيذك ...

كل شيء في الديكور ، وفي الجو ، وفي حفيف حياة المدينة ، كان يدعو الى التفاؤل ، ومع ذلك فإن أوكتاف موڤوازان لم يكن يبتسم ، ولا يبتسم أبداً . وكان رجال بلباس أزرق فاتح ، وعلى كتفهم كيس ، يقومون بتسليم ألواح من الجليد .

وهمس رانكية :

ـ اقرأ الاسم على الشاحنة .

ـ معمل جليد المحيط .

ستون بالمائة من الأسهم ! مشروع آخر ، وعم جيل هو مالكه الأوحد تقريباً .

وأخذ ينشأ عند جيل انطباع بأنه بدأ يفهم . فهؤلاء الرجال الذين يمضون الى عملهم المحدد لا يرون إلا ظاهر الأشياء ، إلا المادة الملساء الضاربة الى الزرقة للوح الجليد هذا ، والسير البطيء للشاحنات على البلاط غير المتساوي في الطريق .

أوكتاف موڤوازان ، هو ، حيثما كان ، فهو يظل في مركز عجلات كل هذه الآلية . فهو يعرف أن أوفرار ، في هذه الساعة عيناً ، يتصل هاتفياً بباريس حيث يقوم أحد مستخدمي عميل صراف بتسجيل الأوامر الخاصة بالبورصة عنده ، التي كتبها هو ، موڤوازان ، قبل قليل ، بخط سيء ، مستعملاً قلمه الأحمر الغليظ .

أربعون حافلة كانت تجوب طرقات المحافظة ، وفي كل مكان ينتظر الناس عند تقاطع الطرق ، ويلقي السائقون بأكياس البريد للسعاة المزروعين أمام مكاتب البريد .

ولئن كان پلانتيل يجلس الآن بأبهة رسمية ، حريصاً على أناقته البالغة ، في مكتبه من خشب الأكاجو ، فإن موڤوازان بالمقابل كان

حاضراً أيضاً بفكره في ذلك المكتب ، ويعرف أسماء المراكب الجذافة التي عادت الى الميناء في الليلة السابقة ، ومعه من الآن على قطعة ورق ، عدد أسماك الميرلو التي يبلغ طول الواحدة منها المتر ...

عربات القطارات تزمع على التحرك ... ويتناول عمال ومستخدمون إفطارهم ، وتحل وردية محل أخرى ، ويعود العائدون الى بيوتهم ، يرجعون إليها بعجلة وعيونهم تنظر متلهفة الى الوقت في الساعات العامة ...

وموڤوازان ، وحيد تماماً على سطيحته المشمسة ، ينقر بقطعة نقد صغيرة على الطاولة مستديرة السطح ليدفع ثمن ما يشرب ، ويغادر ، بينما دقات الساعة تعلن العاشرة .

كل شخص كان يعرفه . وحتى أولئك الذين لا يشتغلون عنده ينتابهم الخوف منه . ويرفعون بخجل حافة قبعتهم عند مروره ، وهم يعرفون أنهم لن يتلقوا أكثر من همهمة بمثابة جواب .

- هل مر موڤوازان ؟

- مر .

وبخطوته المحسوبة نفسها ، كان يعود إلى الأرصفة . فهناك ، في حوض المراكب الجذافة وسفن الشحن ، كانت ساعة الحمى حول المستودعات المبردة . فالسمك ما عاد ممدوداً على الطاولات الحجرية ، بل يقضون النهار ، من الصباح الى المساء ، في إلباسه ثوب من الجليد ، وفي دق المسامير على الصناديق ، ويحمّلون عربات شحن ، بل يحركون مجموعة عربات شحن بكاملها .

كان موڤوازان يعرف من هو المحاسب ، ومن هو رئيس القسم الذي سيطل من فوق كتفه كي يحصل ، بنظرة خاطفة وحيدة ، على الأرقام الصحيحة . كما أنه يعرف مقدماً ما تحتويه هذه

السفينة أو تلك ، القادمة من بيرغن أو ليفربول ، وأين سيجري تنزيل هذه البضاعة وأين ستباع ، وما الربح الذي سيتحقق من ورائها .

وهكذا ، ففي كل يوم ، كان وضع مئات المستخدمين والعمال متعلقاً به... عشرون شخصية مرموقة ، يرتدون الملابس الأنيقة مثل پلانتيل ، يترصدون بانقباض صدر وقلق ضربات قلمه الأحمر... كل المدينة كان يلامسه لفحها في الطرقات...

واستمر ذلك سنوات وسنوات ، قرابة عشرين عاماً ، إلى أن حل يوم وتجاسر شخص ما ، من بين كل هذه الجموع ، واتخذ القرار بتصفيته .

أحدهم ، على طريق هذه الرحلات اليومية ، في لحظة كان موفوازان فيها يأكل أو يشرب ، لأنه لا يمكن جعله يبتلع الزرنيخ صرفاً ، شد أعصابه ، وفي كل يوم ، ولمدة أسابيع ، فأحدث فيه تسمماً بطيئاً .

ويبدأ النهار في رصيف الـ : أورسولين . حيث يلتقي أوكتاف موفوازان في المطبخ السيدة رانكية المنشغلة بالقهوة الصباحية ، التي يصبها بنفسه في وعاء خزفي عليه زهور حمراء وزرقاء .

وينتهي يومه في رصيف الـ : أورسولين كذلك ، حيث يستقر بزفرة ارتياح أمام المكتب ذي الدرج الخفي بغطائه المحدّب .

خلال ذلك . كان خط الأثر يمر بالكنيسة المحوّلة عن الغرض الذي بنيت من أجله ، وبسوق السمك ، ومحل الحلاق ، ومصرف أوفرار ، ومقهى البريد ، و...

ولم يكن رانكية يحس أي تعب ، أي قرف ، ربما لأنه كان أبعد من مطال الجانب العاطفي لذلك الجري الغريب نحو الموت ؟

كان جيل يتوقف أحياناً ويغلق عينيه ، ليتفادى رؤية هذا المرفأ النابض بالشمس ، والزحام متعدد الألوان ، ليكف عن سماع الأصوات المرتفعة والضحكات ، لينتزع نفسه رغم كل شيء ، ملغياً المراكب الزرقاء والخضراء ، والأشرعة البنيّة والبيضاء ، والانعكاسات على الماء ، والغلام الصغير الذي يصطاد السمك بالقصبة والسنارة وهو حافي القدمين ، ورائحة الخمر القوية عند المرور أمام البراميل الضخمة المصفوفة على رصيف الـ : أورسولين ، ورائحة السمك في حوض المراكب الجذّافة العاملة على البخار ... حتى الهواء يحس المرء كل جزيئاته وهي في حركة ، لها حياتها الخاصة ، وإيقاعها ، ودرجة حرارتها ، وعطرها...

وشعر باغراء أن يتوقف ، وأن ينحّي بحركة من يده ذلك الشبح البحري وعديم الإحساس الذي يلاحقه ، وأن يفتح عينيه كبيرتين الى آخرهما ليترك الصور الآتية إليه تدخلهما بحرية ، وأن يوسع رئتيه مشرعاً صدره ، وأن يجيب على ضحكات المارة بضحكة ، وبكلمة : أن يعيش ...

وقال رانكية الساكن ، وهو يداعب ساعته البصلية الفضية :

ـ الساعة هي الحادية عشرة ، ويجب أن يذهب الآن إلى مشرب لوران ، فقد انقضت ساعة للآن والسيد بابان جالس الى الطاولة ، وهو منشغل بمراقبتنا عبر فرجة الستارة...

ـ ٢ ـ

منورة كلها ، في غرفة الاستقبال التي تغمرها الشمس ، وبالبقعة القاتمة الوحيدة لشعرها المتوقد حياة . اندفعت نحو جيل العائد ، متواثبة ، فتاة صغيرة كثيرة الحركة .

هل قطب حاجبيه ؟... تردده ، أمام الشمس التي لطمته ملء الوجه ، هو الذي جعلها ربما تعتقد ذلك . وتوسلت أليس إليه ، بفم مزموم الشفتين :

ـ لا تعنّفني يا جيل ... (هي) غير عائدة على الغداء .

كانت شبه عارية تقريباً ، مرتدية مرة أخرى مشمل غرفة النوم الذي لا يحبه جيل... إلا أنه لم يخبرها أبداً بذلك ، فهذا الحرير السميك بأكثر مما يجب ، الأملس بشكل مفرط ، بانسيابه الزائد عن الحد ، والذي يلتصق بالجسم عند كل حركة ، يذكره بالجو الملتبس لغرفة الاستقبال الصغيرة الحميمة ، المتاخمة لغرفة أرماندين ، كما أن وشيا بطائر التم على حرف الرداء ، كان يضفي على ذلك الرداء جلالاً مزيفاً .

ـ غضبت ؟...

لا . تفاجأ قليلاً... مشتت الفكر... فهو قادم بعد مفارقته رانكية الكئيب ... وقد صعد الدرج وهو ما يزال يقلب في ذهنه أفكاراً ليس فيها أي شيء يبهج... ولم يفهم في تلك الفجأة ، الخفة الفكهة لدى زوجته وهي تنضو عنه معطفه وقبعته ، وترفع نفسها على رؤوس أصابعها لتنقر وجهه بقبل قصيرة ، وتقوم بحركات حواليه كي تظل تحف به ، يقظة النظرة ، ولون وجهها كله انتعاش ...

لقد اعتادت ، من الأيام الأولى ، أن تبقى في ملابس خفيفة كاشفة ، الجزء الأكبر من النهار ، وتأتي الى المائدة وهي على تلك الحال . ولم يوجه جيل اليها أية ملاحظة . هل تُراها فاجأت نظرته الذاهبة منها الى زوجة عمه التي ترتدي دائماً الأسود ؟

يبقى أنها الآن صارت ترتدي دائماً ، بل تتكلف حتى ، في غرفة الطعام ، بعض التخشب البرجوازي .

(هي) غير عائدة على الغداء .

ولم يجرؤ على طرح أسئلة . لم يعد أبداً ينطق باسم كوليت بعد ، كأنما خشية أن يفضح نفسه .

ـ لا تخف ... لم يجر توقيفها ... اتصلت بالهاتف لتخبر بأنها ستظل منشغلة مع محاميها حتى الساعة الواحدة تقريباً ، وأنها لكي لا تزعجنا ستتناول غداءها عند أمها...

كان انتباهه يطيش منه ، من حركاتها ، ومن ابتساماتها ، وكل مرحها الآني التلقائي والمتوثب ، الذي يسكن جسمها هذا النهار .

ـ أيضايقك أن تأكل وحدك معي ؟...

ـ لا أبداً ...

ـ أعرف جيداً... إنما لماذا تقول هذا بهذه الطريقة ؟... لا يمنع أنك مغرم قليلاً بكوليت أليس كذلك ؟...

وجرّته ناحية البيانو الذي بُسطت عليه أقمشة حريرية لم يكن يعرفها .

ـ بما أنني أصابني ملل هذا الصباح ، فقد اتصلت بالهاتف لعند ماريتان وطلبت اليه أن يرسل لي عينات للستائر الجديدة... بعد قليل سنراها معاً .

أدوات المائدة معدة لشخصين فقط ، على انفراد ، هو وإياها . وبقعة أرجوانية لسرطان بحر : كركند ، جميل .

ـ وانتهزت الفرصة لأوصي على غداء على ذوقي ...

وذوقها كان ، كما بالنسبة للملابس ، كما بالنسبة للأنسجة ، كل ما هو كثير التوابل ، لاذع الطعم ، أو أيضاً مرتفع الثمن ، وكل ما ظلت على رغبتها فيه منذ القديم .

وانتقلت من فكاهتها الى جد رصين ، ولكنه جد رصين مؤقت بكل معنى الكلمة . وتأكدت من أن باب المطبخ مغلق .

ـ أتدري ما الذي فكرت فيه هذا الصباح ؟ وقد لا يروق لك ربما أن أشغل نفسي بهذا ؟... تساءلت فيما إذا السيدة رانكية ... فهذه المرأة تثير في دائماً بعض الخوف وأنا قادرة تماماً على أن أتخيلها وهي تدس السم في الحساء أو في القهوة ... بالمناسبة ... ما دمت قلت لي إنك لن تكون اليوم بعد الظهر هنا ، اتصلت بجيجي كي تأتي لتناول وقعة العصر الخفيفة معي... إنه يوم عطلتها ..هل أحسنت صنعاً ؟...

ـ لكن طبعاً يا حبيبتي... بعض المزيد من الكركند ؟

لقد أحدث فيه غياب كوليت ذاك تأثيراً غريباً . فقد أزيح عن صدره تقريباً ، لأنه يلغي الحرج الذي بات يخيم بعد الآن على المائدة . وفي الوقت ذاته ، انصرفت أفكاره الى المحامي ، الذي كان

شاباً وفتى جميل الصورة ، وهذا العدد الكبير من الساعات تقضيها كوليت بعيداً عنه .

ـ ليتك تعرف كم أنا متعجلة أن تنتهي كل هذه القصة !... فالمنجّد قبل قليل ، حين أتاني بالأقمشة ، قيد الاختيار ، ظن نفسه مضطراً لأن يتكلف سيماء من جاء في واجب مواساة... وحتى جيجي ، أجابتني هازلة عندما دعوتها :

ـ ألن أتعرض لأن يقتادوني الى قصر العدل ؟

ـ ما الذي تفكر فيه يا جيل ؟

ـ بهذا ذاته ...

ـ سترى مخططي لغرفة الاستقبال ... فبدلاً من هذه الستارة قاتمة الألوان ، أرغب بستائر من حرير فاتح ، أصفر قشّي ، أو أخضر لوزي... وهنا ، في غرفة الطعام ، لوحة للرسام جووي فيها أزهار كبيرة حمراء... هل سيعجبك هذا ؟...

ـ طبعاً ...

وفي ذهنه ، ما فكر به هو : لا . وأشعره بالضيق أن يراها منشغلة على ذلك النحو بالشقة . أحس أنها ستجعل ذوقها هي يسود في المنزل ، والذي لم يكن يشبه ذوقه هو .

وغاظه من نفسه مزاجه الشخصي السيئ ، ذلك التوجس المبهم من المستقبل .

ـ تعال ! ... سأقدم أنا نفسي القهوة في غرفة الاستقبال ...

ونشرت الأقمشة الحرير التي تلألأت وهي تعكس ضوء الشمس . وتكلمت عن تبديل وجوه المقاعد . وعند كل خطوة ، كان مشملها ينزاح وبدا له أنها تتعمد ذلك .

والبرهان أنها قفزت بوثبة واحدة لفوق الأريكة .

ـ تعال ، يا جيل ...

وشدته بين ذراعيها فكادت تخنقه ، وعضت شفتيه وقد استولت عليها سورة غرامية حقيقية . بينما ذهب تفكيره هو الى الأبواب التي لم تغلق بالمفتاح ، ومارت أو السيدة رانكية اللتين يمكن أن تدخلا بين لحظة وأخرى ، وزوجة عمه التي قد تكون غيرت رأيها ...

ـ هل تحبني ؟...

لم يحدث لها أبداً أن كانت حية الحركة بذلك القدر ، متقدة بذلك القدر . ولم يتطرق أي شك اليها في أن هذا الاتقاد كان يصدمه ، وفي لحظة ما ، وكانا ساكني الحركة فيها ، الخد على الخد ، فطن الى أن إحدى عيني أليس المفتوحة لآخرها كانت تنظر من فوق كتفه ، وتذكر رؤيته الأولى لمدينة الـ : روشيل ، وهذا الشعر المبعثر ذاته . وهذه العين القاتمة مثبتة نظرها على كوة سفينة الـ : فلينت ...

لم يحدث أبداً أن كانت أليس عشيقة جورج ، صبيّ الحلاق ، ولا أي من الفتيان الآخرين الذين ضموها بين أذرعهم على ذلك النحو ، وشفاههم التي ألصقت شفتيها بها ، لكن الأمر كان هو نفسه كما لو أنها كانت . وأدرك جيل ذلك .

ومن دون أن يكف عن ضمها ، أخذ يفكر بصفاء ذهن . مؤثر بقوة في نفسه ، ويخيفه قليلاً . كانت تحب لأنها تحب . الحب ذاته هو ما كانت تحبه ، المرح ، والحركة ، وفرحة الجسد .

ما الذي كانت تثبت نظرها عليه بهذه العين المفتوحة ؟ هل كانت تفكر من ناحيتها أيضاً ؟ كانا متحدين معاً لأقصى ما يمكن ، وكل يجهل كل شيء عن الآخر ، وكل يتابع حياته الخاصة التي ستبقى للنهاية ملغزة .

واجتاحه أسى ، يشوب هذا الأسى بعض صفاء نفس ، يتعاظم فيه هذا الصفاء لدرجة جعلت روحه أكثر خفة .

وخز الضمير . والضيق المطبق على الصدر ، تلاشيا . ولم يبق بعد إلا مرارة غير محددة . ووعيه أن شيئاً قد آمن هو به ، لم يكن له أي وجود .

عندما ألفى نفسه واقفاً من جديد ، استدار ناحية الركن الذي كانت زوجته تنظر إليه قبل قليل ورأى على الستارة ، على الإطار المذهب لإحدى الصور العائلية ، قرصاً من الشمس يتراقص مرتجفاً .

وسأل : ـ ألم تسمعي أحداً يقرع ؟...

ـ لا أعرف ...

وكاد أن يصيح بها ، لأنها لم تفكر بأن تعيد ترتيب حالها وهندامها . وظلت هناك ، الدم في وجنتيها ، شفتاها ما تزالان رطبتين من القبل ، وعندما قرع الباب فاجأ لديها ابتسامة سعيدة .

وقالت معلنة : ـ هي جيجي!...

كان على يقين من أنها تقصدت فعل ذلك ! بل كان الأمر شركاً تقريباً نصبته له! وعبثاً تظاهرت بالاستغراب ، فهي كانت عارفة ، وهو متأكد من معرفتها ، في أية ساعة ستأتي صديقتها .

واندفعت ، وهي تمسك بيدها بالمشمل متصالباً أمامها ، لتقبل صديقتها .

ـ هل آن أن تكون وصلت أيتها العجوز ؟...

ولم تحدد شيئاً بدقة ، كل تأويل يمكن أن ينطبق ، ومضت الى الأريكة وهي ترد شعرها الى الوراء لتعيد ترتيب الوسائد عليها .

كان جيل يملك بعضاً من وقت ما يزال أمامه ، وصعد الى الطابق الثاني ، وبقي لحظة عند عتبة غرفة عمه .

في الساعة الحادية عشرة ، دخل مع رانكية الى مشرب لوران ، كما كان موفوازان العجوز يفعل في كل يوم ، ووجدا بابان في مكانه ، بالقرب من النافذة ، بين أسنانه سيكار ، وكأس نصف فارغة أمامه . وابتسم بابان ابتسامة ساخرة لدى رؤيته الرجلين يستقر بهما الجلوس ، ولكنه لم يوجه أي كلام إليهما .

تُرى كيف كان يجري الأمر في القديم بين بابان وأوكتاف موفوازان ؟ فكلاهما ، وكما صرح بابان بذلك ، كانا من الفصيلة عينها . وعاش كلاهما الحياة الشديدة الشاقة التي يحياها المصارعون .

كان ثمة تطابق ما آخر في طريقة كل منهما في قضاء يومه . فبيتهما ، وعائلتهما ، لم يكن لهما أي حساب . بابان ، وكل يعرف ذلك ، لم يكن يعود الى البيت إلا عند اضطراره للأمر ، مبدياً علناً تجاه ذويه ، بمن فيهم ابنه ، بمن فيهم ابنتيه ، لا مبالاة محتقرة .

وحياته ، كانت ركن المقهى ذاك من حيث يدير أعماله ، وهو ساكن الحركة بثقل رازح .

موفوازان ، هو ، كان يمضي في السير وحيداً دائماً . متبعاً أرصفة السابلة ، وملتزماً بتوقيت دقيق دقة سيارات السفر الخضراء .

بابان ، من ساعة لساعة ، كان يطلب مشاريب وطلبات متباينة .

وفي الساعة الحادية عشرة كان الرجلان المتوحدان يلتقيان . ألم يكن في ذلك ما يشبه الحاجة لأن يقيس كل منهما الآخر ؟... وما كانا يتصافحان باليد ، أعلم رانكيه جيل بذلك . بل كان موفوازان

يدخل ، مصدراً من حلقه زمجرة مكتومة يمكن اعتبارها بمثابة سلام ، ويحرك يده حركة صغيرة . وكان يقترب من منصة الساقي المصنوعة من خشب الأكاجو . ولم يكن بحاجة لأن يعلن عن طلبه ، فصاحب المقهى ذو الرأس الشبيه بأرنب كان يحضر له حالاً زجاجته اليورتو .

ولا يهم إن كان هناك بعض الناس في المقهى . فالرجلان كانا يتبادلان عبارات قليلة هما وحدهما من يفهمانها .

ـ هل ذهب هرفينو لعند لاپاليس ؟...

ـ رأيته يمر عائداً منذ ربع ساعة .

ـ متعهد بناء ظن نفسه قوياً بما يكفي ليعمل وحده ،والذي كُلِّف موظف دائرة التنفيذ بالإجهاز عليه .

ـ الـ «لوسيول» ؟

ـ أحد مراكب پلانتيل ، احتجزته السلطات في أرخبيل الآسور البرتغالي لأنه كان يصيد في مياه محرمة . وقد اقتضى الأمر اللجوء الى تدخل جهات نافذة رفيعة المقام . وزير البحرية التجارية شخصياً أُخطر بالأمر ...

زجاجة اليورتو هذه على منصة الساقي... ولم يكن موفوازان يشرب نبيذ پورتو كل الناس... كانت له زجاجتـ(ـه)... وعند نفاد المخزون منها ، كان يرسل صندوقاً من عنده الى مشرب لوران...

وفكر جيل ...

ـ يجب أن أسأل طبيباً عما اذا يمكن وضع زرنيخ في نبيذ پورتو من دون أن يلاحظ من يشربه ذلك ...

أهو بابان ؟... في هذه الحال يتعين افتراض تواطؤ صاحب المحل ذي الرأس الشبيه بالأرنب...

حتى الآن ، لاشيء غير هذه الفرضية ، مع فرضية السيدة رانكية...

ـ هيا ...

نظرة شاملة جديدة ، جولة سريعة في مكاتب السيارات . وأحياناً ، توقيع ، وهو واقف . ثم الغداء ، هناك ، فوق ، وهو صامت ، منفرداً وجهاً لوجه ، مع كوليت .

الآن ، هي ساعة القيلولة . وكان موقوزان ، بثقله ، يرخي نفسه ليسقط على مقعد غرفته . ويبقى هناك ، بلا حركة ، ذراعاه متدليان ، وعيناه مغلقتان ، الفم مفتوح ، طوال ساعة ، وتؤكد السيدة رانكية أنه كان يشخر .

ـ لم يكن يتناول قهوة عند الظهر ، لا في غرفة الطعام ، ولا في غرفة نومه ، بسبب قلبه...

ورأى جيل من النافذة رانكية ، الذي كان ينتظره أمام سياج المنزل وهو يتأمل حركة ذهاب وإياب سيارات موقوازان . ونزل لينضم إليه . ولدى مروره أمام شقته ، سمع جيل ضحكات ترن مرتفعة ، وضايقه الأمر ، كما لو أنه كان متيقناً من أن أليس تفضي الى صديقتها بأسرار عن دخائل زوجية صميمة .

ـ هل أنت جاهز يا سيد جيل ؟... الآن ، ساعة توقيع البريد... بالمناسبة ...

وجرّ الشاب منتحياً به ، بمنأى عن حشد الناس المتجمهرين حول السيارات .

ـ أجهل إن كان هذا يحمل أهمية ما ... التقيت وأنا ذاهب الى الغداء أحد زملائي القدامى . فبين الرسائل المغفلة التي تتلقاها الشرطة يومياً حول هذه القضية ، واحدة منها تتهم پوانو بأنه ، في ليلة كان ثملاً فيها ، تفوه بتهديدات ضد رب عمله ... ويبدو أنه كان يمقته ...

ـ أعرف ...

وتذكر جيل السرقة ، وموقف موڤوازان . لكن أيمكن لپوانو ، المشغول على الدوام في الكنيسة القديمة ، أن يسمم عمه ؟

ودخلا الى الردهة الواسعة . ووجد جيل في المكتب حماه ، الذي كان يبدو عليه دائماً ، اذا ما دخل أحد عليه وهو في عمله وكأنما فوجئ في لحظة خطأ ما .

ـ قل لي يا بابا (: عمي)...

وشيء يثير الفضول ، ففي ذلك اليوم ، وجد جيل صعوبة أكبر مما في الأيام السابقة في أن ينطق بكلمة « بابا » وهو ينظر الى الرجل ذي الحاجبين المشعثين والجمجمة العاجية .

ـ كان عمي يأتي ليراك في مثل هذه الساعة ، أليس كذلك ؟

ـ كان يدخل ... ويجلس في مكاني من دون أن يقول شيئاً... وهو يملك أن يفرش مكتباً خاصاً به ، إلا أنه لم يشأ ذلك... ولما اقترحت عليه ذات مرة ، نظر إلي وكأنما ليفهمني بأنني أتدخل فيما لا يعنيني... حتى ولم تكن له مسكة ريشة خاصة به... كان يأخذ التي أستعملها أنا... والبريد الذي يتوجب توقيعه موضوع في هذا المصنف البني ... وقد يخيل للمرء أنه لا يقرأ شيئاً ، ومع ذلك فإنه كان يعرف ما هو هذا الذي يوقع عليه... كان يسحق الخطوط الرأسية للميم والنون بيد ثقيلة ... وبين حين وآخر ، ينفخ وهو ينظر عبر النوافذ ... ويقول لي وهو ينهض :

«ـ طاب مساؤك يا سيد لوپار .

« ذلك أنه كان يستخدم كلمة سيد مع كل الناس ، حتى لو أن ذلك مع أصغر المبتدئين في العمل ، إنما كانت له طريقته في النطق بمقاطع هذه الكلمة ، سيّد... ولا يعرف المرء إن كان يسخر أو أن في ذلك ازدراء مكنوناً...

ومجدداً الأرصفة والطرقات التي تقطعها الشمس الى نصفين : رصيف أسود ، ورصيف يتألق .

ورانكية يواصل تلاوته :

ـ كان يدخل مرة ثانية الى مصرف أوفرار . في هذه الساعة ، يتم تلقي الأسعار الأخيرة من باريس... تصل أيضاً الصحف الكبرى... فيشتري ستاً أو سبعاً منها ينتفخ بها جيبه الأيسر وتظل بارزة خارج الجيب... يوصلنا هذا يا سيد جيل الى الساعة الرابعة تقريباً... ولمدة ساعة ، كان البرنامج يتنوع هنا ... وهي الفترة التي وجدت بالنسبة إليها العنت الأكبر في إعادة تكوين صورة ما كان يفعله فيها... فهو أحياناً كان يقصد ساحة آرم ويدخل لعند السيد پونو ـ راتو ، عضو مجلس الشيوخ... ولم أذهب الى هناك ، لأنني ولاشك كنت سأعرّض نفسي للطرد... وأحياناً أخرى ، يذهب الى شارع غرغوللو دافعاً الباب على الأستاذ هرفينو ... كان يجتاز الردهة التي يعمل الكتبة فيها من دون أن يحيّي أحداً ، وحتى في حال انشغال الكاتب العدل فإنه كان يدخل الى مكتبه ذي الباب المبطن . وفي أحيان أخرى يقوم بجولة على محلات باس ويلانتيل ... وذلك في يوم اجتماع ما يسمونه الـ : « سنديكا »... وقد استوقف انتباهي أحد التفاصيل : هو أن عمك في تلك الاجتماعات كان يصل دائماً الأخير ، وينصرف منها أول الجميع بشكل ثابت ...

وبما أن الرجلين كانا يمران في زقاق الـ : إيڤسيكو ، نظر جيل الى نوافذ البيت الذي تقيم فيه والدة زوجة عمه ، ولكنه لم يلحظ أحداً وراء الستائر . أتراه أمل في أن يلمح كوليت ؟

زقاق الـ : إيسكال ، وهذا ، إنما هو الجدران التي كانت رأت غرام أمه وأبيه ، وهو الباب ذو القوس المنتظم في جزئه الأعلى للمعهد الموسيقي الخاص .

كان رانكية يفتح دفتره الصغير ، ويستشير ملاحظاته .

ـ حوالي الساعة الخامسة ، يدخل عمك لعند السيدة إيلوا .

مرا من تحت الساعة العامة الضخمة ، وبلغا الأرصفة حيث كانت حركة الحياة في أوجها . بدت سطيحتا المقهيين ، بسبب الشمس المبكرة ، ممتلئتين بالناس ، الذين أخذوا ينظرون الى وارث موڤوازان برفقة المفتش السابق .

ـ هل ستذهب الى هناك ؟...

وتردد جيل .

ـ جاءتني معلومات من أمين مستودع تربطه قرابة بعيدة بزوجتي... يبدو أن خالتك ، حال رؤيتها طيف قامة أوكتاف موڤوازان ترتسم على الرصيف ، كانت تعلن :

« ـ هوذا الدب .

« هكذا كانت تدعوه دائماً . وحينما يضع عمك يده على زر الباب ، كانت خالتك إيلوا تضغط على قرص كهربائي يتصل بالشقة السكنية . ويعني ذلك أنه آن الأوان لإعداد صينية الشاي وإنزالها... »

وتوقف جيل ورانكية عند مرسى مراكب جزيرة ري وجزيرة أوليرون . كان أحد تلك المراكب جاهزاً للإقلاع ويجد بحارته عنتاً في دفع أبقار معاندة للصعود الى ظهر المركب ، والجمهور يضحك .

ـ وكان يتفق أحياناً وجود ابن خالتك بوب في المتجر ...

فيبادر هذا الأخير إلى الاختفاء... إذ لم يكن عمك يريد رؤية وجهه ... ويدعوه بـ : « السافل » والأم لا تجرؤ على الرد بشيء...

وكان موڤوازان يسأل وقبعته على رأسه ويداه في جيبيه :

ـ والسافل ابنك ؟...

كان يحب أن يطوف في المخزن فيمسك في يده علبة سردين ، أو عبوة وقود ، يفتش ، ويشرق نفساً بأنفه كي يشم ، ويسأل :

ـ من الذي باعكم هذا ؟... بكم ؟

« ويرتجف الجميع ! وتومئ السيدة إيلوا الى المستخدمين بإشارة من مكانها كي يلزموا الصمت . واذا حدث ووجد رئيس مركب منشغلاً بتقديم طلبيته ، كان موفوازان يصغي ، وفجأة يأخذ هو الكلام ، ويبت بالأمر ببضع كلمات نهائية...

« ولا تتأخر الخادمة في النزول بصينية الشاي فتضعها على مكتب خالتك المغطى بلوح بللور ، وعندئذ فقط ، كان موفوازان يدخل الى ذلك المكتب . في الشتاء ، كان يتدفأ ، مديراً ظهره للموقد . وفي الصيف ، ينزع قبعته ليجفف جبينه ثم يعيد وضعها على رأسه...

« العصرونية هي ذاتها ، لا تتغير ... قدحان... شاي خفيف... وشرائح خبز محمص يمد عمك عليها معقود برتقال ...

« وشأنه دائماً حيثما حل ، فهو إنما كان يجلس في مكان السيدة إيلوا ، بحيث أنه يبدو وكأنه هو رب العمل . ويقرأ بصفاقة الرسائل التي تقع تحت يده ، وقوائم الحساب ، والأسناد المالية...

« هوذا كل ما تمكنت من معرفته يا سيد جيل... واذا دخلت أنت لعندها ، فقد يكون من الأفضل أن أنتظرك ؟

في شبه الظلمة السائد في المخزن الذي لا تصله الشمس ، ميّز جيل وجه خالته وطيف قامتها القائمة . وخيل إليه أنها كانت تترقبه . واتخذ قراره ، فاجتاز الشارع وأدار زر الباب .

وخلافاً لما توقع ، فإن جيراردين إيلوا لم تحيّه . ظلت واقفة بالقرب من منصة محاسبة ، تراقب اثنين من المستخدمين يعدان إحدى الطلبيات لتسليمها . كانت أكثر تيبساً من أي وقت آخر .

وحجرة الكاميه ، القمعول ، التي أنزل نقش بالذهب عليها ، في مكانها على صدر قميصها .

وتمتم بحرج :

ـ طاب يومك يا خالتي ...

وتظاهرت بأنها تلحظه لتوها فقط ، وبدلاً من أن تحييه ، فإنها نطقت بكلامها وقد صارت أكثر شحوباً بعض الشيء :

ـ ما طلبك ؟ .لا أجهل أنك تعتبر نفسك هنا على أن المحل محلك... بل وقريباً ستحتل مكانك فيه بمعنى الكلمة ...

ـ لكن ...

ـ إن شقيقة أمك لا يمكن أن تقبل بإرسال شرطة يحومون حول منزلها ...

وسارت حتى بلغت الباب الزجاجي ، ونظرت علناً بطريقة جهيرة الى رانكية الذي ينتظر على الرصيف الآخر...

ـ عند نهاية هذا الشهر ، يكون المكان حراً وتحت تصرفك... هذا هو ما ترغب فيه أليس كذلك ؟...

وانتاب جيل انقباض أطبق على صدره . لم يتخيل أن امرأة في الخمسين من عمرها ، سيدة أعمال مثل خالته ، التي اشتهرت بقوة الشكيمة صنو الرجال ، يمكن فجأة ، أن تظهر وقد أعيتها الحيلة وأسقط في يدها ، مثل بنت صغيرة .

وتوجس خشية من اللحظة التي ستنفجر فيها منتحبة . إذ أحسها وقد بلغت الحافة في مقاومتها . وأخذ يبحث عن شيء يقوله لها كي يهدئها ويطمئنها .

وفي اللحظة ذاتها ، كان بوب يهبط الدرج اللولبي وظهرت في البداية ساقاه ، ثم بان جذعه . وانحنى مطلاً بوجهه المكتنز بالدم .

وعندئذ ، هرعت أمه وقد استولى الذعر عليها باتجاه صدر المخزن . واندفعت على الدرج . تعثرت . وأرغمت بوب على الصعود ثانية لفوق .

وفي المكان الفسيح الذي ساده الصمت فجأة ، الذي تملؤه الرائحة الحارة لقار النرفج والتوابل ، أخذ المستخدمان ينظر أحدهما للآخر وقد جمّدهما الخوف ، وينظران الى جيل الذي أخذ يفقد رباطة جأشه واتجه ناحية الباب .

- ٣ -

كانت الساعة هي التاسعة تقريباً عندما ترك جيل سيارته بقرب جدار منخفض ، واتجه محمل الذراعين بالرزم والربطات ناحية مجموعة منازل صغيرة تلمحها العين على بعد مائة متر تقريباً .

كان الهواء ذا لذع ، والطبيعة في كل نضرتها الصباحية ، ودرجات الألوان وجَرْس الأصوات تشي كأنما بطهر روحي ، والضجة تتراكب الأصوات فيها : قوقأة الدجاجات وهي تهرب بين ساقي جيل ، ومطرقة الحداد في ساحة القرية ، والخوار في اسطبل بعيد .

وقد شوهد قدومه . وأطلت امرأة من على عتبة بيتها ، ثم امرأة أخرى في منزل مجاور ، وأخذ أطفال قذرون يتقدمون نحوه في الطريق .

ويندر أن عانى جيل من ارتباك خجول بذلك القدر ، عندما وقف ، والربطات والرزم على ذراعيه ، أمام البيت الذي ولد أبوه وعمه فيه .

وتمتم ، شاعراً بالخيبة حين لم يلق إلا امرأة عامية تتفحصه بارتياب من رأسه الى قدميه .

ـ ما الذي تريده مني ؟ لعلك جئت بالحصة التي آلت إلينا من الميراث ؟...

وتساءل جيل في سره كيف أمكنها أن تعرف من هو . وحين أفسحت له كي تدعه يدخل ، رأى على الطاولة ، بالقرب من قدح قهوة بحليب ، جريدة الصباح وصورته شخصياً ماثلة على الصفحة الأولى .

وأعلمها بلهجة خائبة :

ـ أحضرت بعض الأشياء الطيبة للأطفال .

عندما روت له كوليت زيارتها لنيول ـ على ـ البحر تكونت لديه صورة غير هذه عن المنزل ونزلائه . في ركن من الغرفة الكبيرة ، كان هنالك سريران غير مرتبين ، وفي أحدهما ، فتاة صغيرة لم يغسل وجهها .

ـ لا تنتبه للأمر ... معها الحميراء... وأنتما الآخران ، اذهبا والعبا في الخارج .

وأخذت تردّ صبيين صغيرين ، أحدهما في السادسة ، والآخر في الرابعة يحاولان أن يطولا الرزم . ورفعت عن الأرض طفلاً أصغر لا يمشي بعد ، وذهبت به تضعه عند حافة الطريق .

كانت القذارة هي السائدة . وعلى الأرض قدور طهي مبعثرة . وبضعة أحطاب متجمّرة تحترق في الموقد .

ـ هل تفضلت بالجلوس ؟...

المقعد الخيزران الشهير إياه كان هناك ، مخلّع لدرجة ، بحيث أن جيل لم يفهم كيف أن عمه لم يسحقه في جلوسه عليه . وفوق المدفأة ، اشتبكت نظرته متعلقة بصورة ، وبقي لحظة لابأس بها ، مبتهج القلب ، مضطرباً ، وهو يتأملها .

كانت صورة شخصية قديمة الآن ، صورة أختين لابد أنهما في حوالي العشرين من العمر . الأنمى جسماً من الاثنتين ، ذات الأنف الأفطس ، كانت تشبه شبهاً مبهماً بعيداً ابنة الخالة التي أمام جيل .

وسألها : ـ أمك ؟

ـ طبعاً .

والأخرى كانت جدته هو ، والدة عمه موفوازان . في غرفة عمه ، كانت هنالك صورة لها بعد أن صارت عجوزاً قصيرة . هنا ، وهي في السابعة أو الثامنة عشرة ، كانت رقيقة العود ، ناعمة ، وما استرعى انتباه جيل كان جانب غير مادي يذكر بكوليت .

ـ هل ترغب في أن تشرب شيئاً ؟...

وذهبت الـ : هنريكية الى عتبة البيت لتصيح ، بصوت يطلق صراخاً ، على صبيّها الصغيرين اللذين يتشاجران على الطريق .

ـ أعرف جيداً أنك ابن أخيه . هذا لا يمنع أن الوعد وعد وعندي فضول لرؤية تلك الوصية... ولو أنني أعرت أذني للبعض ، فالأمر ما كان ليجري على النحو الذي جرى عليه...

ـ ما المبلغ الذي كنت تأملين بتلقيه ؟...

ـ وهل أدري ؟... بكل الأحوال ، ما يجعلني أربي الأولاد...

ـ خذي على أية حال خمسة آلاف الفرنك هذه الآن ، وسآتيك بغيرها...

وبدلاً من أن تشكر ، فإنها نظرت إليه بمزيد أيضاً من الارتياب . وانتهى الأمر بها لأن تتناول أوراق النقد آخر الأمر ، التي كان وضعها على الطاولة .

ـ هل يجب أن أوقع لك على إيصال ؟...

ـ لا يستحق الأمر... الى اللقاء يا ابنة الخالة ...

وكان بوده لو يأخذ معه صورة الشقيقتين ، الا أنه لم يجرؤ على أن يطلب ذلك . وعندما رجع الى سيارته ، كان الولدان يحيطان بهذه . ركبهما مفرطة الضخامة بالنسبة لسوقهما النحيلة ، ووجهان غير منتظمي الخطوط ، ومن الآن ، ذلك التعبير عن حزن رافض الذي ورثاه ولابد عن الأم .

وأوقف جيل بعد ذلك ببضع دقائق السيارة في ساحة القرية . كانت دكان الحداد مفتوحة والنار محمرّة في عتمتها ، وحصان موسوق الى حلقة ينتظر أن توضع حدوة له .

وغير بعيد ، مقهيان . وكان ساعي البريد في أحدهما يبتلع كأس نبيذ أبيض ، وبدا يجر قدمه في طريق عودته الى الساحة وهو يمسح فمه . كان ذلك هو هنريكية ، من أبناء الخالة بالنسبة لجيل ، وزوج المرأة التي كان قد قام بزيارتها .

وراقب الرجلان كل منهما الآخر من بعيد . وغمغم ساعي البريد بكلمات لابد أنها غير ودية ، وبعد أن التفت عدة مرات ، تابع جولته .

أما جيل ، فإنه دخل المقبرة التي كان رجل هرم قصير أبيض الشعر ينظف الممرات فيها .

وربما كانت نُضرة الصباح يحسها هنا المرء بوضوح أكبر مما في مكان آخر ، فالعصافير يلاحق بعضها بعضاً بين أشجار السرو ، بينما أخذ شحروران يتجاوبان في تغريدهما ، لا تراهما العين ولكن يُسمع تواثبهما بين الأغصان الدغلية .

ورفع الرجل الهرم رأسه ، ولمس بيده قبعته الكاسكيت وتنقل جيل من قبر لآخر ، وهو يقرأ الكتابات المنقوشة ، وبخاصة الأقدم بينها . والتقى مجدداً أسماء لاحظ مثلها على بعض المتاجر في الـ : روشيل ، وكذلك ، عدة قبور هنريكية .

وأخيراً ، غير بعيد عن حائط السياج ، حجرة مسطحة ملساء .

يرقد هنا أوتوريه موڤوازان

استدعاه الرب الى جواره وهو في الثامنة والستين من عمره

صلوا لأجله

كان ذلك هو قبر جده .

وهذا الأخير ، وفقاً للصورة التي في الغرفة في رصيف الـ : أورسولين ، كان يشبه على الأرجح الرجل الهرم الذي يمشط الممرات منظفاً إياها من الأوراق الميتة ، إنما ببنية أصلب . وهو في أيامه الأخيرة ، عمل في فرن الكلس ، الذي يبدو للعين من فوق جدار المقبرة .

وظلت أصوات القرية تبلغ أذني جيل ، كأنما اكتسبت الصفاء والنقاوة وهي تجتاز الزرقة الراعشة للفضاء . ورائحة خفيفة لعظم يحترق : لابد أنه البيطار باشر وضع الحدوة للحصان .

ترقد هنا ماري ـ كليمانس موڤوازان

زوجته ، اسم عائلتها عند الولادة : بارون . المتوفاة وهي في الثانية والستين من العمر/ جمع الرب بينهما

ولمح بنظرة قبة جرس الكنيسة ، بالعلم مثلث الألوان الذي من الزنك ، والناقوس الذي كان قد قرع في إيقاع جنائزي . وتخيل الفلاحين ، والفلاحات بالأسود ، ووراء عربة جر ثقيلة تمّ تحويلها الى عربة دفن موتى .

هل جاء أوكتاف موڤوازان لحضور الدفن ؟ لابد أنه ، بكتلة جسمه الكثيفة ، في الصف الأول ، كان الرجل الوحيد الذي من المدينة ، وأهل القرية ينظرون بفضول الى الرجل الذي صار على ذلك القدر من الثراء .

والد جيل ، هو ، لم يحضر لا هذه ولا تلك من الجنازتين . كان بعيداً ، في إحدى مدن وسط أوربا أو الشمال .

ولاشك أن المنزل الصغير في حينها كان نظيفاً وحسن الترتيب . إن صبيّين رحلا منه . أحدهما أراد أن يدرس الكمان في المدينة . والآخر...

ورسم جيل إشارة الصليب . وظل وجه جدته بملامحه الدقيقة يلاحقه . وتصل لعنده رائحة حزينة لأزهار ذابلة ذلك أنه كان هنالك قبر غير بعيد ما يزال حديث العهد .

والتفت وراءه حين لم يعد يسمع صرير الشوكة على حصى الممشى ، فرأى العجوز وقد رفع قبعته ليمسح عرقه وهو ينظر الى جيل .

وعندما مر هذا الأخير بقربه ، فانه تردد وبذل جهداً للسيطرة على خجله ، وتمتم أخيراً :

ـ إذا خطر لك أحياناً أن أرعى حال القبر قليلاً ...

هو أيضاً كان رأى الصورة على الصفحة الأولى .

ـ هل عرفت جدي ؟

ـ بالطبع عرفته... وقد ذهبنا الى المدرسة معاً... ليس لمدة طويلة ، لأنه في القديم ، لم يكونوا ينتظرون أن تنبت اللحية كي يذهب المرء الى العمل... عرفت جيداً ماري أيضاً ... من الذي كان يمكنه أن يتوقع ، في حينها ، أن الأمور ستنتهي على هذا النحو! أتعتقد أنت ، أن امرأته هي حقاً التي سمّمت أوكتاف ؟

وحدق العجوز به ، وقد تشجع ، بنظرة ثابتة مستقصية .

وقال جيل : ـ يقيناً أنها ليست هي .

ـ إذن من ؟ نحن ، لا نعلم عن القضية إلا عن طريق الجريدة...

مؤكد أن هذا الرجل كان له أعداء... وبعد!... إذا أردت أن أُعنى لك برعاية القبر ، سيكون ذلك كما بالنسبة للزبائن الآخرين... لن يتوجب عليك إلا أن تعطيني قطعة كل عام في عيد جميع القديسين... إنني أنا من يتولى العناية بها كلهاتقريباً...

وقد شعر جيل في نفسه بأنه يود لو يمنحه إكرامية . إنما لم يجرؤ . ففكرة أن هذا العجوز قد ذهب الى المدرسة مع جده ، وأنه عرف جدته ، وربما رقص معها ، عندما كانت رقيقة القوام الى ذلك الحد وشديدة النعومة ، في عيد القرية ...

وبعد عدة لحظات انقضت على ذلك ، صعد مجدداً الى سيارته ، وانطلق على طريق الـ ' روشيل .

ولم تزدد معلوماته حول مصرع عمه أوكتاف موڤوازان ، ومع ذلك ، فقد بدا له أنه بدأ يفهم أشياء كانت من قبل بالنسبة اليه غير ذات معنى . ورأى المنزل الذي ولد أبوه فيه ، ورحل منه نحو مغامرة على ذلك القدر من الغرابة ، وقدّر لها أن تنتهي في الترڤيج .

وجه جدته الناعم ، استمر يبتسم له... كانت من الفصيلة ذاتها التي منها كوليت... ومن يدري ، لعل موڤوازان ، وبسبب ذلك الشبه الخفيف المبهم ، تزوج من عاملة ارشاد الزبائن في صالة عرض الأولمپيا ؟...

وبخاصة...

ـ نعم . الأمر هو ذاك بالتأكيد ...

قالها فجأة بصوت منخفض ، وهو يضغط على المكابح في اللحظة الحرجة بالضبط ، ليتجنب الدخول في عربة جر أمامه محملة بالقش .

نعم . أوكتاف موڤوازان ، الرجل الذي لا يصاحب أحداً ، الرجل المتوحد والذي لا يتكلم ، ولا يحب ، الرجل الذي ليست له في حياته

إلا مباهج ذات لذع شائك ومنعزلة ، اذا كان يأتي في كل أسبوع ليجلس في المنزل الذي ولد فيه ، فإن ذلك لم يكن بقصد أن يسمع ندب ونواح بنت الخالة مُرّة النفس ، ولا لكي يجد نفسه وسط أطفال بهم شوه ومفتقرين للعناية بأمرهم .

وعندما يجلس على المقعد الخيزران ، فإن صورة الصبيتين هي التي كانت نصب عينيه ، والوجه الأثيري الذي لأمه .

وهذا اليقين كان شديد الرسوخ عند جيل ، لدرجة أنه كاد يهم بأن يمضي للتحقق منه على الفور . وكان فعل ، لولا ذلك النفور الكبير الذي انتاب نفسه من أن يجد نفسه مجدداً في حضرة ابنة الخالة ، هذا اذا لم يؤخذ بالحسبان كذلك أنه في مثل تلك الساعة يجازف بأن يلتقي ساعي البريد في بيته .

ما أراد أن يسألهما إياه هو عما اذا لم يحاول موڤوازان قط أن يحمل الصورة معه .

ولابدّ أنه طلب ذلك . وكانت لدى جيل فراسة كافية بالنسبة لتلك المرأة كي يدرك أنها قالت «لا» في المرة الأولى ثم تشبثت بإجابتها بعناد غبي .

فلئن رغب موڤوازان بالصورة ، معنى ذلك أنها ذات ثمن مرتفع . ولماذا يأتي وليس في يديه شيء ؟ وتخيل جيل أحاديثها ، في الليل ، مع ذلك السكير زوجها الذي يختم جولته وهو يترنح :

ـ هل جاء ؟ ... ألم يحضر شيئاً معه ؟... ماذا تنتظرين لتقولي ذلك له ؟...

وبلغ جيل خلال ذلك ساحة آرم . وكانت الساحة المردومة الواسعة لا أثر فيها لأي ظل ، بينما خيم المقاهي المحيطة بها تضفي زينة على الإطار بلمسات لونية حمراء وصفراء وبرتقالية .

لماذا انتابت جيل الرغبة في أن يجلس لحظة في الفيء ، في مقهى الـ « كافيه دو لاپيه » ، وأن يتذوق شراباً بارداً ، وأن يدع بضع دقائق تنقضي فارغة ومريحة ؟... وقد تردد . فهو يندر أن يرتاد مقهى . وفي النهاية ، هبط من سيارته وأخذ مكانه وراء إحدى الطاولات في الصالة .

ولم ينظر فيما حوله . وعندما فعل ندم على قراره . ففي مواجهته فعلاً ، جلس ثلاثة أو أربعة شبان يتناولون كؤوس فاتح شهية ، وبوب من بينهم .

ـ كأس ليمون معصور أيها النادل... أو بالأحرى لا... قدح بيرة...

فذلك يتطلب وقتاً أقل من عصر الليمون . وكان بوب ينظر إليه بعينيه الكبيرتين الوقحتين ، والآخرون يلتفتون صوبه . يدور الحديث حوله ، طبعاً...

ورفع بوب صوته طالباً :

ـ أربعة پيرنود يا أوجين .

ويحس المرء أنه على سجيته وهو في وسطه . فعلى ذلك النحو ، من مقهى لمقهى ، كان يقضي معظم نهاره ، وباضطراد مع تقدم النهار ، يزداد وجهه اتقاداً ويشتد وميض عينيه ويعلو صوته .

هل شرب قبلها ذلك الصباح ؟ على أساس صحون الكؤوس التي على طاولته ، كان في قدحه الثالث من فاتح الشهية .

وكان جيل راغباً بالرحيل عن المكان ، ولكن النادل يتأخر في تقديم طلبه . وبدأ يعتريه نفاد صبر . وكأنما شعور مسبق ينتابه . فالكلام ما يزال يدور عنه في الناحية الأخرى من الصالة ، وابن خالته إيلوا تتصاعد حرارته .

وبعدما قال بصوت منخفض عدة كلمات ، صاح :

ـ منذا الذي يزعم بأنني انفشّت عزيمتي ؟...

وأخذ الآخرون يحاولون تهدئته ، متمنين ربما في الوقت ذاته ألا يهدأ .

وعندئذ ، ولكي يبرهن على أن عزيمته لم تنفشّ ، نهض دافعاً عنه الطاولة ذات السطح الرخامي . ولما كان النادل قادماً حاملاً الصينية ، فإنه شرب ، بلا ماء ، المحتوى الضارب الى الصفرة لأحد الكؤوس ، ماسحاً فمه بالحركة السوقية ذاتها التي رآها جيل قبل قليل ويقوم بها ساعي بريد قرية نيول .

ولم يلبث أن تقدم ناحية ابن خالته . وسأل بعدوانية ، حريصاً على أن الجميع كانوا ينظرون إليه .

ـ أهو التجسس الذي يستمر ؟...

ولم يتحرك جيل ، ولم يجب بشيء . ظل جالساً في مكانه وتجنب أن ينظر الى بوب مباشرة .

ـ ألست قادراً على أن تجيبني ، لا ؟... تبدو شديد التباهي بالنسبة لفتى يعاشر المرأة التي دست السم لعمه...

وما عاد بمقدور جيل أن ينصرف . فالآخر كان يسد عليه سبيل المرور . وكان بوب أقوى بدنياً بكثير منه . إضافة الى شراسة الطبع التي لصالح بوب . وفجأة ، قبض هذا على جيل من كتفيه فأنهضه من على كرسيه ، ثم ، وبعد أن أفلته بيده اليمنى ، ضربه على وجهه مرة ، وثانية ، وثالثة ...

وهرع رفاقه وحاولوا أن يجروه الى الوراء .

ـ أيها الوسخة التافهة... عندما أفكر بأن مثلك يأتي ليتحدى أمي ، ويطلق الشرطة في أعقاب الناس...

حين استعاد جيل ما يكفي من حضور البديهة ليدافع عن نفسه ،

كان أوان ذلك قد فات . فقد أفلت بوب قبضته في نهاية المطاف . وفي الشارع ،توقف مارة كانوا في سبيلهم ، ذلك أن نوافذ المقهى كانت مفتوحة على عرضها لترك هواء الربيع يدخل .

وتمتم النادل :

ـ ليتك تتبعني من هنا من فضلك .

وفهم جيل القصد حين رأى يده ملطخة بالدم . وسلم أمره للنادل يقوده الى المغاسل حيث أعطوه منشفة . كان أنفه وخده متورمين ، يلذعانه .

ـ السيد بوب فظيع في حبه الشجار... يجب عدم جعل الأمر فضيحة...

لم يكن ذلك وارداً . وفي انصرافه الى غسل وجهه بالماء البارد ، لم يكن في نفسه أي غضب ، أو أي حقد . بل حزن بالأحرى هو ذلك الذي تغلغل فيه .

فقد جرى إفساد نهار له هو أحد أكثر الأيام صفاء قضاها منذ أن نزل في مدينة الـ : روشيل ، في اليوم السابق لعيد جميع القديسين ، بمعطف مفرط في الطول وقبعة غريبة من فرو القضاعة على رأسه .

وقبل نصف ساعة ، في مقبرة نيول الصغيرة النابضة بحياة الأشياء ، تولد الانطباع لديه بأنه في غاية القرب من الحقائق الكبرى ، ومن اليقينيات العظيمة...

بخيبة في التصرف والتوقيت ، قال النادل له :

ـ يمكنك أن تأتي ... إنه رحل... هل أقدم لك البيرة النصف التي طلبت ؟...

وشربها جيل واقفاً ، ليبدد طعم الدم في فمه . وتبعه بعض من

كانوا بجواره بعيونهم الى أن بلغ سيارته . ولم يكن يشعر بخزي لأنه تعرض للضرب . ذلك أنه لم يحدث أن كانت قوته البدنية هي ما يتباهى به .

قضى وقتاً طويلاً وهو لا يتمكن من تشغيل محرك سيارته لأنه كان مشغول البال . وعندما أدرك الأرصفة ، في الساعة التي تنزل قوارب السردين أسماكها فيها ، لم يكن بوب هو الذي يشغل فكره .

وألقى آلياً نظرة عابرة على البناء الضخم الذي يؤوي مكاتب «باس وبلانتيل» ، ثم ، أبعد قليلاً ، على مشرب «لوران» ، حيث راوول بابان يقوم بنوبة حراسته فيه وراء الستارة التي بلون الزبدة .

وصعد درج منزل رصيف الـ « أورسولين وهو شديد الانفعال ، فاتحاً بدفعة واحدة منه باب غرفة الاستقبال . كانت أليس واقفة ، وذراعاها منفرجتان ، بينما انشغلت خياطة ، والدبابيس بين شفتيها ، بقياس «تايور» ربيعي عليها .

ـ هل كوليت فوق ؟

ـ لم أسمعها تنزل ... جيل!... ماذا بك ؟

صدمها تعبير وجهه ، والتعجل المحموم الذي في حركاته . وبعدةخطوات واسعة بلغ شقة الطابق الثاني . وكاد أن يرتطم بالسيدة رانكية التي نقزت ، هي أيضاً ، حين رأته .

كان أنفه وخده متورمين . وسأل :

ـ امرأة عمي ؟...

ـ إنها في غرفتها .

ولم يخطر له أن كوليت قد يمكن أنها مشغولة بارتداء ملابسها .

ودفع الباب مثلما كان دفع باب غرفة الاستقبال ، وفاجأها وهي ترتدي قميصها ، ولمح نظره قليلاً جداً من صدرها .

ـ عفواً ... يا امرأة عمي!... يجب أن تأتي لحظة... أعتقد ...

ـ ماذا بك يا جيل ؟... هل وقعت ؟...

ـ هذا لا شيء... أعتقد يا امرأة عمي أنني وجدت...

ـ وجدت ماذا ؟..

ـ «الكلمة»...

وروعه الأمر . وهو على عجلة لأن يعرف ما اذا كان على حق ، واذا كان الصندوق الرهيب سيسلم أخيراً سره .

منذ ثلاثة أيام ، وكوليت متوقع توقيفهامن دقيقة لأخرى ، لدرجة أن هذه ، وبهدوء ثابت الجنان غير منتظر ، كانت أعدت حقيبة صغيرة لليوم الذي سيقتادونها فيه الى السجن .

ـ أما يزال المفتاح في الدرج يا امرأة عمي ؟... تعالي... يجب أن تكوني حاضرة ...

كانت قد انتهت من ارتداء ملابسها ، بينما ذرات دقيقة من غبار مذهب اللمعان كانت تتيه في شعاع شمس يجتاز غرفتها في خط مائل .

كل تلك التفاصيل سيستعيد تذكرها فيما بعد ، ليس من دون استغراب . لأنه لحظتها لم تلفت نظره .

ـ انتبهي . ذهبت هذا الصباح الى نيول...

ـ وكلّمتك ابنة الخالة ؟...

ـ لا ... ولا أعرف بعد إن لم أكن مخطئاً... تعالي...

وأخذ يجرها معه . يلمس أحدهما الآخر في تماس خفيف خفيف من دون أن يقصد... وشد بغتة يدها بحمى...

ففي اللحظة الأخيرة ، استولى خوف عليه . خوف ليس فقط من أن يكون أخطأ ، بل خوف أيضاً من الصواب ، خوف مما هما مقدمان على اكتشافه ، وخوف من كل ما قد يعقب ذلك . وبدا له أن الأشياء ، بعد الآن ، لن تعود كما كانت عليه ، وأن كوليت سترحل ، وستبدأ حياة جديدة ، وأخذ يتشبّث بالحياة تلك في الأشهر الأخيرة ، المأساوية والهشة .

وأخذت أصابعه ترتجف وهي تلامس مفاتيح الصندوق .

ـ شكلي أنت الكلمة يا امرأة عمي!... أعتقد... أعتقد أنها « ماري »...

وبقي واقفاً وراءها ، متمالكاً رغبته في أن يعانقها كما فعل ذات مرة ، مرة وحيدة فقط ، ذات ليلة ، في عتمة الرواق .

ـ ٤ ـ

عزيزي أوكتاف :

« آمل ألا تكون حاملاً عليَّ في نفسك أكثر مما يجب ، لأنني بقيت أكثر من عام من دون أن أكتب لك عن أخبارنا . وأنت تعرف كيف تجري الأمور . كل يوم يعد المرء نفسه بأنه سيكتب . وتتكلم عنك في كل يوم تقريباً أنا وزوجتي ، ومع ذلك...

وجمد جيل . تحول تعبير وجهه لدرجة بحيث إن زوجة عمه سألته :

ـ أهو سيء يا جيل ؟

وفي اللحظة ذاتها ، دخلت أليس الى الغرفة وهي تترنّم وقالت :

ـ أنتما هنا كلاكما ؟... بحثت عنكما في كل مكان... الغداء على الطاولة... غرابة! توصلتما أخيراً لفتح الصندوق .

بالنسبة إليها ، هذه الخزانة التي من حديد ، لم يكن فيها أي شيء يوقع في النفس . ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لكوليت . فقبل بضع لحظات ، وهي تدير مقابض الصندوق ، بينما جيل واقف وراءها ، تمتمت مع الطقّه الآلية الأخيرة :

ـ « ماري »... إنه اسم أمه أليس كذلك ؟...

وعندئذ ، من دون أن تدير المفتاح ، ابتعدت عن الصندوق . وقفت قريباًمن النافذة وشعرها تضيئه الشمس آتية من ورائه . كانت هي وجيل ، على نفس القدر من الجدية البالغة والقلق العميق ، هو وهي .

وبدا لهما أنهما يلامسان مادة حية ، وهذه الكلمة « ماري »ـ لم يكن بمقدور جيل أن ينسى صورة جدته ـ تضفي قيمة جديدة على سر أوكتاف موفوازان .

واستغربت أليس وهي تطل من فوق كتف زوجها :

ـ أهذا كل ما كان فيه ؟

بينما أخذت كوليت ، في عصبية اغتياظها ، تمزق منديلاً ناعماً ، بين أصابعها ، ذا إطار أسود على حافته .

وقرر جيل وهو يعيد إغلاق الملف :

ـ سأرى ذلك بعد قليل .

كان ملفاً من قماش متين رمادي اللون ، مما يجده المرء في كل المكتبات ، ويحتوي على عدد من قمصان من الورق الرقيق ، رقة الفقاعات ، كُتب على كل واحد منها اسم بالقلم الأحمر .

والأمر ، هو أن أول اسم استوقف نظره كان اسم موفوازان ، من دون اسم أول معه . والرسالة الأولى التي بدأ قراءتها كانت بخط أبيه المضطرب .

ـ هيا بنا لتناول الغداء .

وأعاد إغلاق الصندوق بعناية ودس المفتاح في جيبه . وتعين على أليس ألا تكف عن تذكيره بأنه على المائدة ، لأنه غلبه السهو عن تناول الطعام .

ـ أتعتقد أنه توجد أوراق هامة حقاً ؟ أتساءل عما اذا لم يعمد عمك في وصيته الى السخرية من الناس ؟

ورفعت وجهها نحوه ، وهالها أن رأته مستوفز الأعصاب لذلك الحد .

ـ اعذرني ... ما فكرت أنني سأكدرك بهذا القدر .

وقد أمل ، بعدما انتهت وجبة الطعام ، في أن تتبعه كوليت الى غرفة عمه . وسألها بالنظر ، فاكتفت بأن هزت رأسها . وفهم . ولئن كانت هي زوجة موڤوازان ، الا أنها لم تبد الأمانة له وخدعته ، وطوال سنوات لم يوجه زوجها لها أي كلام...

هذه الكلمة : « ماري » !

ـ عندما يأتي رانكية ، فمن فضلك يا أليس هلاّ تركت خبراً له بأنني أنا سأستدعيه عندما سأحتاجه ؟

وأغلق على نفسه باب الغرفة بالمفتاح ، وأدار مقابض الصندوق ، واستعاد الملف الرمادي ، وذهب ليجلس في مقعد عمه ، أمام المكتب ذي الدرج المخفي .

كانت رسالة أبيه مؤرخة من ڤيينا . انقضت اذن عشر سنوات تقريباً على كتابتها . والأمر ، أنه في تلك الفترة ، ومن قبلها ، ما عاد أبوه وأمه يكلمانه عن العم أوكتاف . وتلك مسألة بقيت دائماً غامضة السر في نفسه بقدر كاف .

في طفولته ، كان يرد كثيراً ذكر هذا العم ، في الجلسات العائلية ، الذي يقيم في الـ : روشيل ، وعندما بدأ جيل الكتابة ، أُمليت عليه رسائل تهانئ برأس السنة لذلك القريب الذي لم يكن يعرفه .

وما حدث ، هو أنه فجأة ، جرى الكف عن النطق باسمه .

ومرتين ، أو ثلاث ، طرح جيل ، وهو طفل ، أسئلة ، وكان وجه أبيه يعتم .

ومع ذلك فإن أباه كتب له .والبرهان هو هذه الرسالة ، وأخذ وجه جيل يزداد احمراراً كلما توغل في قراءتها .

« ... تعرف أنني كنت حصلت على مركز له أهميته... وفعلاً ، فمنذ عام تقريباً ، كنت عازف الكمان الأول ، أي بكلام آخر ، اذا جاز القول ، رئيس الفرقة الموسيقية ، في أكبر مقهى في فيينا... وكنا سعداء بأن نثبت أخيراً في مكان ، وبأنه يمكننا أن نرسل جيل الى المدرسة... »

كان ذلك صحيحاً . ففيينا تمثل إحدى محطات الاستراحة النادرة في حياة هذه العائلة المتشردة . السكن في شقة مريحة ، في حي نيّر وهادئ . يعيشون حياة برجوازية تقريباً . فجيل يرتدي ثياباً جميلة . وكذلك أبواه . وقد أخذته أمه مرات عديدة الى ذلك المقهى الذي يزدحم بالألوان المذهبة وبصور الملائكة ، حيث يعزف أبوه وهو على منصة ويحيط موسيقيون آخرون به . بل استعاد جيل حتى طعم القهوة بالڤانيليا ، المغطاة بطبقة سميكة من الكريما المخفوقة ، التي كانت أمه تطلبها له...

« وللأسف! فإن شجاراً مع زبون ثمل أفقدني هذا المركز ، ومنذ شهرين وأنا أبحث عن عمل... ومرة أخرى اضطررت الى رهن كل ما نملك... والآن ، فزوجتي مريضة... وضروري إجراء جراحة لها ، فإذا لم تساعدنا ، اذا لم ترسل إلينا بأعجل ما يمكن ألفين أو ثلاثة آلاف فرنك ، لا أعرف ماذا... »

وارتعشت دموع في عيني جيل . اذ لم يكن ذلك صحيحاً! وأمه لم تكن مريضة! ولم تطرح أبداً مسألة اجراء جراحة لها! وتمنى لو أنه

لم يبدأ قراءة هذه الرسالة ، وهو الآن لا يستطيع أن ينزع نظره عنها ، وكل كلمة فيها كانت تحمل الوجع الى أعمق أعماق كيانه .

وقد عرف هو الشعور بالخزي . فذات مرة ، وهو في التاسعة أو العاشرة ، سرق بضع قطع نقدية صغيرة من على طاولة زينة ممثلة . وطوال سنوات ، ظل يفكر بتلك الحركة كل مساء عندما يغرق في النوم . واليوم أيضاً ، مايزال يحدث له أن يرى ذلك في منامه .

« ... اذا لم ترسل لنا بأعجل ما يمكن ألفين أو ثلاثة آلاف فرنك... »

لابد أن العلاقات تعكرت قبلها مع العم ، بسبب طلبات سابقة للمال ، ومع ذلك ، رجع الأب الى الكتابة مجدداً اليه ، وهو يكذب ، بقصد تحريك حنانه .

« وأقسم لك أنني سأعيد هذا المبلغ حالما ...

هل قرأت أمه يا ترى هذه الرسالة ؟ وهل كتبها أبوه في الخفاء ؟

في القميص الورقي الأصفر ، كانت هنالك برقيتان كذلك ، كلتاهما مؤرختان من فيينا .

« وضع يائس . أنقذ أرواحنا . انتظر لا مناص حوالة برقية » .

كان جيل يبكي بلا نحيب . دموع سائلة تجري على خده من دون أن ينتبه .

« أوجه لك نداء أخيراً لأن الوضع مأسوي... »

وأغلق جيل القميص ببطء . لم يكن في الغرفة نار . وبقي طويلاً هناك ، ساكن الحركة ، رأسه بين يديه ، في حين أن الشمس كانت تتلاعب على الخشب فاتح اللون للمكتب ذي الدرج المخفي .

عندما عاد مجدداً لفتح ملف القماش الرمادي ، كان أكثر هدوءاً ، إنما سقطت حماسته . وبدا له أنه لم يعد شاباً . وقد تقدم

العمر به كثيراً في بضع الساعات هذه ، وهو يمكنه بعد الآن أن يفهم كل شيء .

وقرأ أول الأمر الأسماء التي على القمصان . الذي باسم پلانتيل ، والذي باسم بابان ، وتلك التي بأسماء : الخالة إيلوا ، وعضو مجلس الشيوخ پونو ـ راتوه ، وآخرين غيرهما لا يعرفهم ، أسماء تجار أو صناعيين في مدينة الـ : روشيل .

واختار ملف پلانتيل . ولم يكن هذا يحتوي الا على ورقة واحدة ، رسالة مكتوبة على ورق سيء يباع عند البقالين ، بحبر بنفسجي ، وبريشة تحدث بقع حبر . ولاشك في أن هذه الرسالة حُرّر نصّها على إحدى طاولات مقهى ، اذ ما تزال تلحظ العين أيضاً أثر بقع خمر . وصورتان كانتا مثبتتين بها بالدبابيس .

الأولى كانت لرجل في حوالي الخمسين ، زيّه زي صياد سمك ، كنزة سميكة ، وقبعة كاسكيت بشرائط سوداء . كان الرجل متين البنية ، عريض الوجه ، ذا عينين نجلاوين . والصورة من النوع الذي يستعمل لجواز سفر .

والأخرى ، صورة بمناسبة الاحتفال بسر تناول القربان المقدس لأول مرة . قياس بطاقة بريدية ، وتمثل فتى ، حيوي النظرة وضحوكاً ، يبدو هو نفسه مستغرباً تماماً نفسه ، لارتدائه ، في ذلك اليوم ، ملابس بتلك الأبهة .

على ظهر هذه الصورة ، بضع كلمات ، بالقلم الأحمر : « جان أغواديل ، قضى في البحر وهو في الخامسة عشرة . ماتزال أمه تسكن الحارة السد التي اسمها حارة العذراء » .

هل امتد الوقت بجيل ريثما فهم لأنه ظل يفكر بلا انقطاع بأبيه ؟... فقد أعاد قراءة الرسالة عدة مرات . ويمكن أنها تبدو غير

متماسكة ولا يكمل بعضها بعضاً ، ونشأ عند جيل انطباع بأن من كتبها لم يكن يملك كل هدوء أعصابه . ولعله كان ثملاً في تلك اللحظة ، بموجب ما يبدو أن بقع الحبر تؤكده .

كتابة مرتجفة الحروف ، وشطوب ، ونهايات غير مقروءة في بعض الكلمات .

« سيدي :

« لابد أنك تلقيت رسالتي للأسبوع الماضي ، ومع ذلك ، فإنني من حينها ظللت أذهب في كل يوم الى كوة البريد المحفوظ وليس فيها شيء . ولا يمكن أن يستمر هذا .

الكلمة الأخيرة وُضع خط تحتها بدرجة من الشدة بحيث ثقبت الريشة الورقة .

« من شأن الأمر على هذا النحو أن يكون مفرطاً في السهولة وقلة الإنصاف ! لك كل المنفعة وهدوء البال ! ولي ، لا شيء تقريباً . ذلك أن هذا هو ما أدعو به خمسة آلاف الفرنك التي ترسلها لي كل شهر .

« وأكرر عليك إذن أنه ما لم ترسل لي حالاً المبلغ الذي أطلبه منك ، مرة وبشكل نهائي ، ـ قلت : مائتا ألف (٢٠٠٠٠٠) ، وعليك أن تقر بأنه ليس مبلغاً مغالى به ـ فلن أسأل بعد عن شيء ، وسأذهب لأعترف لمن يعنيه الأمر كيف كانت نهاية السفينة : « الإيسپادون » عند موقع صخرة السيدات... » .

ونهض جيل ، متردداً . كانت انقضت مدة طويلة على سماعه خطوات على الدرج . ويعرف أن المفتش السابق ينتظره ولابد في غرفة استقبال الطابق الأول ، قبعته على ركبتيه كما هي عادته . وقبل أن يذهب جيل ليناديه من على قفص الدرج ، دس في جيبه رسالة وبرقيتي أبيه .

ـ تعال يا سيد رانكية . أعتقد أنه سيكون بوسعك أن تساعدني ...هل سمعت أقاويل ما عن « الإيسپادون » ؟

ونظر رانكية الى الصندوق المفتوح والى الملفات المبسوطة . وتمتم :

ـ إذن صحيح ؟

ـ ما هو الصحيح ؟

ـ ما تهامس البعض به في حينها ، قبل خمسة عشر عاماً... لم تكن هنالك بعد مراكب جذافة كبيرة ، مثلها اليوم... إن شركة « باس ويلانتيل » هي التي بنت أول مركب منها ، بمحرك ديزل ، ولا أعرف بأي نظام تبريد لحفظ السمك... الإيسپادون هو الاسم الذي أطلق على المركب ... ما الذي حدث ... هل كان ثمة عيب في أصل بناء المركب ؟... هل صيغة العمل هي التي كانت غير نافعة ؟... يبقى الأمر أن الإيسپادون ظلت عرضة للمتاعب في كل رحلة من رحلاتها وتكلف في كل مرة مالاً جنونياً ... وإذ ذاك تحطمت على صخرة بالقرب من لاس پالماس .

ـ صخرة السيدات ؟

ـ أعتقد أنني أتذكر هذا الاسم ... والقبطان ... انتظر ... اسمه على رأس لساني...

ـ بورنيكية ...

ـ نعم ... أرمل ، كان يقيم مع ابنته في منزل صغير في حي القديس نقولا... كانت ابنته بسيطة العقل ، بها بله... لا يهم... عندما وقع الحادث ، تم إنقاذ جميع الرجال ، عدا واحداً ، هو مبتدئ بحار فتي يدعى...

ـ جان أغواديل .

ـ مضبوط ...

وقال رانكية بصوت قاتم ، مثبتاً نظره باحترام على الورقة التي بين يدي جيل :

ـ إذن معناه أن ذلك كله حقيقي ... فقد وجد بعض الناس أن الحادث جاء في وقت أكثر من مناسب ... وفوجئوا كذلك عندما غادر الرّيس بورنيكية البلد زاعماً أن ميراثاً صغيراً آل اليه في الآونة الأخيرة... فوضع ابنته عند راهبات الرحمة ، في مؤسسة يُعنون فيها بالمعاقين... ولكن أكثر ما دعا للاستغراب هو أنه لم ينسحب الى مكان ما على شاطئ البحر كما يفعل كل البحارة ، بل ذهب ليعيش في باريس...

« والتقاه البعض هناك... كان يشرب بإفراط... وعندما تدور الخمرة برأسه ، كان يُلمح مدعياً أنه يستطيع أن يحصل على مال بقدر ما يشاء ، ولو أن الأمر يعود إليه فقط ، فإن تبدلات غريبة ستطرأ على الأوضاع في الـ « روشيل »

ـ أتعرف ما الذي صارت حاله إليه ؟...

ـ يبدو أنه لم يعد في النهاية إلا مجرد حطام... إذ كانوا يلمونه من على الأرض وهو ملقى عليها شبه ميت من السكر . وتوفي بالتسمم الكحولي وهو في حالة هذيان محموم لا أعرف في أي مستشفى . وزعم البعض أن ذلك من فعل تأنيب الضمير الذي كان يتآكله ، ليس بسبب المركب ، وإنما بسبب المبتدئ البحار جان أغواديل ...

كان رانكية ينظر مجدداً بنوع من ذهول الى قطعة الورق ، وتلكما الصورتين . واعتراه رعب كما لو أنه دُفع قسراً الى يديه بسلاح فتاك رهيب .

ـ فهمت الآن يا سيد جيل ... ما الذي ستفعله ؟...

كان جيل مضطرباً على قدر ما لدى رانكية من اضطراب ، إنما لأسباب أخرى . لدرجة أنه تساءل في سره عما اذا لم يكن سيعيد الوثائق الى الصندوق ويبلبل الرموز بحيث يستعصي فتحه الى الأبد .

الا أنه مع ذلك لم يتمالك نفسه من أن يسحب اليه القميص الذي يحمل اسم إيلوا . كانت الأوراق التي يحتويها جديدة تقريباً .

كانت ثمة ثلاثة سندات ، كل منها بـ : عشرة آلاف فرنك . ثلاثتها مقبوضة ، وتحمل أختاماً مصرفية وطوابع مالية .تلك الأسناد كانت بتوقيع موفوازان ،ولكن الرسالة التي ترافقها تكشف عن المأساة .

«أنا الموقع أدناه روبير إيلوا أعترف بأنني وضعت في التداول ، بقصد تسديد ديوني ، ثلاثة سندات بعشرة آلاف فرنك كنت نشلتها من مكتب عمي موفوازان وأنني وقعتها باسم هذا الأخير .

«وأتعهد بمغادرة فرنسا خلال مهلة شهر وأن أنضم للخدمة في جيش المستعمرات» .

أن يكون بوب لجأ الى هذه الوسيلة ، لم يكن في الأمر ما يثير استغراب جيل . وقد بدا له من جهة أخرى أنه ما عاد شيء بعد الآن يثير دهشته . ألم يكن معه في جيبه رسالة أبيه التي تستدعي الرثاء ؟...

ما أثار استغرابه أكثر هو تاريخ الإقرار . فإنه كتب قبل وفاة موفوازان بشهرين تقريباً .

ـ قل لي يا سيد رانكية ، وأنت الذي يعرف كل الناس... هل تعرف ما إذا تغيّب ابن خالتي إيلوا عن الـ : روشيل في بضعة الأسابيع التي سبقت موت عمي ؟

ـ لا أتذكر ، ولكن يمكن لشقيقتي أن تفيدك بالأمر .
ـ اذهب واسألها عن ذلك من فضلك .

لم يحدث أبداً لفصل ربيع أن بدا ظافراً بذلك القدر ،ولم يسبق أبداً أن كان الهواء مسكراً لهذه الدرجة ، وجيل ، يدور حول الغرفة ، مرتدياً الأسود ،تسري ارتعاشة بين الحين والحين على طول عموده الفقري .

عشر مرات كاد أن يرفع جهاز الهاتف . وكوليت ، في غرفتها ، لابد أنها تنتظر ...

وبدأ ينفد صبره . لأن رانكية تأخر في الصعود ثانية وبدا له مرات عديدة أن على الدرج أصوات حركة ذهاب وإياب غير طبيعية...

وعندما ظهر رانكية أخيراً عند الباب ، لاح شاحب الوجه .

ـ خبر سيء يا سيد جيل...
ـ ما الأمر ؟
ـ لم تشأ (هي) أن ينقل الخبر إليك .
ـ هل أوقفوها ؟
ـ أقصد أن المفوض نفسه جاء يأخذها ليقودها مرة أخرى لعند قاضي التحقيق ... وسألته باسمة إن كان عليها أن تأخذ معها الحقيبة التي كانت أعدتها...
ـ وماذا ؟

وأشار رانكية برأسه إشارة تعني الإيجاب .

ـ شقيقتي تغمرها دموعها في المطبخ ... اضطررت لأن أسقيها كأس روم لتعود الى وعيها ...
ـ وزوجتي ؟

ـ يبدو أنها خرجت للقيام بمشتروات .

ـ وبشأن بوب ؟...

ـ ما عادت شقيقتي تتذكر... وتزعم أن هذا ليس وقت الكلام معها في ذلك... وتعتقد على ما تتذكر بأنه ظل مسافراً لبعض الوقت ، ويوم وفاة موڤوازان لم يكن في الـ : روشيل...

ومد جيل يداً كأنْ يائسة ناحية جهاز الهاتف وركّب رقماً بإدارة القرص . لكن عندما رن الجرس على الطرف الآخر من الخط ، كاد أن يعيد السماعة . رانكية ، الذي لم يعرف من الذي كان جيل يتصل به ، أخذ ينظر إليه ، وقد وقع الأمر في نفسه ، حابساً أنفاسه :

ـ ألو ... اعطني السيد پلانتيل من فضلك... من قبل جيل موڤوازان...

كانت أعصابه مستوفزة لدرجة أنه كان مستعداً لأن ينفجر بالبكاء ، هنا ، في مكان وقوفه ، أمام جهاز الهاتف المصنوع من الإيبونيت .

ـ ألو ؟ ... السيد پلانتيل ؟... معك جيل موڤوازان ...

كان مثبتاً نظره ، في الوقت ذاته الذي يتكلم فيه ، على كدسة القمصان . كان هنالك خمسون منها على الأقل . ولم يفعل للآن أكثر من أنه مسّ ملف القماش المتين مسّاً خفيفاً أو كاد .

وكرر پلانتيل بنفاد صبر .

ـ ألو ! ... أنا مصغ إليك . تكلم...

وجيل ، وغصة خانقة في حلقه :

ـ أردت فقط أن أعلمك بخبر ... أنني قد فتحت الصندوق قبل قليل ... نعم... هذا كل شيء يا سيد پلانتيل ... كيف ؟...

على الطرف الآخر من الخط ، طلب مجهز السفن ، وقد انخبطت

حاله عاليها سافلها ، أن يقابله على الفور . وأجاب جيل بأسى :
ـ لا ، يا سيد پلانتيل .. ليس اليوم.. لا .. أؤكد لك أن هذا مستحيل..
وعندما أعاد السماعة ، مرت مدة لابأس بها وهو ساكن الحركة .
ـ ما الذي ستفعله ؟..
لم يفهم جيل . بلغت مقاطع صوتية أذنه . ولكنها لم تترك عنده في كلمات .
ـ ما الذي ستفعله يا سيد جيل.. اذا تحفظوا على زوجة عمك ؟..
ـ لا أعرف .. تعال..
ما عاد يملك الشجاعة ذلك اليوم لأن يمضي لأبعد في قراءة المصنفات .. ونزل ، يتبعه رانكية ، ولمح حماه وهو يراقب من على عتبة الكنيسة القديمة ، حركة السيارات .
واتجه الرجلان ناحية الأرصفة . كان أكثر من خمسين صياد سمك بالقصبة متجمعين على الرصيف بسبب عبور طرش من البغال ، ويتزاحمون للنظر إليها .
ولدى مروره أمام « مشرب لوران » ، راود جيل تردد . ودفع الباب ، وأدخل رفيقه معه ، واتجه ناحية منصة الساقي من دون أن يلقي نظرة باتجاه طاولة بابان .
وطلب : كأسان من الفاخر
اذ ذاك فقط تبين أن بابان لم يكن هناك وأدهشه ذلك ، إلا أنه عاد فرأى الرجل ذا السيكار خارجاً من كشك الهاتف .
وبوغت بابان بشحوب جيل ، وبالتوتر الذي يشد كل كيانه . وجاء لعنده وقد تقارب حاجباه . لم تكن سخريته المعتادة في نظرة

عينيه . بدا وكأنما مسحته لمسة انسانية خفيفة . وما عاد يتكلم شأن رجل عجوز يتوجه الى طفل ، أو كما قالها له ذات ليلة من ذنب لحمل .

ـ ما الذي ستفعله ؟...

السؤال ذاته الذي طرحه رانكية ، السؤال ذاته الذي أخذ يطرحه ذلك العدد من الناس الذين أمسك جيل فجأة بمصيرهم بين يديه . پلانتيل كان هو الذي على الهاتف ولا شك . ولابد أنه منشغل الآن بتعميم الإنذار في كل الاتجاهات .

شارع غارغوللوه ، الى مكتب الأستاذ هرڤينو ، ساحة آرم ، لعند عضو مجلس الشيوخ پونو ـ راتو ، وإلى أمكنة أخرى أيضاً ، أخذت النداءات الهاتفية تتعاقب بإيقاع سريع ، سريع .

ـ أهذا أنت ؟... هنا پلانتيل... الصندوق فُتح...

جزء كامل من المدينة ، ذلك الذي ، من حيث الظاهر ، يلوح الأشد متانة والأرسخ استقراراً ، أخذ يجد نفسه من ساعة لأخرى في قبضة شاب طويل ونحيل يرتدي ملابس سوداء .

والشيء الغريب ، هو أن بابان لم يبد عليه أنه فعلاً خائف على نفسه هو . تراه كان أقل تورطاً من الآخرين ؟... لم يدفع الفضول جيل لفتح مصنفه .

نظر إلى كأسي النبيذ الفاخر ، ثم الى الشاب . وفهم . ونادى صاحب المحل .

ـ جدّد لنا هذا...

ثم ببطء ، وبيد لا ترتجف ، حك عود ثقاب وأشعل سيكاره :

ـ لا تتسرع كثيراً...

همس بذلك أيضاً ، في الوقت ذاته مع سحابة دخان أزرق...

ـ ليتك تنتبه إلى أنك تجازف بإيقاع الكثير جداً من الإيذاء ... الكثير... وربما بأشخاص هم...

ولم يكمل فكرته ، ولكن جيل كان مستعداً لأن يقسم على أنه فهم قصده ، وعلى أن بابان كان يلمح الى خالته إيلوا...

وشرب موفوازان ، المقلّ عادة ، الكأسين دفعة واحدة ، الواحد تلو الآخر ، وفي اللحظة التي هم فيها بالخروج ، سأله بابان ، بتواضع جم لم يكن من عادته ، مثلما عندما يلتمس امرؤ خدمة من آخر :

ـ الكلمة ؟...

وما كان جيل ليفضي بها إلى پلانتيل .

ـ ماري

ولما عقد الآخر حاجبيه الغليظين باحثاً في ذاكرته بلا طائل ، أوضح جيل :

ـ الاسم الأول لأمه ...

وأطرق بابان برأسه :

ـ كان عليّ أن أرتاب في ذلك...

وأخيراً ، لحظة إغلاق الباب .

ـ لا تندفع بتسرع مفرط يا سيد جيل!...

وأخذ هذا الأخير ، وهو واقف على حافة الرصيف ، ينظر من بعيد الى منزل إيلوا ذي الروائح الحارة حرارتها القوية تلك .

ـ ٥ ـ

وتمتم رانكية بتردد :

ـ رأيي أنه يفضل ألا أرافقك في هذا المكان...

كان جيل قد غادر الرصيف المضيء ليدخل منطقة الظل الذي يلقيه قصر العدل على الطريق . وانتظر رانكية عبثاً إجابة ، فنظر مجدداً الى رب عمله وفهم أن موفوازان ما عاد يتذكر وجوده الى جانبه . وعندئذ ، وعلى غرار ما يفعله كلب حراسة ، ألقى نظرة جاهزة للعداء على الدرج الذي تفوح منه رائحة الغبار ، ومضى ليعسكر على الرصيف المقابل .

خلالها ، وباندفاعة واحدة ، كان جيل قد بلغ باباً مبطناً في الطابق الأول ، ولما لم يكن هنالك أحد حوالي الباب فإنه فتحه ، وصرّ الباب وهو يفتح ، وأعقب ذلك صمت ساد ، يملي وقعه على النفس ، بينما خمسة أو ستة وجوه طافية فوق عباءات سود ، التفتت نحوه .

هذا المشهد الباروكي هو الذي قدّر له أن يبقى في ذاكرة جيل الصورة الممثلة لعدالة البشر . ولم يكن جيل يفرّق ما بين المحاكم الصلحية والمحاكم الجزائية . وفي غرفة طويلة ، رمادية الجدران ، تقع

النظرة فيها على عدد من المقاعد ، كما في مدرسة ، جلس ثمة قضاة على تلك المقاعد ، أو موظفون قضائيون بكل الأحوال ، اثنان أو ثلاثة ، بينما لاح شخصان أو ثلاثة آخرون ، بمواجهتهم ،وقوفاً ، وقد اتكؤوا بألفة على نوع من منصة . كانت النافذة مفتوحة كي تتيح ، كما في ذكريات عن المدرسة دائماً ، لهبّات الربيع أن تدخل ، ومعها بعض أصوات بعيدة .

وقدجمّد الباب ، بصريره ذاك ، أولئك الأشخاص وكل في الحركة ذاتها التي كان يقوم بها عند دخول موڤوازان ، فذلك الباب ، والشاب الذي بالأسود ، يبدو أنهما أغرقاهم في قاع من الذهول سحيق .

كان انطباع جيل غير صحيح بلاشك ، ومع ذلك فقد ترتب عليه أن يحتفظ بالانطباع بأنه قد أزعج مداولة استشارية سرية ، مثلما يحدث أحياناً في المدرسة ، حين يتخلف أستاذان أو ثلاثة معاً في أحد الصفوف الخالية ويتكلمون وهم يضحكون عن العقوبات التي فرضوها .

أصلاً ، وفي اللحظة التي أعاد فيها إغلاق الباب وراءه ، ألم يسمع صوت واحد من الأشخاص الذين بالعباءة يقول بكل هدوء :

ـ إنه ابن الأخ موڤوازان ...

وطوال دقائق عديدة ، تاه بين قاعات خاوية ، وفي أروقة تشيع فيها رائحة الخشب المتعفن ، وعندما توفر له آخر الأمر أن يسأل أحداً عن غرفة قاضي التحقيق أين هي ، أجاب المستخدم من دون أن يرفع نظره عن قطعة الخبز الصغيرة بالشوكولا التي كان يفض تغليفها :

ـ أي واحد منهم ؟

ـ ذلك ، الذي أسندت اليه قضية موڤوازان ...

ـ على اليسار ، ثم على اليسار ثانية... في الصدر تماماً ...

هناك ، لم يعد بحاجة لأن يسأل أحداً . إذ كان رجلان يقفان هناك ، في ردهة انتظارصغيرة محاطة بمقاعد لا مساند ظهر لها ، هما مفوض الشرطة ومفتش معه ، يدخنان ويثرثران ، وقد لزما الصمت عند وصوله ، مثل قضاة محكمة الصلح المدنية .

كان ثمة باب بلوح زجاجي ذهب صقله ، وبجانب هذا الباب ، على أحد المقاعد ، لمح جيل حقيبة كوليت الصغيرة . أقل التفاصيل ، في ذلك اليوم ، وبسبب توتر كل كيانه ، اتخذت قيمة استثنائية . وتلك الحقيبة البسيطة التي بدت له وكأنها تنتظر ، أحدثت له صدمة على نفس الدرجة من العنف كما لو أنه يحضر مشهداً مأسوياً في مسرحية .

ومن دون أن يعبأ بالشرطيين ، سار حتى الباب وقرع في اللحظة التي هم المفوض فيها بأن يمنعه من ذلك . لكن فات الأوان! فقد جاء صوت من الداخل يغمغم باستغراب :

ـ ادخل ...

وشق جيل الباب . واكتشفت نظرته كوليت أولاً ، جالسة على كرسي ، ثم ، وراء مكتب عريض ، رجلاً أصهب ، شعره المقصوص قصيراً واقف على شكل فرشاة . ولعل القاضي قد اعتقد على الأرجح بأنه ليس إلا موظف قضائي أو شرطي ليتجرأ على أن يزعجه أثناء عمله ؟ ونهض كنابض مضغوط أفلت وكأنما ليحول دون انتهاك قدس من الأقداس ، ودفع جيل :

ـ لا أستطيع استقبال أحد... ترى جيداً أنني...

وأغلق القاضي الباب وراء جيل بدرجة من العنف ارتج الزجاج لها وكاد أن يتهشم . وتبادل المفوض والشرطي نظرة وهما يبتسمان ،

وتبعا بعينيهما جيل الذي ذهب ليجلس على أحد المقاعد بالقرب من رقعة شمس .

وانقضت دقائق ، وربع ساعة ، ونصف ساعة ، واعتاد على الصمت ، كما يعتاد المرء على العتمة ، وصارت الأذن تميز بوضوح أكبر الهمهمة الطويلة في غرفة عمل قاضي التحقيق .

على الجدار المتسخ ، بلون رمادي قبيح ، كان عنكبوت يقترب ببطء كبير من حشرة قرمز ضلت طريقها الى هنا يعلم الله وحده كيف ، بحيث أن الأمر كان يتطلب انتباهاً شديداً جداً كي يتبين أن العنكبوت كانت تتقدم ، وقد ثبت جيل نظره عليها ، وجبينه ويداه ندية بالعرق .

وجعله صفير مركب في البعيد ينقز ، ربما مذكراً إياه بوصوله على ظهر الـ « فلينت ، وأيقظت هبة هواء دافئ في الوقت ذاته صورة مقبرة نيول ، حيث كان شحروران يلاحق أحدهما الآخر بين أغصان دغلية .

لم يعد يفكر . ما عاد يملك أن يفكر بما أنه صار هو نفسه مركز الأشياء ... وهو لم يعد يراها كما كانت فعلاً تبدو . وقبل قليل ، هل انتبه فقط لنفسه على الأقل وأنه كان يمشي متبعاً الأرصفة ، ويحف بجمهور الناس متزايدي الكثافة حواليه في مواجهة متجر « السعر الموحد » ، وأن بائعة صغيرة في الثانية أو الثالثة عشرة مدت له أغصان ميموزا ؟...

كان ابناً لثناني عاشق من زقاق إيسكال ، وابن ذلك الفرد من عائلة موفوازان الذي كان يأتي في كل يوم على قدميه من نيول ، مع علبة كمانه تحت ذراعه وبشعره الطويل ، ابن إيليز التي تبعت في كل مدن أوربا ، في كل الغرف والشقق المفروشة الكئيبة ، في كل

المطاعم الرخيصة ، الرجل الذي أحبته . بل هو آت من أبعد . إنه حفيد تلك التي من بين الشقيقتين كان لها وجه على ذلك القدر من العذوبة التي تذكر بكوليت ، وحفيد العامل البنّاء أيضاً ، الذي قاد في سنوات عمره الأخير طنابر فرن الكلس .

كان هو ذلك كله ، تربطه خيوط بكل ذلك . ولكنه كالغريب نزل يوماً من سفينة شحن ، تشيع فيها رائحة سمك الغادس ، وتسكع كالضال على الأرصفة البحرية ، في يده حقيبته ، وعلى رأسه قبعة من فرو القضاعة .

فجميع الآخرين ، كان يعرف بعضهم بعضاً ، قضوا حياتهم في المدينة ذاتها ، يتكلمون اللغة نفسها ، ولهم ذكريات مشتركة .

جيراردين إيلوا كانت شقيقة أمه . عاشت طفولتها هي أيضاً في منزل زقاق إيسكال الذي يفيض بالموسيقى ، حيث لم يلمح جيل عبر الستائر إلا وجهاً هارباً .

وقد تزوجت ، لا موسيقياً متشرداً ، وإنما رجلاً استمرت عائلته منذ ثلاثة أو أربعة أجيال تتولى التجارة ذاتها في تموين السفن ، في المنزل نفسه في رصيف دو پيريه .

ولم تغادر جيراردين بعدها ذلك المنزل . ووضعت أطفالها وهي فيه .

وقد حدث هذا كله وهو بعيد ولا يعرف الـ : روشيل إلا عن طريق عبارات تشيع صوراً أفلتت من فم أبويه . وفي خياله ، طرأ تغير على شكل الصور ، فقد حلم بهذه المدينة وكأنها صورة ألوانها حارة وهادئة ، وكملاذ للسلام والنزاهة .

أحياناً ، وراء الباب ذي الجزء الزجاجي ، كانت لهجة الهمهمة تتغير . كوليت هي التي كانت تتكلم... ويتوجب على

جيل أن يمسح يديه بمحرمته ، في حين اتكأ الشرطيان بمرفقيهما على حافة النافذة المفتوحة كي يتوفر لهما أن يواصلا ثرثرتهما بحرية أكبر .

إنه اكتشف سر الصندوق . لم يكن بمستطاعه أن يمنع نفسه عن الاعتقاد بأن ذلك هو ما أراده عمه . والكلمة السرية التي تعيّن أن يتكهن بها ويعرفها ، ألم تكن تشبه التنين الذي في القصص القديمة ، في الأزمنة الخرافية ، كان يحرس الكنوز ؟...

موفوازان ، ذلك الرجل القاسي ، القصير ومتين البنية ، الذي لا يكلم أحداً ويحتقر أمثاله من البشر ، كان يقصد في كل أسبوع نيول ، ويجلس في غرفة تسودها الفوضى ، ليتأمل ملامح امرأة يعمل الزمن على طمسها شيئاً فشيئاً .

ذلك هو ما تعين اكتشافه! ولا يهم موفوازان الآخر ، موفوازان ـ (الذي لا يثنيه شيء) ولا يلين ، الذي بخطوته التي لا يوقفها شيء ، كان يتبع في كل يوم طريقاً هو عينه ، ويلتزم التوقيت ذاته ، ويقود الأحداث .

ما الذي أراده عمه ؟...

أن يصير شاب غض ، طفل تقريباً ، فجأة ، حكماً في الحياة والموت ؟...

أحياناً ، كانت أعصابه تؤلمه ألماً حاداً جداً ، بينما يتواصل هذا الانتظار ، فينهض اذ ذاك كنابض .

ولكنه لا يجرؤ على المشي ، وعندما يلتفت الشرطيان الى الوراء مستغربين ، كان يعود للجلوس في مكانه ، ويداه مبسوطتا الراحة على ركبتيه .

كان يعرف ... هو وحده الذي كان يعرف ...

أوكتاف موفوازان كان شقيق أبيه... جيراردين إيلوا كانت شقيقة أمه...

لكن هو ، ذات مساء ، وفي رواق لا يكاد يكون مناراً ، ضم بين ذراعيه زوجة عمه كوليت وشرب الحياة طويلاً من على شفتيها .

وإنها هي ، التي كانت هنا ، منمنمة وعزلاء ، بلا دفاع ، وراء الباب ذي اللوح الزجاجي . وبسببها رن جرس يجلجل فهرع المفوض مندفعاً .

ما الذي سيفعلونه بكوليت ؟ وخرج المفوض من المكتب ، ورمى المفتش بنظرة خاطفة ، واتجه ناحية رواق آخر .

بعد ذلك بلحظات ، عاد وبرفقته الطبيب سوفاجيه ، مهمل حلاقة الذقن ، جسمه مهزول ، ورث الشياب ، أكثر تشنجاً أيضاً وبؤساً مما كان في السابق .

سيعمدون الى مواجهة عاشقي رصيف الـ : أورسولين أحدهما بالآخر .

وكان جيل يعرف ... وكان جيل أيضاً وريث عمه ، ذلك الذي غدره في شرفه هذا الرجل وتلك المرأة!

وظهر المفوض مجدداً ، وأخرج ساعة من جيبه ، وقال للمفتش :

ـ أعتقد بأنني أحسن صنعاً بأن أتصل بالهاتف بزوجتي ...

ألم يكن هذا يعني أن الانتظار سيطول ، وأن المواجهة قد يمكن أن تستمر لمدة ساعات ؟

ما زالت الحقيبة هنا ، كلهابلاغة . ترى ما الذي وضعته كوليت فيها ؟ لم تبكِ . ولم تقل لجيل : إلى اللقاء . لقد مضت من دون جلبة ، خفية تقريباً ، مثلما يموت بعض الناس لكي لا يحزنوا المحيطين بهم .

وجيراردين إيلوا كانت خالته! ويعرف جيل الآن حكاية حياتها التي كان رانكية ، الذي يعرف كل شيء ، رواها له .

إنها كانت على وشك أن تتزوج موظفاً في مصرف الكريدي ـ ليونيه ، توفي بعد بضعة شهور من خطوبتهما مسلولاً . وفيما بعد ، تزوجت ديزيريه إيلوا الذي يكبرها بخمسة عشر عاماً .

وصفه رانكية بقوله :

ـ كان طريفاً ، غريب الطراز .

إنما في فمه ، كانت الكلمة تعني أنه نصف مجنون .

ـ لم يكن له إلا هوى وحيد وهو شغفه بالساعات القديمة . وكانوا يرسلون إليه منها من كل مكان ، لأن تجار الأثريات عرفوا هوسه بها .

ويصرف هو الأيام والأماسي ولياليه في فكها وجعلها تعمل . وخلال ذلك ، كان مستخدموه يسرقونه ، وأخذت مؤسسة إيلوا للتجارة ، بعد أن ظلت إحدى أكثرها ازدهاراً ، تسقط شيئاً فشيئاً ، بحيث إنه عند موته كان الوضع ميؤوساً منه .

مرحلة زمنية كاملة لم يعرفها جيل . ولم تكن جيراردين في حينها ، وهي في الطابق الأول من المنزل ، فوق المتجر والمخازن ، تشغل نفسها إلا بأطفالها الثلاثة . في الصيف ، كانت تعيش معهم في ڤيللا تملكها في فورًا على شاطئ المحيط .

وبغتة ، وقع عليها أن تنزل الى المكتب ، وأن تلتزم التصلب وهي تتناقش مع البحارة ورجال الأعمال . وتبنت هذه الملابس من الحرير الأسود التي أضفت عليها سيماء على تلك الدرجة من القساوة . وأخذت تتخبط ضد ظروفها المعاكسة ، وتستدين على اليمين وعلى اليسار ، وتحصل على المهل ، وتوجهت في نهاية الأمر إلى أوكتاف موڤوازان .

الأم ، هي التي في دخيلة نفسها ، ظلت دائماً تخوض الصراع على ذلك النحو دفاعاً عن صغارها . وما همّ أن بوب ليس إلا فتى أزقة ، وابنتها لويز عجينة رخوة ،والأخرى معتوهة شاعرية ألقت بنفسها على عنق رجل متزوج ؟

في مشاغل أوكتاف موڤوازان التي تعنيه ، لم تكن جيراردين إيلوا تمثل الا محطة لمدة دقائق ، هي محطته في الساعة الخامسة من بعد الظهر ، حفنة من مئات ألوف الفرنكات يراقبها ، وقدح شاي ، مع شريحة خبز عليها معقود البرتقال...

خطوات بطيئة على الدرج . الرجل يتوقف كل ثلاث أو أربع درجات ويصل الى الأذن صوت أنفاسه القصيرة . وعندما بلغ ردهة الانتظار الصغيرة ، عرف جيل في القادم عضو مجلس الشيوخ پونو ـ راتوه الذي تمثل الأدراج بالنسبة اليه عملية تعذيب ، ومعه على عادته مظلته المطرية . وابتعد الشرطيان بحركة سريعة عن النافذة لتحيته باحترام ، ونظر الشيخ الى موڤوازان وقد تفاجأ لحضوره ، وربما انتابه تردد في أن يتوجه بكلام إليه ، ودخل أخيراً من دون أن يقرع الى غرفة قاضي التحقيق .

واستمر جيل ملازماً مكانه ، بلا حركة ، ولكن القلق المطبق على صدره صار أكثر إيلاماً . ما الذي جاء يفعله پونو ـ راتوه هنا ؟ ومكث عشر دقائق تقريباً . ولابد أن الرجلين قد تبادلا الكلام بصوت منخفض ، بالقرب من الباب ، فقد لوحظ طيفاهما مرتسمين على شكل ظلال صينية ، على الزجاج الذي فقد صقله .

وألقى القاضي ، وهو يودع الشيخ على الباب ، نظرة باتجاه موڤوازان يستثيرها الفضول . واعترت الوزير السابق نوبة سعال ،

وبصق في محرمته ، وفحص بانتباه ما بصقه ، ثم ابتعد بخطوته البطيئة التي يمشيها رجل هرم .

نصف ساعة أخرى ، ثلاثة أرباع الساعة . وأخيراً ، عندما أخذ قرص رقاصها يرن ، اندفع المفتش ، وهو يبتسم لفكرة عشائه الذي اقترب .

وكان بود جيل لو يختبئ ، ولكنه لم يغادر مكانه ، وبقي جالساً على أمل ألا يلحظه أحد .

وخرجت كوليت الأولى ، ومنديلها مكور في يدها اليمنى كالكرة ، وبحركة مذعنة ، أمسكت بحقيبتها التي أخذها المفوض عنها ، وهو يتمتم بلهجة فيها ظل من شهامة تجاه امرأة :

ـ دعي عنك ...

ثم حملقت بعينين كبيرتين وهي ترى جيل . بدت وكأنها عدلت عن رأيها ، وهي تهم بالعودة الى مكتب قاضي التحقيق

ـ من هنا ، سيدتي ...

ومرت بالقرب منه تماماً ، من دون كلمة ، وأحس أسفاً لأنه لم ينظر إليها ، ولأنه لم يتوجه إليها مشجعاً إياها .

أما الطبيب سوڤاجيه ، فإنه تبع المفتش باتجاه الدرج الكبير .

ـ أتحب أن تدخل يا سيد ؟

كان ذلك هو القاضي ذا الشعر القصير والقاسي يتوجه الى جيل من عتبة مكتبه . وفي ذلك المكتب ، كان هنالك كاتب محضر لم يره الشاب قبل قليل ، وهو الآن منصرف لتصنيف بعض الوثائق على طاولة صغيرة .

وجلس القاضي .

ـ ما الذي ترغبه يا سيد موڤوازان ؟... قبل كل شيء ، اسمح لي

أن ألفت نظرك الى أن زيارتك فيها إخلال ، وهي تخرج عن أية قواعد ، وأنه ما كان يجب أن أستقبلك...

وأخذ يقلّب بنظره الشاب الذي لم يدعه للجلوس ، راضي النفس عن العبارة التي قالها ، ولما لم يُقدّر لجيل أن يجد الكلمات التي يريد ، أضاف القاضي بنفاد صبر وهو يخرج ساعة ذهبية من جيب صدارته :

ـ أنا مصغ إليك ...

ـ أود أن أسألك يا سيدي عما إذا تم توقيف زوجةعمي أو أنه سيصار الى ذلك...

وأجاب القاضي بعينين صغيرتين لئيمتين ، وبذلك الرضا عن الذات يبشم كل كيانه كقاض ، الأمر الذي كاد أن يخرج جيل عن طوره ويطلق العنان لغضبه :

ـ آسف لكنه محظر علي أن أجيبك ...

ـ هل زوجة عمي طليقة ؟...

ـ إذا أردت أن تعرف إن كانت ستتناول العشاء معكم هذا المساء ، فلا أظن ذلك... وفيما عدا...

وصدرت عنه حركة مبهمة المعنى ، وهو ينظر إلى يده المثقلة بخاتم عليه نقش ، كان سعيداً فيما يظهر بإعجابه به . وهم بالنهوض ومرافقة زائره حتى الباب .

ـ أعرف يا سيدي القاضي أن زوجة عمي لم تسمم زوجها .

ونهض القاضي :

ـ مرة أخرى يا سيد موڤوازان أنا آسف... وأفضّل نسيان حتى أنك زرتني...

وفتح الباب له . وجيل ما يزال أيضاً يتردد ، وأخيراً اندفع إلى

ردهة الانتظار ، وفي عينيه دموع غضب فاق حدّه . وأخطأ الرواق ، وتاه طويلاً في نواحي قصر العدل ، وعاد للمرور أمام الباب المبطن الذي كان دفعه عند وصوله وهو الآن تُرك مفتوحاً يكشف عن غرفة خالية بدأت تدخلهاظلال الغسق .

وفي الخارج ، فوجئ بأن يرى رانكية الشريف يمشي بجانبه ، والذي لم يكن يجرؤ على أن يطرح عليه أسئلة .

وكانت المصابيح قد أشعلت على أعمدة النور ، ولكن الليل لم يخيم بعد ، وأشعة الشمس مازالت تجر أذيالها في السماء .

ـ ما عدت بحاجة إليك اليوم يا سيد رانكية .

ـ أشكرك ... تعرف أنها جرى توقيفها ، أليس كذلك ؟ رأيت زميلاً قديماً و...

ونظر جيل إليه ولم يجب . ثم سار بسرعة أكبر . مشى حتى آخر الرصيف من دون أن يرى شيئاً ، من دون أن يفكر ، ورأى نفسه أمام مقهى جاجا الصغير . ودخل . لم يكن لديه شيء يقوله لها . كان في حاجة لأن تسترخي أعصابه لحظة .

ولسوء الحظ ، أن جاجا كانت جالسة مع امرأتين أخريين من النوع المقتدر مثلها ، وإحداهما منشغلة بحياكة صوف أبيض .

ـ إذن ، حال الأمور سيئة يا فتاي ؟... ماذا تشرب ؟...

واتجهت ناحية منصة الساقي حيث ملأت كأساً صغيرة من الكحول . ثم استدارت ناحية الاثنتين الأخريين .

ـ أليس أمراً بائساً أن يشوهوا لي شكله على هذا النحو ؟...

وكان جيل قد نسي آثار الاعتداء الذي تعرض له في النهار . واستغرب ، وهو ينظر الى المرآة ، أن يلحظ بقعتين حمراوين كبيرتين على وجهه .

ـ كما لو أن المرء لا يرى فوراً أن فتى كهذا لا يقوى على الدفاع عن نفسه... اجلس يا فتاي جيل... يعلم الله إن كان قلبي دليلي ، عندما وصلت ذات مساء ، بمعطفك الأسود الطويل وقبعتك الغريبة...

ومتوجهة الى المرأتين :

ـ ليتكما رأيتماه وكم كان لطيفاً ...

ما أكثر الأمسيات في هذا الشتاء ، التي جاء هكذا فيها يجلس عند جاجا !

لماذا شعر اليوم بأنه ليس على ما يرام وهو هنا ؟ كانت النساء الثلاث يتفحصنه بالتفصيل ... وما تحيكه إحداهن صار من الآن له شكل جورب طفل .

ـ الآن ، ها هو قد تزوج ، هذا إذا لم نأخذ بالحسبان أيضاً تلك المنغصات التي ركبت ظهره! هل حان لك أن تذهب من الآن يا فروجي!... ألا يمكنك أن تأخذ سمكتي موسى ظريفتين معك ؟...

لم يكن قادراً على أن يجيبها ، وعلى أن يودعها بقوله : إلى اللقاء . كانت تلك هي المرة الثالثة أو الرابعة ذلك اليوم التي ينقبض حلقه فيها بشدة لدرجة أن تؤلمه مثلما ، في طفولته ، عندما كان يصاب بالتهاب في الحلق .

وسار طويلاً كالتائه متبعاً الأرصفة . كانت واجهة متجر إيلوا ما تزال مضاءة ، أقل ضوءاً من الواجهات المجاورة ، لأن تعامل المتجر لم يكن بأصناف تتطلب اجتذاب الزبون .

اقترب ، وابتعد . وشأنه مساء وصوله ، أخذ يحوم متردداً ، وهو يرى خالته في مكتبها ، والمستخدمين وهم يحزمون الطرود .

وأخيراً ، خرج أحدهم الى الرصيف وبدأ في تثبيت الأغلاق

الخارجية للنوافذ . ولم يعد هناك إلا الباب المضاء ، ثم تعين النظر باتنباه لتبين خط الضوء تحت أسفل الباب .

في سطيحة « مقهى الفرنسي » ، كانت تعزف الموسيقى لأن الناس يتمتعون بإحدى أولى الأمسيات الجميلة . وراح رجل جزائري ينتقل من طاولة الى طاولة واضعاً على كل منها بعض حبات من الفستق . وعلى مسافة أبعد قليلاً ، فيما وراء الساعة العامة الكبيرة ، طيفان أو ثلاثة في الظلمة ، نساء يترصدن زبائن ، على أهبة الاستعداد للابتعاد اذا ما رأين مفتش شرطة .

كانت كل المدينة مضاءة . والنور أشعل في كل المنازل ، عائلات على وشك الجلوس الى مائدة العشاء ، تحت المصباح ، وأطفال يجمعون وظائفهم التي انتهوا منها أو يتعلمون دروسهم بصوت منخفض .

ورفع عينيه . في الطابق الأول ، لابدّ أن الآنستين إيلوا...

ولم يجرؤ . استمر يبتعد أيضاً . وسمع الباب يفتح فالتفت ، ورأى المستخدمين يخرجون كل في إثر الآخر ، وركب اثنان منهما دراجة هوائية .

كان وريث أوكتاف موقوازان ، « وريثه المطلق » الآن بعد أن اكتشف سر عمه . سوى أن موقوازان لم يخامره شك في أنه ذات يوم سيقضي بالسم .

ما الذي كان سيفعله لو أنه علم ، « لو أنه علم عن طريق من سيجري تسميمه » ؟

كما أنه لم يساوره أي ارتياب في أنه ذات يوم ، في هذا الرواق من الطابق الثاني الأليف كل الألفة بالنسبة إليه ، ابن أخيه سيعانق كوليت وسيغمره أقوى انفعال هزه في حياته .

وانفتح الباب مرة أخرى . كانت الضاربة على الآلة الكاتبة . ونظرت فيما حولها . هل تراها تنتظر عاشقاً ؟ ورأت جيل ، فعادت الى الداخل لحظة . وأدرك أنها تقول لجيراردين إيلوا :

ـ (إنه) هنا...

وابتعدت . وظل ثمة ضوء تحت أسفل الباب ، وانقضت عشر دقائق أيضاً . ولم ينطفئ الضوء .

عندئذ ، اجتاز الشارع . وبينما أخذ يدير زرّ الباب ، كان مفتاح يدور في القفل ، وانفرج الباب ، ووجد نفسه أمام خالته التي كانت تنظر إليه بنظرة ثابتة .

وبصوت طفل مخجول تقريباً ، نطق :

ـ مساء الخير يا خالتي ...

وانعقد حاجباها ، مستغربة أن تحس في النبرة عاطفة حقيقية . وكان ذلك حقيقياً! لم يكن يجرؤ على الالتفات نحوها! كان يودها فعلاً! ويشعر بالخزي لوجوده هنا!

وأعادت إغلاق الباب بالمفتاح واتجهت ناحية المكتب الزجاجي . وكان يرى شكل قامتها صلبة التكوين أمامه . ويعرف أنها خائفة ، وأنه هو الذي كان يخيفها ، وانتابه غضب من نفسه لتعذيبه شقيقة أمه على ذلك النحو .

وكان يفضل لو يكلمها بقلب مفتوح ويخبرها بكل ما يفكر به وكل ما يحسه .

ـ ادخل ...

كان المعزف يرن في الطابق الذي فوقهما ، وترتطم العلامات الموسيقية الخائبة بكل جدران المنزل .

وارتعش منخرا جيراردين إبان رفعت عينيها للحظة ناحية

السقف . ثم ابتسمت ، لا كما يبتسم المرء حين يكون مسروراً ، ولا مثلما عندما يريد أن يبدي التهذيب ، بل كأنما ذلك خضوع لارتكاسة عصبية ، اختلاجة . وبعد أن ضمنت الثقة ليدها التي كانت ترتجف وهي تضعها على مسند أحد الكراسي ، مدت ذلك الكرسي لابن أختها وقالت :

ـ اجلس يا جيل ... ما الذي عندك وتريد أن تخبرني به ؟...

لماذا ، في تلك اللحظة ، شابه صوتها صوت أمه ؟ لم ينظر جيل الى جيراردين ، ولم يكن من شأن ذلك إلا أن يعزز توهمه .

وألقى بنفسه على الجدار ، ورأسه بين يديه ، وهزت الدموع جسده الطويل ، نحيل العود .

- ٦ -

استمر البيانو يعزف فوق رأسه جملة تستعاد بلا نهاية ، لأن أصابع من يعزف ـ وهي لويز على الأرجح ـ ظلت تتعثر بانتظام عند علامة إيقاع ، هي ذاتها في كل مرة . ومن دون أن تشعر بأي إغراء لأن تقفز فوق العائق متجاوزة إياه ، فإنها كانت ترجع الى الوراء ، لا بأبطأ ولا بأسرع .

ورغم إغماضه عينيه ، لم يقلل ذلك من وعي جيل للديكور الذي يحيط به ، وبخاصة هذا المخزن الواسع المنخفض والمزدحم بأشياء بعضها فوق بعض ، الذي كانت تشيع فيه المصابيح المطفأة وحواجز المكتب الزجاجية نوراً أصفر بلون الحبال المكدسة بعضها فوق بعض مرتفعة على شكل عمود . وفي كل مكان ، تدلت من السقف معدات بحرية ، فوانيس ، وعناقيد من البكرات ، وجرادل ، وأشياء لا شكل لها ترسم ظلالاً غامضة السر ، بينما في الواجهة ، كان شيء يتحرك ، لعله هر أو جرذ .

كان جيل يبكي ، ولشعوره بأن خالته ساكنة الحركة وراءه ، أمسك عن انتحابه بقصد أن يحس تنفسها . إذ لابد لها بعد أن تقوم بحركة ما ، أن تنطق ببعض كلمات أياً كانت . ولا يمكنها أن تبقى

على ذلك النحو وكأنها معلقة ، ومع ذلك ، فإن الثواني والدقائق انقضت ، والدموع أخذت تتضاءل ومازال لا شيء يتحرك .

أكان هو من سيتوجب عليه أن يستدير وأن ينظر اليها في وجهها ؟ هل كانت تبكي بصمت ؟ هل جمدت بسبب من انفعالها العاطفي ، فهرب اللون من وجهها وغارت ملامحها ؟

وفجأة ، جلست أمام مكتبها . فقد صرت قوائم الكرسي صريراً خفيفاً على الأرضية . وأراحت يديها على أوراق أمامها .

وبصوت هادئ ولئيم نطقت :

ـ عند انتهائك من تمثيليتك المتكلفة ...

وظن أنه لم يسمع جيداً . وجفت دموعه على الفور . وبقي لحظة ساكن الحركة ، ورأسه على ذراعيه المثنيين على الجدار ، ثم ببطء ، شد قامته . وببطء أيضاً ، استدار ورآها ، هادئة مثلما عندما تستقبل زبوناً ، تحدق به بنظرة ثابتة قاسية .

وسألت مع آخر شهقة شهقها :

ـ هل انتهيت ؟... لعلك يمكنك الآن أن تقول لي ما تريد قوله ؟...

إنها استغلت وقت بكائه كي تسترد هدوءها . ولم يحدث له أبداً من قبل أن رآها على ذلك القدر من القسوة وسيدة نفسها الى ذلك الحد . وتساءل في سره كيف أمكنه قبل قليل أن يأخذ صوتها على أنه صوت أمه ؟...

هو أيضاً ، كان الانفعال العاطفي قد انقضى عنده . ومثلما بعد نوبات البكاء في الطفولة ، أحس نفسه خاوياً ورخواً ، وجلس على كرسي ، وخفض رأسه ، وقال بصوت سيء النبرة :

ـ لا يمكن تركها تدان يا خالتي ، تعرفين جيداً أنها لم تفعل شيئاً .

وما كان من جيراردين إيلوا إلا أن قالت ساخرة وهي تظهر أسنانها الكبيرة :

ـ هي التي يتبغي إنقاذها أليس كذلك ؟... إنهاهي ، هي وحدها التي تهمَّ .

ـ إنها لم تسمم عمي ، تعرفين ذلك ...

كان مستعداً ، حتى تلك اللحظة ، أن يدفع الكثير مقابل أن تبدي خالته احتجاجاً ، ولكنها لم تكن تكبد نفسها عناء ذلك .

ـ هل حملت السندات الى قاضي التحقيق ؟...

وهز رأسه نفياً .

ـ ماذا قلت له ؟

ـ لاشيء يا خالتي ... اسمعي... أجهل ما الذي سيتوجب عمله...

ولو لم تكن جالسة أمامه باردة برودة الحجر ، لتكلم على نحو مختلف . فقبل قليل ، ازدحمت كلمات أخرى على شفتيه . وكان من شأنه أن يقول لها :

ـ أعرف كل شيء يا خالتي ... ولا أقوى على أن أكن أي ضغن إزاءك... وأعرف أنك عانيت الشدة والتعاسة منذ وفاة زوجك ، وأنك تتخبطين في خضم مصاعب ليست هي النصيب الذي يقضي العرف بإسناده للمرأة... وأعرف أنه اذا ما كنت قوية في الظاهر ، لدرجة أن الرجال ينطقون باسمك بظل من مهابة ، فذلك لأن الأمر لا مهرب منه ، لأنك تسهرين بضراوة على أطفالك وعلى مؤسسة إيلوا التي تعتبرينها ملكهم الشرعي ...

« أوكتاف موڤوازان ، متستراً بأنه يساعدك ، جرّدك من القليل الذي كان باقياً لك...

« وعندما كان يجلس في هذا المكتب ، كل يوم الساعة

الخامسة ، فإنما كان يفعل بصفته السيد الذي يطالب بالحسابات ويملي الأوامر...

« كان قابضاً على مصيرك ومصير أطفالك بين يديه ... كان منيعاً على أي احساس إنساني وبخاصة الشفقة...

« وكنت تحسين أن بوب يشكل خطراً ، وأنه في هذا اليوم أو ذاك ، سيقدم على حماقات ...

« وهو ، فعلاً ، الذي سلم نفسه بطيش ، مغلول اليدين والقدمين ، لموڤوازان ...

« وقضى عمي برحيله ، وبأن يتطوع في قوات المستعمرات... فكرة بوب في افريقيا ، متروكاً لهواه ولكل رذائله...

« أليس الأمر يا خالتي ، أنه على هذا النحو ؟... أليس صحيحاً أنك غششت ، وأنك أخفيت بوب في مكان ما في فرنسا ؟... أليس صحيحاً أن موڤوازان فطن للخديعة... أليس الأمر أنك اذ ذاك واجهت في نفسك موضوع موته ؟...

« أنا ابن شقيقتك . ولست قاضياً . أنا لا أتكلم باسم العدالة وسيان عندي إن عوقب القاتل...

« ولكنك تعرفين حق المعرفة يا خالتي ، أن امرأة لم تفعل شيئاً هي متهمة بدلاً منك... وتعرفين جيداً أنه... » .

هذه الجمل ، لم ينطق بها وساد الصمت مجدداً في المكتب الصغير ، تاركاً فضاءه لعلامات البيانو الموسيقية . مرتين ، أو ثلاث مرات أخرى أيضاً ، نظرت جيراردين الى السقف بنفاد صبر . كان بودها لو تسكت تلك الموسيقى التي تضرب على الأعصاب ، لكن ذلك كان يقتضي أن تذهب الى صدر المخزن وأن تصرخ عبر قفص الدرج . إضافة لذلك ، ألم تكن تلك هي آخر مرة يُعزف فيها على البيانو في المنزل ؟

ـ أفترض أنك ستبدأ بأن ترسل بابن خالتك بوب الى السجن ؟...
ما الذي كان بوسعه أن يجيب به ؟... لا! لم يكن هذا هو ما يبغيه بالضرورة . كان ما يتعين هو إنقاذ كوليت . سيتهمه الجميع بأنه عشيقها ، لكن ما يتعين إنما هو إنقاذها . كان يشعر بالخزي . وأخذ يردد لنفسه أنه ، ومن دون القبلة التي تبادلاها على الدرج ، كان من شأنه أن يتصرف بالطريقة ذاتها ، وكان ذلك صحيحاً .
ـ ينبغي عمل شيء يا خالتي ... لا أعرف ماذا... ربما إذا ما ...
وتردد . بدا له أن ابتسامة لئيمة السخرية أخذت تمط شفتي خالته الجافتين
ـ أنا مصغية ...
ـ إذا ما رحلتم جميعاً الى الخارج ... فقد أستطيع ...
كانت ثمة كلمات يلقى للنطق بها مشقة أعظم مما بالنسبة لأية كلمة أخرى ، وبخاصة كلمة : مال . فهو يملك فائضاً منه ، هذا المال الذي جاءه دفعة واحدة ، ويعاني بعض النفور من استخدامه .
ومع ذلك ، فما أبسط ما سيكونه الأمر! سيعطي خالته إيلوا كل المال الذي تريد ، وسترحل لخارج البلاد ، في هذه الليلة بالذات ، وحالما تجد نفسها أنها في مأمن ، فإنها سترسل باعتراف بجريمتها...
وفطنت هي لذلك ، وسخرت :
ـ وستعطيني مبلغاً ، أليس كذلك ؟...
وأجاب بحركة من رأسه تعني : نعم . ظل مستمراً على أمله ، وما عاد يجرؤ على أن يلتفت نحوها ، لأن شجاعته ستخذله اذ ذاك .
هدوء خالته الفظيع ، وبرود أعصابها غير المنتظر ، بدلاًمن أن يثيرا استنكاره ، أشعراه بمزيد من الشفقة أيضاً نحوها . وردّت هي بعدوانية :

ـ حسناً ، لا! يا صغيري جيل... أرفض ... افعل كل ما بدا لك... اشكُ ابن خالتك ... ولا يهم ، أليس كذلك ، اذا هو فقد شرفه ؟... واشكني!... سيطالبونك ببراهين... أما بالنسبة إليَّ ، فسأدافع عن نفسي...

وشدت قامتها وقد نهضت فبدت له أطول بكثير مما هي .

ـ أعتقد أن هذا هو كل ما عند أحدنا ليقوله للآخر...

ونظرت ناحية الباب . كانت تصرفه . بل مدت إليه حتى بقبعته التي كان وضعها على المكتب . بل احتفظت كذلك بحضور ذهنها لتدير زر الكهرباء الذي يتحكم بمصابيح المخزن ، وعندما صار جيل على الرصيف ، سمعها وهي تضع العوارض الحديدية وراء الباب .

كان رانكية في انتظاره وسار الى جانبه ، ولكن جيل لم يوجه الكلام إليه ، ولم يبد عليه أنه لاحظ وجوده ، وعندما رجع الى منزل رصيف الـ : أورسولين ، اكتفى المفتش السابق برفع قبعته بالتحية بصمت .

وسألت أليس وهي تتقدم منه لتقبله متخذة تعبيراً يلائم الوضع :

ـ هل احتفظوا بها ؟...

وحدق بها بنظرة ثابتة من دون أن يفهم . بل دهش تقريباً من أن يجدها هنا .ولم يسبق له قط من قبل أن أحس مثل الآن لأي درجة كانت زوجته غريبة عنه .

ـ ما الذي ستفعله ؟

وهز كتفيه . ما سيفعله ؟ إنها لن تستطيع أن تفهم .

وأعلن وهو يرى المائدة معدة والخادمة تحضر وعاء الحساء :

ـ لن أتناول العشاء .

ـ لماذا ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟

ـ لفوق ...

وتابعت تلح ، في تصرف خائب :

ـ تناول شيئاً على الأقل... ولو بعض الحساء... ما رأيك بشريحة لحم ؟

ولكنه كان قد ابتعد من دون أن يستمع اليها .

كان الوقت قريباً من منتصف الليل عندما صعدت بخطى مكتومة الصوت وألصقت أذنها بباب غرفة العم . ولم تسمع أي شيء . وحاولت أن تنظر عبر ثقب القفل فلم تر إلا جزءاً من السرير .

عندئذ نقرت على الباب نقرات خجولة :

أجاب صوت هادئ : ـ ادخلي ...

ومن دون أي نفاد صبر ، استدار نحوها . لم يكن في وضعه أي شيء غير عادي ، خارق . على العكس ، يندر أنه سبق وكان على هذا القدر من الهدوء . أمامه ، على المكتب ذي الدرج المستور ، كانت وثائق الصندوق منشورة وبعض الأوراق غطيت صفحاتها بملاحظات كتبت بيد جيل ...

ـ ماذا تفعل ؟ ألن تأتي لتنام ؟

بينهما ، تلك الليلة ، قام فراغ كبير الأبعاد لدرجة ، بحيث بدا أنه لا شيء بعد الآن سيمكنه أن يقرّب مجدداً بينهما . لم يتخاصما . ولم يحدث شيء . لم يكن بمقدوره أن يأخذ أي شيء على أليس ، سوى اللهم أنها مجرد هي ، فتاة عادية كيفما اتفق ، لم تعد حتى تضايقه في شيء ، ولكنه لا يكن نحوها إلا لا مبالاة كاملة .

ـ أتريد أن أجعلهم يحملون إليك هنا قصعة مرق ؟

ـ نعم...

ما نفع نفاد الصبر ؟ ... كان ينتظرها أن ترحل ،وبعد ذلك

سيواصل العمل الذي بدأه في عزلة الغرفة حيث عمه كذلك ، وحيداً ، هو أيضاً ، قضى كل تلك الليالي .

ألن يتعين عليه أن يعتاد الوحدة ؟ فكوليت سترحل . ستغادر المدينة مع الطبيب سوڤاجيه ، الذي سينتهي الأمر ولابد بأن يقروا له ببراءته .

وحالما تنقضي العاصفة التي سيطلقها جيل من عقالها ، فإنه سيصير عموماً الوارث الحقيقي لعمه ، خليفته الفعلي ، وسيسود حوله الفراغ نفسه الذي أحاط بأوكتاف موڤوازان .

واقتربت أليس لتقبله من جبينه ، وتركها تفعل . وداعبت شعره ، ولئن وجد هو الحركة مبتذلة فإنه لم يقل شيئاً يعبر عن ذلك .

ـ ألن تفعل خيراً إذا أنت ارتحت ؟...

وهز رأسه نفياً . إذ ينبغي أن ينتهي من ذلك . بعدها ، قد لا تأتيه الشجاعة ربما .

وزفرت بإذعان :

ـ طابت ليلتك يا جيل .

ـ طابت ليلتك .

وكاد لا يسمع الخادمة التي جاءت لتضع قصعة مرق وقطعة لحم عجل باردة على المكتب ، وقد نظر إليها بعينين جعلتاها تتساءل وهي تغادر الغرفة اذا ما كان قد عرفها .

بعد قليل ، سيكتب على نسخة مبيضة الوثائق التي صاغ نصها :

«سيدي النائب العام ،

«لي الشرف أن أفيد كم علماً...

في الساعة الثالثة صباحاً ، في مغلف أصفر كبير ، أُغلق على الرسالة . كانت ثمة رسائل أخرى ، يمكن للعين أن تقرأ عليها عناوين

السيد پلانتيل ، وراوول بابان ، والشيخ پونو- راتو ، الوزير السابق ، وهرڤينو ، وآخرين كذلك .

وشرب جيل المرق الذي برد . وأكل ، بلا خبز ، شريحة اللحم التي كانت لها نكهة مذاق دم ، مثل طعم شفتيه هو ، عقب ما ضربه بوب في الصباح .

لقد انتهى الأمر . ولم يعد له أي شيء يفعله .

ولم تخطر له فكرة النزول لينام بجانب زوجته في الغرفة التي رتبتها هذه وفقاً لذوقها والتي ، مع اضطراد تحولها ، أخذت تبدو له متزايدة الغربة عنه .

وبعد أن شكل جيل مجدداً كلمة «ماري» ،واضعاً كل الأوراق في الصندوق ، ثم فكّك الكلمة ، انتقل الى الغرفة التي كانت غرفته قبل زواجه .

وأزاح الستارة عن النافذة ، علماً بأنه كان يعرف أنه لا يوجد نور في غرفة زوجة عمه .

كانت الأسطحة ، تحت ضوء القمر ، تبدي حروف ذروة ذات وضوح باتْ ، بصفحات جانبية ملساء كالصحارى ، بينما لاح بلاط الشوارع ممتقع اللون .

كانت الصور الفوتوغرافية ما تزال في مكانها ، على رخام المدفأة الأسود .

في إحداها ، والد جيل ، في ثياب الموسيقيين ، وبيده الكمان ، يبدو وهو يحيي جمهوراً متحمساً . كان جميلاً ، بوجهه ذي الملامح الدقيقة والشاحب دائما ، وبشاربيه دقيقي الحافة .

هكذا كان يظهر في ڤيينا ، في ذلك المقهى ذي التزيينات المثقلة باللون الذهبي والملائكة رسل الحب السمينة ...

وبعد ذلك ، وعقب عودته الى البيت ، كتب أبوه :

« عزيزي أوكتاف...

وتمتم جيل بصوت منخفض

ـ يا مسكين يا أبي!

وتأمل إحدى صور أمه . كانت واحدة من تلك البطاقات البريدية سيئة السحب التي يبيعها فنانو السيرك ومسارح المنوعات في فواصل الاستراحة .

وكانت أمه مرتدية فيها زي العرض ، ساقاها وفخذاها مسكوبان في قالب سروال يعرف جيل أنه باللون الزهر الذي للسكر الذائب .

لقد صدمه دائماً أن يرى أمه في هذا اللباس . وأشاح بعينيه :

ـ المعذرة يا أمي ، عفوك ...

العفو عن ماذا . إنه فعل ما يعتقد بأن واجبه هو أن يفعله . وأحس مع ذلك بأنه مذنب تجاه الجميع ، تجاه آل موقوازان ، ونحو عمه بالذات ، وتجاه أمه التي كان مقدِماً على مهاجمة أختها .

كان شبح خفيف يهيم في الشقة ، مثلما في الليلة التي جاءت كوليت فيها بلا صوت كي تأخذ المفتاح من غرفة جيل .

وهي في هذه الليلة نائمة بين جدران سجن . من أجلهاهي إذا ما هو...

وبعدها ، سترحل... سترحل مع آخر ، مع سوفاجيه ، في حين أن جيل...

ونام بملابسه ، تراود الكوابيس نومه ، مثلما عندما كان صبياً صغيراً ، وقد استيقظ في أحدها سابحاً في عرقه ، وهو جالس ، ولديه الانطباع بأنه كان قد صرخ ، وأصاخ بأذنه كأنما ليلتقي في صمت المنزل مجدداً صدى صوته .

في الساعة التاسعة صباحاً ، وجده رانكية مرتاحاً نشطاً ، في مكتبه ، إنما شاحب . وكانت أمامه رسائل عديدة

ـ ليتك تتكرم بإيصالها الى عناوينها يا سيد رانكية ...

ثم شوهد في بهو السيارات حيث تبادل بضع جمل ، بتمهل وتؤدة ، مع حميه .

كان المستخدمون والعمال يراقبونه خلسة ، لأن صحف الصبح نشرت نبأ توقيف كوليت موفوازان . وجرى التلميح فيها أيضاً الى الحادث الذي جرى في اليوم السابق بين بوب وجيل في الـ « كافيه دو لا پيه » .

في الساعة الحادية عشرة ، دخل الى مشرب « لوزّان » . وفهم ، من مظهر الجدية البادي على بابان ، أن هذا الأخير قد تسلم رسالته . ومع ذلك ، فلم تكن هناك عند مجهز السفن أية ضغينة . بل على العكس ، كان يمكن أن يقرأ المرء في عينيه بعضاً من تقدير ، وكان هو الذي تحرك من مكانه وجاء لعند منصة الساقي كي يمد يده الى الشاب .

لم تعد هنالك من حاجة بينهما لكلام كثير .

ـ لعلك على حق يا سيد جيل ... أتساءل مع ذلك عما اذا كنت مدركاً لما هي القوى التي تطلقها من عقالها ... أنت لا تعرف جيراردين بعد... سوف تدافع عن نفسها بالأسنان والأظافر...

ولمح جيل بعد ذلك بقليل خالته في متجرها ، وفي لحظة ما أدارت وجهها باتجاهه .

ما عاد في نفسه أي وخز ضمير ، أي تردد . وعندما دخل الى قصر العدل ، لم يكن مثلما في الأمس ، يضل طريقه في متاهة الأروقة والأدراج .

ـ هل تفضلت بالإعلان عن قدومي للسيد النائب العام ؟ أعتقد أنه ينتظرني ...

في الساعة الثالثة ، صدرت طبعة خاصة من جريدة «المونيتور» ، وأخذ باعة الصحف ينادون في الشوارع وعلى طول الأرصفة ، وراحت تتشكل جماعات ، بينما آخرون على عتبات متاجرهم كانوا يكثرون من الحركات بأيديهم .

تحول مفاجئ في الموقف

في قضيتي التسمم

جيل موفوازان ، وريث عمه ، يتهم .

هل يتم الإفراج عن كوليت موفوازان ؟

ـ لماذا لم تخبرني بشيء يا جيل ؟

ولماذا كان يمكن أن يكلم أليس عن ذلك ؟

ـ أصحيح أنهم سيضعون الخالة إيلوا في السجن ؟ أتعتقد أنها هي التي دسّت السم لعمك ؟... بالمناسبة ، اتصلوا مرات عديدة بالهاتف في طلبك .

ـ أعرف

ـ وقد جاء السيد پلانتيل للآن مرتين ...

ـ أعرف...

ـ آه . هكذا... حسن!

قالت ذلك ، وقد ذهبت شجاعتها عنها .

هذا لم يمنعها من أن تنتقل الى وجه آخر في مناحي تفكيرها

ـ هل أعمل على متابعة الأعمال الجارية في غرفة الاستقبال وغرفة النوم ؟...

ـ اذا شئت .

ـ ما الذي تأخذه عليَ ؟... يذهب ظن المرء الى أنك ما عدت تحبني...

ـ طبعاً لا... آؤكد لك أنه لم يتغير شيء... توقفت سيارة للتو عند الباب... هاهو يقرع... لا شك في أنه پلانتيل ... قولي من فضلك لمارت أن تصعد به الى مكتبي فوق ؟

ظاهراً ، لم يتغير مجهز السفن ،وظل أنيق الهيئة ، يبذل الجهد في ارتداء ملابس على نفس القدر من الجمال ، وقد تقدم ماداً يده .

ـ طاب يومك يا جيل ... سبق أن جئت مرتين قبل الآن .

ولم يصافحه جيل واكتفى بأن تمتم :

ـ اجلس يا سيد پلانتيل ...

ـ أيمكن أن أدخن ؟...

ـ تفضل ، أرجوك ...

كانت النافذة مفتوحة وتدخل منها رائحة وقود محروق يتصاعد من السيارات المصطفة أمام سياج المنزل .

وبدأ پلانتيل كلامه ، بعد أن وضع ساقاً على ساق وعدل عن ذلك عدة مرات .

ـ لست بحاجة لأن أقول لك ...

كان جيل منصرفاً للإعجاب بحذاءيه الملمّعين كمرآتين

ـ لا حاجة بك لأن تقول لي أي شيء يا سيد پلانتيل ... وما دمت تلقيت رسالتي فأنت مطلع على مجرى الأمور...

ـ اتصلت جيراردين بي...

ـ رأيتها أنا أيضاً...

ـ عبثاً نصحتها بأن ...

ـ لاشك يا سيد پلانتيل في أنك أسديت لها نصائح قيمة... ولكن خالتي لا تريد للأسف أن تصغي لأي شيء... لا مناص مع ذلك من إطلاق سراح كوليت والاعتراف ببراءتها...

وأخذ پلانتيل ، غير مرتاح ، ينظر بذهول الى هذا الشاب الذي عرفه خجولاً يتمتم كلامه تمتمة ، وهو يتحدث الآن بهدوء مريع عن العمل على إدانة شقيقة أمه .

وتابع جيل بعدم اكتراث لا إنساني تقريباً :

ـ ما كان عليك أن تزعج نفسك بالقدوم . فأنا أعرف أنك ستبذل كل ما بوسعك لكي يتم الاعتراف بأن كوليت والطبيب سوڤاجيه بريئان ، أليس كذلك ؟

ـ لكن طبعاً... طالما أنهما فعلاً بريئان ، فمن الطبيعي أن...

كان ملف القماش الرمادي على المكتب ، وتردد مجهز السفن وهو يلمحه في أن يتكلم مجدداً :

ـ أما فيما يتعلق بـ...

وجيل ، هادئ لحد الشراسة .

ـ الإيسپادون وموت الصغير جان أغواديل ...

ـ أؤكد لك يا جيل أنه لو أمكن توقع ...

ـ لا يهم يا سيد پلانتيل ... المسألة منتهية ، أليس كذلك ؟... يبدو أن أمه تبيع السردين في ركن شارع قصر...

ـ أنا جاهز لأن...

ـ لا أشك في ذلك ... فيما بعد ، حين تستتب الأمور كلها ويعود كل شيء الى حاله ، فمن المرجح أنني سأفتح هذا الملف بحضورك وسنحرق معاً بعض الوثائق...

ونهض .

ـ حالياً يا سيد پلانتيل ، عندي عمل كثير...

ـ المعذرة اذا كنت أزعجتك ...حرصت على أن أقول لك بنفسي إنني سأفعل كل شيء من أجل... بالمناسبة... جاء پونو ـ راتو لرؤيتي البارحة مساء... وهو مستعد لأن يأتي شخصياً لزيارتك .

ـ ما من ضرورة للزيارة ...

ـ وبديهي أنه متفق كلياً معك... أمر شاق بالنسبة لرجل في مثل منزلته الرفيعة...

ـ أن يُتهم باحتجاز ميراث وحرمان صاحب الحق فيه منه .

وفتح جيل الملف بإهمال وسقطت يده على القميص الذي يحمل اسم عضو مجلس الشيوخ .

ـ ... ومع ذلك ، فابنة الأخت تلك التي أدخلها الى مؤسسة خاصة بالمختلين ، والتي جُنت فعلاً ...

كان صبية صغار منصرفون من المدرسة يلعبون بالكرات الزجاجية الصغيرة على طول الأرصفة وهم يطلقون صرخات حادة .

ـ طاب مساؤك يا سيد پلانتيل ...

ـ طاب مساؤك يا سيد جيل . مرة أخرى ، ثق بأنني...

ـ أنا واثق يا سيد پلانتيل...

وأعاد إغلاق الباب وراء مجهز السفن الأنيق ، وفتح آخر هو باب مكتب عمه .

ـ ادخل يا سيد رانكية ... عندنا عمل نحن الاثنين ...

ـ ٧ ـ

ـ هل تمنحني دقيقتين أخريين أيضاً يا صغيري جيل ؟... اصفح عني... فأنا لا أطاق ، أليس كذلك ؟

لم يبتسم . وفي جلوسه في السيارة وهو وراء المقود ، نظر الى حماته ، مرتدية ملابس فاتحة اللون ، وهي تندفع الى متجر حلويات ، وظل يراها بعد أن صارت داخل المتجر وهي تؤشر بيديها للبائعة . لابد أنها ، بفائض الحيوية التي تستولي عليها كلما خرجت معه ، كانت تقول لها :

ـ بسرعة يا آنسة... صهري ينتظرني في السيارة... وهو مشغول لدرجة!

ويا للسيدة لويار الطيبة! فإنها هي التي غيّرها زواج ابنتها أكثرمن كل الآخرين . فمنذ أن صارت عندها خادمة ، وتخرج بعد ظهر كل يوم ، فإنها أخذت تولي هندامها وزينتها عناية كبيرة ، فتلوح بشخصها القصير ، أكثر اكتنازاً باللحم ، ولونها الزهر أجلى ، وأكثر طراوة .

عادت خلال ذلك ، تتبعها بائعة شابة تحمل ربطات تغلف ما اشترته من الكاتو .

ـ ضعي هذا كله هنا يا آنسة... شكراً... يا إلهي يا جيل ، ألم تنزل أليس بعد ؟... لامناص لها من أن تبالغ على الدوام... لا يبدو عليها أنها يخطر ببالها أنك هنا منتظر في وطأة الشمس...

إيسپري لوپار ، هو ، استغل تأخر ابنته كي يدخل الى محل لبيع التبغ كي يشتري غليوناً ، وهو يراقب السيارة عبر الواجهة .

كانوا في روايان ، في شارعه الرئيسي ، ويوم عيد العنصرة .

قديماً ، خلال حياته المتشردة مع أهله ، لم يعرف جيل الأعياد التي تقرع الأجراس لها إلا عن طريق السماع ، أو لأنه في تلك الأيام كان يجري تقديم عرضين لا واحد . وهو منذ أن حل في مدينة الـ « روشيل » ، ذات يوم يسبق نهاره عيد جميع القديسين بيوم ، اتخذت هذه الأعياد عنده قيمة مختلفة ، بل يمكن استخدامها كإشارات تضع العلامات ما بين مراحل حياته .

أولاً عيد الميلاد ، عيد ميلاد بلا ثلج ، لكن يكتّمه مع ذلك الضباب ، تحت شجرة الصنوبر البحري التي كانت أليس تدعوها بمظلتهما ، وهو معها ، تلوذ هي مشدودة إليه من رأسها الى قدميها وأنفها متجمد من البرد . كانت الساعة هي السادسة ، وفي الثامنة من ذلك اليوم ، دخل منزل أسرة إيلوا واجتاز المخزن الكبير المعطر ، لأن خالته كانت دعته لقضاء السهرة عندهم في جو عائلي .

وقد عزفت لويز على البيانو . وعند منتصف الليل ، تبادل الجميع القبل ، واحتفظ فمه طوال الليل برجع مذاق الكبد المسمّن والشمبانيا . أما بالنسبة لكوليت ، فإنها قضت تلك الليلة عند أمها في زقاق إيڤيسكو ، كي تخفف من إحساسها بالوحدة ، إلا أنه قبل أن يعود الى بيته ، في ساعة متأخرة من الليل ، رسم قوساً في طريقه لكي يقترب منها للحظة ، لينظر الى النوافذ المظلمة ، في حين كان هواة السهر يغنون في الشوارع .

رأس السنة ... متصلب القامة ، ملتزم للأصول ، ومرتبك بقامته الطويلة ، ذهب لتقديم التهاني بالعيد الى منزل أسرة پلانتيل ، وشرب مجدداً نبيذ پورتو في غرفة التدخين التي تشيع فيها رائحة جلد روسي .

وقد أعطته أليس منديلاً طرزته بنفسها ، ولم يفكر هو بأن يقدم لها هدية . لم يكن يعرف . فأبواه لم يكونا يتبادلان الهدايا...

ومنذئذ ، تغيرت الحياة في منزل شارع الـ : أورسولين ، فغرفة الاستقبال وغرفة النوم تحول شكلهما طبقاً لذوق أليس .

واقترحت هي عليه :

ـ ماذا لو ذهبنا لقضاء عيد الفصح في باريس ؟ إنك لم تر باريس قط . سيوفر ذلك راحة لك...

وذهب الى باريس ، بالسيارة ، وهذه المرة لم يكونا إلا اثنين . ونزلا في فندق كبير في شارع ريفولي .

ومن الليلة الأولى ، أصر جيل على الذهاب لرؤية شقة مفروشة صغيرة تقع وراء سيرك ميدرانو هي التي ولد فيها . كان جميع الباريسيين يندفعون الى محطات القطارات ، نحو الأرياف والضواحي . وأخذت الشوارع تقفر باضطراد . وأغلقت المتاجر ، ويوم عيد الفصح بقيت منه ذكرى مشي لا ينتهي في اتباع الأرصفة التي تضيئها الشمس ، ثم ، من اليومين الآخرين اللذين تبقيا لهما ، التردد جيئة ورواحاً على المتاجر حيث كانت أليس ، في كل لحظة ، تتوسل إليه بنظرتها .

ـ أيمكنني ؟ .

طار عقلها فرحاً ، اشترت من دون ان تعدّ . وفي كل عودة لهما الى الفندق كانا يجدان طروداً قام الموردون بتسليمها أثناء غيابهما .

والآن ، هو عيد العنصرة .

ـ سأطلب منك شيئاً يا جيل.. اذا ضايقك أقل مضايقة قل لي ذلك بصراحة.. أعرف أن أمي سيسعدها أن تقضي يومين في روايان معنا...

وأوصت السيدة لوبار لنفسها على تايور أنيق ، وقبعة فاتحة اللون . وجرت في كل المدينة مارة على كل المتاجر فيها كي تجد أحذية تتكامل معهما ، وظلت نظرتها بلا انقطاع تحط بامتنان على جيل .

واذا حدث أن عرضت أليس هذا الشيء أو ذاك ، كالذهاب الى الكازينو مثلاً ، أو زيارة الضواحي ، كانت تهمس بلوم :

ـ ما بك يا أليس!... إن جيل هو من يعود له أن يقرر...

كانت تشعر بالحاجة لأن تكرر في كل لحظة اسم صهرها

ـ أليس صحيحاً يا جيل أن هذا الشاطئ هو الأجمل في فرنسا... ما رأيك يا جيل بـ...

إيسپري لوپار ، بمزيد من التواضع أيضاً ، لم ينس قط أنه مستخدم عند موڤوازان ، كان من المستحيل جعله يتبنى ملابس غير حلته الرسمية السوداء ، مع ربطة عنق سوداء ، وصدارة بيضاء منشاة صلبة .

ونزلت أليس أخيراً وجلست بجانب زوجها .

ـ هل جعلتك تنتظر ؟

ـ لا ...

وتدبر الحموان أمر جلوسهما في المقعد الخلفي . ووقع نظر أليس على مشتروات أمها الملفوفة بورق أبيض .

ـ كنت موقنة من ذلك... فأمي لا تستطيع أن تذهب الى أي مكان من دون أن تشتري حلويات كاتو لكل جاراتها...

ومع ذلك ، بدت أليس منشغلة البال . وقد اختلست النظر مرات

عديدة الى زوجها وهو يقود السيارة على الطريق الذي كانت السيارات تمضي عليه في ذلك اليوم الواحدة تلو الأخرى في خط مستقيم .

ولقد أوصتها أمها مرات عديدة :

ـ ينبغي عدم ازعاجه . عنده هموم كثيرة... طالما أن تلك القصص لم تنته بعد...

وقبل ذلك بثلاثة أسابيع صدر حكم بمنع المحاكمة لصالح سوڤاجيه الذي تعذر العثور على أي إثبات مادي ضده . وقد غادر من فوره مدينة الـ : روشيل ليستقر في فونتنيه ـ لوكونت حيث كانت فيها عيادة طبية برسم التسليم ، وبعدها بيومين لحقت كوليت به .

لم تجر مقابلة وداع . وظلت كوليت تسري رعشة عصبية فيها وتحيا ماتزال في جو من وضع مؤقت ، معلق في الهواء ، وكأنما لم يتقرر أي شيء نهائي بعد .

ـ تدرك يا جيل ، أليس كذلك ، أنني لا أستطيع تركه وحيداً بعد كل ما عاناه ؟... وهو يسترد بمشقة شديدة عافيته... إنه عصبي كبير...

ـ لكن طبعاً يا امرأة عمي...

ـ وبالسيارة ، لن يأخذ الأمر ساعة منك كي تأتي لرؤيتنا...

ـ لكن طبعاً...

ومنذئذ ، خلت الغرفة التي في آخر الجناح الأيمن من ساكنتها . ومنزل زقاق الـ : إيڤيسكو كان خالياً أيضاً ، لأن كوليت أخذت أمها معها ورافقتهما السيدة رانكية .

ـ لا تنسي يا أليس أنه رجل ، له همومه ومسؤوليات أنت لا تحملينها . أصلاً أنا ، من ناحيتي ، قد أخشى أكثر ، زوجاً ليس له عمل منتظم...

ذلك أن جيل ومنذ الثامنة صباحاً ، كان يصعد الى مكتبه ، حيث

لا يتأخر رانكية ، على غرار كلب بدين أمين ، في الانضمام اليه هناك .

والأمر إنما آل بعد لاتباع سنّة الحياة الزوجية الفعلية . واتخذت ألِيس طاهية لتحل محل السيدة رانكية . وفي ثيابها الخفيفة الصباحية ، الزاهية دائماً أكثر قليلاً من الحد ، كانت ترافق الطاهية الى السوق وتدخل الى المحلات .

ثم ، تنصرف الى التغييرات التي تجريها في المنزل . وبدأت تفكر من الآن بإعادة ترتيب الطابق الأرضي . وكلما سألت جيل في أمر ، طالبة منه النصيحة ، كان هذا الأخير يجيبها :

ـ لكن طبعاً يا حبيبتي ... كما تشائين...

مادام أن أحداً لا يمس الطابق الثاني ، الذي هو ساحة ملكه الشخصية .

ويا لها أسابيع غريبة تلك التي مرت . ربيع لا يذكر جيل أنه عرف مثله . حجارة الأرض التي تدفأ باضطراد مع صعود الشمس في السماء ، وخمول جسدي يستولي عليك بغتة ، على حين غرة . وينبه فيك الرغبة في ألا تفكر بشيء بعد ، وتدع نفسك للانحلال ببطء في الطبيعة...

وفي الغد ، ستعرض القضية على هيئة المحكمة في محكمة الجنايات . وقد قرأ جيل في الصحف ، هذا الصباح بالذات . في روايان ، القصة الكاملة لقضية موفوازان ، وقرار عدم المحاكمة بحق كوليت التي برأت النيابة العامة ساحتها نهائياً ، وتوقيف جيراردين إيلوا ، وأخيراً حكاية الصفيحة الشهيرة إياها المحتوية على «دواء مكافحة الجرذان» .

هل عاش الآخرون خلال تلك المدة حياة طبيعية ؟ المدّ والجزر بقيا

يتبعان نظام تناوبهما ، والمراكب تمر مستعرضة ، تتعاقب كحبات السبحة وهي تتبع قناة مدخل الميناء في سبيل خروجها الى عرض البحر ، وزوارق «الكوتر» و «الدونديز» ذات الأشرعة الزرق تمضي الى صيد السردين ،والأسماك متألقة اللون تباع في الشوارع التي تنتقل حدود الشمس والظل فيها رهن مواقيت الساعات .

في مكتبه الذي لبابه لوح زجاجي ، كان قاضي التحقيق ذو الشعر الفرشاة يعيش ، هو أيضاً ، بين أوراق ملف . ولم يكن الشغل الشاغل لأحد المفوضين وثلاثة مفتشين آخرين الا أمر الصفيحة الشهيرة .

وفي مقابلة واقع الربيع المنتظر ، كان ذلك واقعاً آخر خسيساً وفجّاً ، إنما ترتهن به ربما حياة امرأة .

ما من لحظة مرت ، أبدت جيراردين إيلوا فيها أية بادرة ضعف . برأس مرفوعة ، دخلت الى غرفة القاضي ، وعلى شفتيها ابتسامة لا تخلو من تعال مزدر ، وأخيراً ، برأس مرفوعة خضعت لأصوليات إيداعها في السجن .

وعلى الرغم من الأهواء الشعبية ، ورغم الصعوبات من كل نوع ، رفضت أن يُغلق متجرها ، ونزلت ابنتاها لتحت لمساعدة المستخدمين .

هل حدثت وشاية ؟... ادعت جيراردين ذلك .

ـ عندما حضر المفوض مع مفتشين ، أدركت حالاً أنه جاء يسعى الى شيء محدد...

ـ وما الذي تقيمين تأكيدك هذا على أساسه ؟

ـ على واقع أنهم ما كان بمقدورهم أن يجدوا سبيلهم الى ما يبحثون عنه في مخزن تكدست فيه أشياء شديدة التنوّع بعضها فوق بعض... ولو أنهم فتشوا بقصد تفتيش المخزن فعلاً ، كما زعموا ،

لقضوا ساعة على الأقل ـ اذا كفتهم ساعة ، وبالنسبة لزيارة تفتيش سطحية ـ حتى يبلغوا الدرج اللولبي...

وكان ذلك هو الركن الأكثر عتمة بين محلات المخزن ، وبسبب ذلك كانوا يدفعون إليه ويرمون فيه كل شيء ، وبخاصة البضائع التي لا تنفتح النفس كثيراً لها : عبوات الزيت ، وأكياس المواد الكيميائية .

وهناك ، فوق اللوح الخشبي لأحد الرفوف ، كان ثمة ما يقرب من عشرين صفيحة حمراء مزينة بصورة جمجمة تحمل تسمية : «دواء مكافحة الجرذان : «كورنو» . وسعة الصفيحة الواحدة منها خمسة ليترات .

ـ أكنت تبيعين الكثير منها ؟

ـ تعرف ذلك جيداً ، مثلك مثلي ، طالما أنك اطلعت على دفتر القيود .

لا . لم تكن تبيع الكثير منها . كان المنتج يستخدم في تطهير المراكب متوسطة الحمولة من الجرذان ،والتي كانت سترتفع التكلفة كثيراً بالنسبة إليها اذا ما استعملت الوسائل الحديثة .

ـ هل حدث أن بعت منها بالمفرق ؟

ـ أكرر لك أن كل قيودي المحاسبية هي بين يديك .

ـ في الأشهر الأخيرة بعت منها ثماني صفائح ، واحدة منها للريّس هيوارد...

ـ ممكن ...

ـ هل تتذكرين الزيارة التي قام بها لك الريّس هيوارد ؟

ـ كنت أستقبل في كل يوم خمسة أو ستة من أرباب العمل في صيد السمك ...

ـ وقد قدمتِ له سيكار هافانا...

ـ هذا تقليد في مهنتنا .

ـ سيكار هو ، مثل غيره من التي وجدناها عندك ، دخل الى فرنسا من دون دفع رسوم جمركية ...

ـ يمكنني أن أقول إن هذا أيضاً تقليد مرعي ...

ـ تقليد ظريف ... كان من عادة الريّس هيوارد ، بعد الانتهاء من تقديم طلبيته ، أن يتجول في مستودعك ، وأن يدس أصابعه في كل شيء تقريباً ليتيقن من أنه لم ينس شيئاً...

ـ معظم زبائني يتصرفون على هذا النحو...

ـ كان ذلك في تموز .

ـ لا أتذكر ذلك...

ـ يعني هذا ، بعد وفاة أوكتاف موفوازان بشهرين تقريباً... وقد وصل الريّس هيوارد لأسفل الدرج ولاحظ صفائح «مكافحة الجرذان» ... وأخذ واحدة منها ، وفكره أن يخلّص مركبه من الجرذان التي تعيث فيه... ووضعها في منتصف المستودع طالباً إضافتها الى الطلبية... أهذا صحيح ؟...

ـ هذا بكل الأحوال يقبله العقل... لكن لو سألتك عما قمت أنت به يوم ٢٢ تموز مثلاً ، في الساعة الرابعة من بعد الظهر...

ـ أرجوك ألا تقلبي الأدوار... وفي لحظة معينة ، وبينما كان يجري وزن البضائع ، انحنى الريّس وأمسك بالصفيحة ... وقال ملاحظاً :

« ـ هذه فتحت من قبل... السدادة منزوعة عنها... سآخذ صفيحة غيرها...

« وفعل كما قال... هل تدركين الآن لماذا زيارة هيوارد هذه في بحر شهر تموز ، لا في ٢٢ منه وإنما في الـ ١٩ : وفقاً لدفاتر محاسبتك وفواتيرك ، لها أهميتها ؟ إن دواء «مكافحة الجرذان

تورنو » ، كي نسمي المادة باسمها الصحيح ، مصنوع على أساس من الزرنيخ ... وقد وجدنا التاريخ الذي وصلك فيه الصندوقان الأخيران... كان ذلك في بداية العام ، في كانون الثاني...

« وبما أنك تبيعين هذا الصنف بكميات صغيرة ، فأمر يثير الفضول أن يُعثر على إحدى الصفائح مفتوحة ولا تحتوي على كامل كمية السائل...

ـ أين تلك الصفيحة ؟

ـ أعرف ... إنك أخفيتها... هذا لا يقلل من قطعية شهادة الريس هيوارد...

وهكذا ، فهذه الصفيحة الحمراء ، ذات رسم الجمجمة عليها ، صارت هي محور القضية .

ـ لئن اختفت ، فمعناه أنها بيعت ...

ـ في هذه الحال ، كيف تفسرين كوننا لا نجد أي أثر لذلك البيع ؟... فحساباتك يا سيدة إيلوا ممسوكة بشكل مضبوط تماماً ، فيما عدا ما يتعلق بعلب سيكار الـ : هافانا ، وبعض صناديق البرنود بدرجة كحول ٦٨ ، التي يحدث لك أن تنزليها من السفن التي تتوقف في جزر الكناري ...

ـ قد يمكن أن أحد المستخدمين عندي... فأنا لا أكون بشكل دائم في المخزن ...

ـ تم استجواب مستخدميك...

الصفيحة دائماً! كم انقضت ساعات في تفتيش المحلات المختلفة في المخزن مجدداً ، بما في ذلك تحت السقف موشوري الشكل في أعلى المنزل! وكم من الأسئلة المغرَّرة طرحت على أفراد الجهاز العامل ، وعلى الزبائن المعتادين ، بله الجيران .

أحد الحلاقين مثلاً ، الذي تلاصق واجهته المطلية باللون البنفسجي منزل إيلوا

ـ إنك تفتح صالونك للحلاقة باكراً... وتعمل لساعة متأخرة ... ألم يحدث لك أبداً أن رأيت جارتك في الصباح أو أحداً من جيرانها يتوجه الى الحوض البحري ويلقي فيه بشيء ما ؟

ـ لا أعرف...

ـ هل كان من شأن ذلك أن يثير الاستغراب لديك ؟

ـ لا ... فجميع سكان الرصيف عندهم هذه العادة... فإن كان عندهم بعض القاذورات متوجبة الرمي وقد رفعت حاويات القمامة ، فأمامهم الحوض في مواجهتهم ، وحركة المد والجزر تتكفل بـ...

ـ كان ذلك في تموز... ركز ذاكرتك ...

ـ في تموز كان صالوني مغلقاً ، لأن لي صالوناً آخر في فورّاس أعمل فيه في الموسم...

أما الشهادة الأثقل وطأة والتي تقصم الظهر فكانت تلك التي ادلى بها ، من دون أن يقدر أهميتها ، أحد أمناء المستودع ، نصف أطرش ، والذي اشتغل في مؤسسة إيلوا منذ كان في الرابعة عشرة من العمر .

ـ صفيحة من دون سدادة ؟... نعم ، لاحظتها تماماً... وظننت أن السدادة سقطت في الصندوق أثناء الشحن... بل حتى حركت محتواها...

ـ هل كان السائل ناقصاً فيها ؟...

ـ ليس كثيراً ، إنما كان ينقص بعضه... وشممت... وسجلت في ذهني أن ذلك لم تكن له رائحة تقريباً... والأرجح ، على ما بدا لي ، أن ذلك يتبخر...

ـ أهي الملاحظة التي خطرت في بالك ؟... متى ؟...

ـ كان ذلك في الصيف ، لأنه نهارها ، كان جوزيف مايزال في إجازته ... والأمر ، أن جوزيف يأخذ دائماً إجازته في تموز...

ـ ألا يمكنك تحديد تاريخ اليوم ؟

ـ لا ... فقد دخل زبون الى المخزن وتركت الصفيحة حيث هي.. وبعد ذلك بأيام تذكرتها وأنا أقوم بالتنظيف ...

ـ أما زلت لا تتذكر تاريخ اليوم ؟...

ـ انتظر ... كان هنالك يخوت ملء الحوض... معنى ذلك أنه في وقت سباقات اليخوت...

ـ والسباقات تجري في ٢٦ تموز... تابع...

ـ كنت أخشى أن الصفيحة تزرب وأردت أن أطلع السيدة على ذلك...وعندما ذهبت لأخذها ، لم أجدها بعد على الرف... وخطر لي أنهم باعوها .

المأساة الأخلاقية التي نشبت ما بين جيراردين إيلوا وموقوازان العجوز ، لم يشغل أحد نفسه بها . وقد تُرك بوب طليقاً ، إذ لم تُقدم بحقه أية شكوى بشأن السندات المزوّرة .

ـ أتفهمين الآن يا سيدتي ما يعنيه غياب الصفيحة ؟... كانت هناك ، تحت الدرج الحديد في ١٩ تموز... شخصان على الأقل يشهدان بذلك ، ولاحق لنا في أن نشك بأي منهما... ويؤكد هذان الشخصان ، وهما أمين مستودعك والريّس هيوارد ، أن السدادة المختومة كانت منزوعة وأن جزءاً من السائل كان ناقصاً...

« وبالنظر لأنك لم يخطر لك أنك قد تتناولك شبهة في التسبب بموت أوكتاف موقوازان ، فإنك لم تفكري بوجوب التخلص من تلك الصفيحة التي كانت في مكانها في مستودع تتكدس فيه ، كما قلت ذلك بنفسك ، بضائع مختلفة... ولعلك ما عدت فكرت بأمرها البتة ؟...

« وحين وضعها الرئيس، هيوارد بقربك ، عندما أبدى ملاحظته بأن الصفيحة نزعت سدادتها المختومة فاختار غيرها ، أدركت الخطر...

«وقد كفاك أن تجتازي الرصيف وأن ترميها في الماء... ويفيدنا شهود آخرون بأنه أمر يجري وأن هذه الحركة منك ما كانت لتلفت أي انتباه ...

طوال أسابيع ،جيل ، في مكتبه في رصيف الـ : أورسولين ، ساعد خالته بكل الوسائل التي تحت تصرفه . وقد ساعده رانكية في ذلك ، الذي أفلح ، بفضل علاقاته في الشرطة ، في إطلاعه على مجرى التحقيق يوماً بيوم .

في كل صباح تقريباً ، في الساعة الحادية عشرة ، كان موڤوازان يدخل الى مشرب «لوزان» . والرجل الذي كان يقترب من بابان ويشد على يده بصمت لم يعد تماماً جيل موڤوازان ذاك ، ولم يكن أوكتاف موڤوازان كذلك .

من هذا الأخير ، اكتسب مع ذلك بعض الثقل في الحركات ، وشحاً في الكلام وشيئاً يشبه غلالة من عزلة كانت تحيط قديماً برجل رصيف الـ : أورسولين .

ـ هل رأيته ؟

وكان بابان يجيب برقة من جفنيه .

ـ هل فهم ؟... ألن يبالغ ؟...

كان يحدث له أن يتصل بالهاتف بـ : پلانتيل ، بل بعضو مجلس الشيوخ پونو ـ راتوه . وكان الوزير السابق ـ وجيراردين تجهل أن ذلك نزولاً عند إلحاح جيل اللجوج ـ هو الذي يتولى الدفاع عن الأرملة إيلوا .

وطوال ساعات ، ينصرف جيل الى ترتيب ملفاته ، ويوقع على شيكات ، ويمزق عدداً من الوثائق ، وأحياناً يستدعي الى مكتبه في الطابق الثاني تاجراً أو متعهداً يغادر المنزل مبهوراً .

ماذا يهم أنه ذهب الى روايان مع أليس وأبويها ؟ فقد بقي وحيداً وهو في صحبتهم . وهم لم يفعلوا أي شيء يسوؤه ، كما أن فرحة وافتخار السيدة لوپار ، وهي تدخل في ساعة تناول الشاي الى غرفة الكازينو ، كانت رؤيتها ممتعة .

ـ زوج مثل ذاك ، ترين ، يا أليس...

ـ نعم يا أمي... أعرف... إنه يفعل كل ما أريد...

أما ما يتكلفه ذلك من مال! إنه أمر هو خارج دائرة اهتمامه ، وفي كون لا يعنيه البتة .

ـ ألا يحسن أن تذهب لرؤية كوليت ؟

ليس بعد... قد يذهب ، ولكنه لا يعرف متى...

وتجاوزوا مدينة روشفور ... وقد سلكوا الطريق المستقيم مباشرة ، يتجاوزون في تقدمهم مجموعات من صفوف طويلة من سائقي الدراجات الذين أنهكهم عيد العنصرة . وفي المقعد الخلفي ، السيدة لوپار تبتسم للملائكة ، وأحياناً تسلم على شخص يخيل إليها أنها تعرفه . وكان لوپار يدخن غليونه الجديد .

لماذا دست أليس يدها واضعة إياها على ركبة جيل وأخذت تضغط بإلحاح ؟... وتظاهر هو بأنه لا يلاحظ ذلك . وبعد اجتياز عشرة أو خمسة عشر كيلومتراً ، انحنت عليه وهمست :

ـ جيل ...

كان عليه أن يراقب الطريق ، ولم يكن يستطيع أن يلتفت لناحيتها .

ـ يجب أن أكلمك يا جيل ...

وهو ، بأكثر ما يمكن من الطبيعية في العالم...

ـ غداً...

ورؤوا من بعيد مقاهي الرصيف سوداء اللون لما فيها من رواد .
وتجنبوا المرور من أمامها وداروا حول المدينة . وتوقفت السيارة في زقاق جوردان ، أمام منزل عائلة لوبار .

ـ ألا تنزلان للحظة ؟... لا... أنا حمقاء... لابدّ أن جيل تعب...

وعلى الرغم من أنه كان يوم عيد ، فقد صعد الى مكتبه .

ـ هل أزعجك يا جيل ؟...

ومرت بنظرة سريعة على هذا المكتب الذي تحس نفسها غريبة فيه ، وبهدوء ، أومأ جيل لها بأن نعم فابتعدت هي متراجعة بينما رفع هو سماعة الهاتف .

بضع ساعات أخرى ويكون الأمر انتهى . وقلّما حدث أن مرت نصف ساعة من دون أن يرن الهاتف ، بل كان يقع لجيل أن ينتظر ويده فوق السماعة .

ـ رانكية ؟

ـ الأمر يسير على نحو جيد يا معلم... في البداية كانت القاعة تضج مزبدة... وهدد رئيس المحكمة بإخلائها فاستتب النظام مجدداً فيها...

وكان جيل قد ذهب قبل أيام ليلقي نظرة على قاعة محكمة الجنايات . في مثل ذلك الطقس ،يتوجب أن تبقى النوافذ مفتوحة على عرضها ، فالحرارة ، بسبب الازدحام ، لا تطاق .

ـ كانت هادئة جداً... ومن لحظة دخولها ، أجالت على جمهور الحضور نظرة حازمة...

في الساعة الحادية عشرة ، جاءت مخابرة هاتفية من فونتونيه ـ لوكونت ...

ـ أهذا أنت يا جيل ؟... ألم تذهب لحضور المحاكمة ؟... هذا ما خطر فعلاً لي... أعتقد أيضاً أن ذلك أفضل... هل تسمح لي بأن أخابرك من حين لآخر لمتابعة المعلومات ؟... كيف هي ؟...

ـ وضعها جيد ...

صمت .

ـ أتصل بعد قليل يا جيل .

ـ بعد قليل يا امرأة عمي .

ثم دور بابان . هو ،اتصل من غرفة ملابس المحامين ، وراحة يده مخيّمة كالبوق أمام فمه . تكلم بصوت منخفض ، وعلى السامع أن يبذل جهده ليحزر كلماته ...

ـ كل شيء على ما يرام... لقد مرّ هيوارد قبل قليل... وكما توقعنا ، نعم...

بما يعني أن الرئيس هيوارد أبدى دهشته في الجلسة للأهمية التي علقت على كلامه . وهو يتذكر بالتأكيد أمر صفيحة ما نزع عنها الغطاء المختوم . ولكن هل كانت تلك صفيحة « دواء مكافحة الجرذان » فعلاً ؟... وقد ألح المفوّض إذ ذاك بحيث إنه تخلصاً من المفوض قال له نعم ... فهو في ذلك اليوم قد اشترى عدة صفائح من الدهان لزورق ابنته ... كان يمكن أن ... والأمر قديم لدرجة ...

الظهر

ـ أهذا أنت أيها المعلم ؟... يريد(ون) الانتهاء من ذلك اليوم... تقرر من الآن أن تستأنف الجلسة في الساعة الواحدة... سرى همس أتريد أن ...

وتوقفت سيارة پلانتيل أمام المنزل . وصعد مجهز السفن الدرج بخطوات واسعة . ومن دون أن يقرع ، دفع باب المكتب ، كشخص

اعتاد التردد على المنزل ، وترك نفسه يسقط في المقعد الوحيد ومسح عرقه .

ـ يا له من حرّ!... علماً بأنني حاصل على مقعد متميز وراء هيئة المحكمة !... وقد استطعت أن أتبادل بضع كلمات مع پونو ـ راتوه... برأيه ، سيسير كل شيء على ما يرام... اذا ما تذكر أمين المستودع الأبله ذاك ، الدرس الذي جعلناه يحفظه...

ـ وخالتي ...

ـ في لياقة كاملة ، بأفضل من حالها في أي يوم آخر... لدرجة الاعتقاد ، في بعض اللحظات ، بأنها ماثلة هنا ، إنما لتحاكم هي الآخرين... وقد قاطعت رئيس المحكمة مرتين... أتركك... معي بالضبط الوقت لتناول لقمة و...

وتوقف عند الباب . صار فجأة أقل ثقة بالنفس .

ـ أما نزال على اتفاقنا لهذا المساء إذا ...

إشارة بالرأس ...

ـ ألو ، أيها المعلم ...

رانكية مجدداً !... حمي الوطيس... پونو ـ راتوه أصبح شرساً... واذا استمر ذلك ، فالشرطة هي التي تكون التي يتولى هو محاكمتها... لقد جن المفوض غضباً... وقد سُمعت شهادته مرتين ، ونظراً لأنه أخذ يجيب بنزق ، تم لفت نظره للالتزام بالانضباط...

ـ ما الأمر يا مارت ؟

فقد قرعت الخادمة الباب ودخلت .

ـ السيدة تريد أن أسأل السيد إن كان سيدي ...

ـ قولي لسيدتك إنني أرغب في ألا يزعجني أحد...

المرافعات أخيراً...

ـ ألو ... يوجد على الأقل مائتا شخص أمام قصر العدل ...

الساعة السادسة

ـ ما تزال هيئة المحلفين مستغرقة في مداولاتها... يبدو أن هذه علامة جيدة... وقد نطق الرئيس بخطاب قصير قال فيه إنه في حالة الشك ، فمن واجب كل واحد...

كان جيل مضنى من التعب عندما رفع السماعة لآخر مرة .

ـ أنا مصغ ، نعم...

ـ تمت تبرئة جيرارديـن إيلوا... وقامت مظاهرات ، نصف الحضور كانوا مع و...

طوال عشر دقائق أخرى ، بقي جيل وحيداً . قضى ذلك الوقت أمام مكتب عمه ذي الدرج المخفي ، حيث رتب قمصان الورق الصفراء في حقيبة جلدية .

أيضاً الهاتف...

ـ نعم يا امرأة عمي... تمت تبرئتها...

ـ هل أنت مسرور يا جيل ؟...

ونسي أنه على الهاتف وأومأ برأسه علامة الإيجاب .

ـ ألو... لماذا لا تقول شيئاً ؟... ليتك تعرف كم أفتقدك ...

ـ ادخل ...

كان ذلك پلاتتيل . وجيل ما يزال مخيماً بيده على بوق الهاتف .

ـ طاب مساؤك يا امرأة عمي... في يوم ما ، نعم...

ولاحظ ابتسامة خفيفة على شفتي مجهز السفن ، وهز كتفيه وهو يتناول الحقيبة وقال :

ـ هيا بنا ...

المدينة التي اجتازاها ، كانت حركة الحياة أكثر نشاطاً فيها من المعتاد والتفت بعض الناس نحو السيارة . ودخلا لعند الأستاذ هرڤينو ، لا عن طريق مكتب موظفيه ، وإنما من المدخل الخاص :

كان الكاتب العدل هناك ، في نصف العتمة ، وكذلك عضو مجلس الشيوخ پونو- راتوه وبابان .

- ستقدم اليورتو ثم تتركنا يا جوزيف...

ولاحظ جيل أنه رغم الفصل الحار ، كانت نار الأحطاب مشعلة في الموقد ، مثلما في المرة الأولى يوم دخل الى هذه الغرفة .

وقال جيل وهو يضع حقيبته على طاولة صغيرة مستديرة السطح :

- أشكركم أيها السادة .

- أعتقد يا سيد موڤوازان أننا وفينا بالالتزام الذي تعهدنا به في...

ولكن جيل نظر الى الكاتب العدل بطريقة جعلت هذا الأخير يلزم الصمت .

ثم فتح حقيبته وسحب منها بعض الوثائق .

- أهو هذا يا سيد پلانتيل ؟... أهذا هو يا سيد بابان ؟... وأنت يا سيد هرڤينو ؟...

كان يعرف جيداً أن النار إنما أشعلت توقعاً لهذا الاحتفال . وبحركة لامبالية ترك الأوراق تسقط فيها والتي التهبت على الفور .

واتجه هرفينو عندئذ الى الطاولة الصغيرة التي جهزت كؤوس فاتح الشهية عليها .

- آمل أنك لن ترفض أن ...

ولكن جيل نظر إليهم مرة أخرى ، بعد أن استعاد حقيبته التي رقّت لفراغ ما فيها ، وترك العبارة تسقط من فمه :

ـ طاب مساؤكم أيها السادة ...

عندما عاد الى رصيف الـ « أورسولين ، فوجئ بالصمت الذي كان سائداً فيه . كانت غرفة الاستقبال خالية . وشق باب المطبخ . وقالت مارت له :

ـ السيدة راقدة ...

وانعقد حاجباه ودخل الى غرفة النوم التي لم يكن يضيئها إلا مصباح ليلي واهن النور . كانت أليس متمددة ، وهي بكامل ملابسها على السرير الذي لم يمس ترتيبه ، وعيناها حمراوان .

ونظر إليها ، وهو واقف ، يساوره بعض القلق من هذا الإخراج الغريب .

ـ جيل ... إنني أتساءل ... لعلك ستغضب ؟... لكنه ليس ذنبي ، أقسم لك!... لم تشأ أمي أن أخبرك بذلك قبل أن يكون انتهى كل شيء ... اجلس بجانبي يا جيل ... أمسك يدي ... أعتقد ...

وقد جلس بطريقة خائبة على حافة السرير ممسكاً بيد زوجته ، وبدا يشبه بعض الشيء طبيباً يمسك بيد مريض ليقيس له نبضه .

ـ ... أعتقد ... أعتقد أنني سأرزق طفلاً يا جيل...

لم تجرؤ على أن تنظر إليه ، وقد ارتاعت من الصمت الذي ساد الغرفة فجأة...

ورآها تتحرك حركة خفيفة لتراقبه من خلال رموشها نصف المغمضة .

ـ ألا تقول شيئاً ؟...

ـ ماذا تريدينني أن أقول ؟

ولأن الدموع أخذت تنتفخ في جفون أليس ، انحنى عليها ليقبلها...



الخاتمة

السهرة في فونتونيه

بعدما اجتازت السيارة وهدة أخيرة في الطريق ، اكتشف جيل أنوار فونتونيه ، تومض مثل نجوم في سماء نديّة الرطوبة . كان قادراً على أن يقرأ في هذا السديم مثلما يقرأ آخرون النجوم . فالشريان الكبير ، المستقيم كلياً ، بجانب سحابة بخار لبنيّة اللون متصاعدة من قاطرة ، والذي تضيئه مصابيح أقوى نوراً من المصابيح الأخرى ، هو شارع الجمهورية ، وفي المكان الذي يتيح وهج الضوء فيه تمييز الخطوط الخارجية لسقوف الأبنية ، تراصفت بضعة المخازن التي في المدينة .

سيجتاز جيل الجسر ، ويمضي صعداً حتى يبلغ ساحة ڤييت فيمرّ سيراً على الأقدام بمحاذاة أسفل الكاتدرائية التي غاب عنها لونها ، وفي زقاق منحدر مأهول بحرفيين صغار ، سيرفع المطرقة النحاسية لأحد الأبواب ، أو هو بالأحرى لم يعد في حاجة لأن يرفعها . كان عدد ضئيل من السابلة يمرون من الزقاق بحيث ان جيل ، وبنوع من خفر ، كان يترك سيارته في ساحة ڤييت .

كانت تلك ساعته ، عند الغسق ، حين تبدو الظلال أكثر طراوة في داخلها ، وكأنما انتفخت بالأسرار الغامضة .

ألم يتنزل في مدينة الـ « روشيل في مثل هذه الساعة ، ذات مساء يسبق عيد جميع القديسين بيوم ، أليس في مثل هذه الساعة أيضاً كان يلتقي أليس - فم رطب ، ووجه أخذت تطمس العتمة ملامحه ، وجسد يلزّ نفسه الى جسده - في ممرات الحديقة العامة الكبيرة ؟

وقد تركت هذه الفكرة وقعها في نفس جيل وهو يقطع شارع الجمهورية من جهته الأقل إنارة . إن البهائم أيضاً لها ساعتها . التي تحيا فيها حياة أحفل ، فلماذا لا تكون للناس ساعتهم كذلك ؟

وبقدر ما أوغل بعيداً في ذكرياته ، فإن جميع المدن وجميع الشوارع التي كانت صورها تحضر إليه ، إنما يتذكرها ساعة الغروب . ربما لأن أبويه كانا إنسانين متشردين يتيهان في الأرض ؟ في الساعات الخفيفة التي تضيئها الشمس في النهار ، لم يكن يراهما . إذ يكونان غارقين في نوم ثقيل في غرفة ما من أحد الفنادق ، الستائر تسد النوافذ كلياً ، وأحياناً تنفذ جلبة الشارع بعنف الى مخدع النوم محركة مزقاً من وعي .

كانا ينهضان من النوم في ساعة متأخرة ،في معظم الأحيان في الساعة الثانية من بعد الظهر . وأحياناً في ساعة أكثر تأخراً . ولم يكونوا يتناولون وقعة حقيقية حول مائدة عائلية ، بل يأكلون أشياء باردة اشتروها في اليوم الفائت من دكان لا يعرفونها . وكان ثمة بقايا قليلة من خبز أو أنواع السجق على ظهر المدفأة الجدارية أو الطاولة الليلية .

وتبدأ الحياة بالنسبة إليهم عندما تكون انتهت بالنسبة للآخرين . وفي مثل تلك الساعة ، يكون للمدن ، في كل أنحاء العالم ، الطعم ذاته ، وتنساب أشباح الناس بالأسلوب نفسه عينا بمحاذاة واجهات المتاجر .

وأخيراً ، بعد أن يقدم العرض ، ويكون السكان غارقين في النوم في بيوتهم ، يظل دائماً في مكان ما ، وراء السيرك أو المسرح ، مطعم صغير يديره فنان سابق ويلتقي المرء فيه معظم الذين قدموا عرضهم في السهرة : لاعبو الحركات البهلوانية ، وزوج الراقصين ،

والسيدة الطيبة ذات الحمائم ، والبهلوانات الطائرة .

وكانوا يتناولون أصناف طعام منشؤها الأصلي هو من مختلف البلدان : غولاش هنغاري ، وبليـنيس على الطريقة الليتونية ، وإوزة مدخنة من بولونيا ، وسمكاً من بحر البلطيق ، ويدور الكلام عن «پالآديوم» لندن ، و«كُرسأال» ڤيينا ، وقصر مرايا بروسيل عاصمة بلجيكا...

وحيداً وراء مقود سيارته ، بلغ جيل بها طرف شارع الجمهورية . وأمام «مقهى الپون ـ نوف» ، مقهى الجسر الجديد ، على يمينه ، وقعت نظرته على سيارة صغيرة ضاربة الى الخضرة ، سيارة الطبيب سوڤاجيه .

وعلى الرغم من أن ستائر المقهى مسحوبة على النوافذ وتحول دون رؤية ما بالداخل ، كان جيل يعرف أن الطبيب قد جلس في الركن الأيمن ، في النور الدبق للصالة ذات الأخشاب قاتمة اللون ، مع ثلاثة آخرين ، أمام غطاء طاولة قرمزي ، يلقون عليه بجدية بالغة أوراق اللعب .

كل يوم ، وفي الساعة عينها... وفي كل يوم أيضاً كان يشرب العدد ذاته من كؤوس فاتح الشهية ، ويتصاعد توتره وتزداد عصبيته مع اضطراد تقدم دور اللعب ، لينتهي الأمر به وهو يشعر بالمرارة ، والتمرد ، ويخوض المشاحنات الكلامية باحتداد .

في ساحة ڤييت ، ترك جيل سيارته ، ورنت خطوته وسط هدوء زقاق كردڤان . من بعيد ، كانت نظرته التقطت أصلاً النور الراشح من نافذة معينة على اليمين ، كما أنه لم يحتج لرفع مطرقة الباب بأكثر مما في المرات السابقة . خطوات مختلسة على بلاطات الدهليز الكبيرة . وانفرج الباب . ركن حياة حميمة .

ـ طاب مساؤك يا جيل ...

لابد أن المنزل في زقاق الـ : إيڤيسكو كان يشبه هذا . الأشياء فيه ، وقطع الأثاث كانت بسيطة جداً ، إنما يكاد يقول المرء إن كل قطعة منها ، حتى قضيب تحريك النار ذا الكرة النحاسية ، كانت لها حياتها الخاصة بها . يتولد انطباع في المشاعر بأن المرء يحس جريان الزمن ، والانقضاء البطيء للدقائق ، كما يحس ارتعاش ماء جدول يغمس يده فيه .

عمل حياكة على الطاولة ... وتستعيد كوليت مكان جلوسها بقرب ما كانت تشتغل به... فمنذ خمسة عشر يوماً وهي تعيش في هذا المنزل المؤلف من أربع غرف ، لأن أمها كانت توفيت بالتهاب الرئة .

ونظرة تعني :

ـ أهو في المقهى ؟...

كانت تعرف أن جيل في مروره لا يفوته أن يلقي نظرة على السيارة .

أمر غريب ، فأليس هي التي ألحت قبل بضعة شهور قائلة :

ـ من واجبك أن تذهب لرؤية زوجة عمك...

كان فكرها أن ذلك سوف يحسن وضعه النفسي . إذ كان جيل يخيفها أحياناً ، لشدة كثافة كتلة العزلة حوله .

وكانت أمها التي صارت تأتي أكثر فأكثر الى منزل رصيف الـ : أورسولين تنصحها قائلة :

ـ ينبغي أن تحاولي الترويح عنه .

ـ أحاول يا أمي... إنما في كثير من الأحيان ، وهو الى جانبي ، يبدو عليه أنه لا يراني...

ـ إنه يغالي في استغراقه بالعمل ...

ومع ذلك ، فإن جيل كان يلبيها في كل ما تطلب ، ولا يقول أبداً : لا . والسيدة لوپار ، من يوم يومها وهي تحلم بقضاء عطلة صيفية في روايان ، ومنتهى السعادة أن تعيش فيها في ڤيللا نوافذها تطل على البحر .

ـ أتساءل يا جيل إن لم يكن يفيد أليس وهي في حالتها هذه أن...

واستأجر ڤيللا في روايان ، ورتب إقامة زوجته وحماته فيها . وكان يأتي في كل مساء لينام ليلته هناك . كانت أليس تحمل أمومتها المقبلة بزهو وتفاخر ، بل يكاد يلوح أحياناً أنها تتقصد نفخ بطنها الصغير . ولكن ذلك لم يكن يمنعها من الذهاب الى الكازينو والرقص وأن يكون لها صديقات وأصدقاء .

ـ لماذا لا تأخذ بضعة أيام يا جيل تخلد فيها الى راحة تامة ؟

نعم ، لماذا ؟ فما من شيء كان يرغمه على الصعود في كل يوم وفي الساعة ذاتها الى مكتبه في الطابق الثاني . كان پلانتيل محقاً ، فالأعمال عندما تبلغ حداً معيناً من المتانة ، فهي تعيش بشكل ما بفعل قوتها المكتسبة .

لكن ما الذي بوسعه أن يفعله غير ذلك ؟ إلا أن دارة حركته اليومية لم تكن قد ثبتت نهائياً بعد ، منغلقة الدورة كلياً مثلما بالنسبة لعمه . ومع ذلك ، فإنه اتضحت خطوط مشروع أولي لتوزيع الساعات ، واستقر أمر بعض المحطات لا تتغير ،مثل كأس الپورتو في الساعة الحادية عشرة في « مشرب لورّان » .

وفيما حوله ، كانت هناك مدينة ، بمنازلها ، وسكانها ، وتجمعاتها التي تتفاوت درجة تمايزها عن سواها ، وعائلاتها التي تتباين في قوة ترابطها . وهناك مصائد السمك ، والمصانع ، مؤسسات أعمال من كل نوع وصنف ، ولكن منزل رصيف الـ :

أورسولين كان يبدو وكأنه قد زرع ، وحيداً ، وسط كل ما عداه .

في ذلك المنزل أيضاً ، أخذت تنتظم حياة غريبة . فعند دخول جيل الى غرفة الاستقبال كان يجد فيها حماته ، أو خالة أو عمة لزوجته ، أو أيضاً صديقات لزوجته لا يعرفهن أو يكاد .

وكان يحيي . وينتحي أحد الأركان يجلس فيه ، ثم وبعد مدة وجيزة جداً يحيّي معتذراً ويصعد الى الطابق الثاني .

ـ يجب أن تذهب لرؤية زوجة عمك...

الآن ، كل المدينة ، التي كانت قد قامت في وجهه ضده ، يوم جاء من ذلك المكان القصي ليتلقى ، على غير توقع منه ، الإرث الذي خلفه موفوازان ، كل المدينة صارت جاهزة لاستقباله .

هل اعتقد الناس أنه صار مثلهم ؟ الأرجح هو ذلك . ولابد أنهم تداولوا القول :

« الصغير موفوازان فهم... » .

ذلك لأنه كان يجلس في ساعة محددة في مكتب ، ولأنه يتصل بالهاتف ، ويصف الأرقام بعضها بجانب بعض وبعضها فوق بعض ، وينشغل بأمر سيارات السفر ،والشحن ، والأمتار المكعبة من المواد ، واستهلاك الوقود ، لأنه يسوّد الفواتير ويدفع الشيكات أو السندات ويحيي الناس في الشارع ساهم النظرة .

ـ هل تتناول العشاء معي يا جيل ؟

فقد ذهبت كوليت لإذكاء النار في الموقد الذي كان العشاء ينضج على نار بطيئة في زاوية منه . وبسبب وفاة أمها ، ارتدت مجدداً ثياب الحداد من رأسها الى قدميها ، وهو لم يكن يتخيلها بصورة مختلفة .

أخذت تروح وتجيء ، ومدت غطاء على الطاولة ، وتناولت من الخزانة صحوناً وأدوات طعام .

ـ هل الصغير على ما يرام ؟

نعم . كان في خير حال مادام ليس مريضاً . وللحق فإن جيل لم يكن يشغل نفسه به . ويغتاظ من نفسه أحياناً بسبب ذلك . وفي البداية أصابه فزع حين أحس نفسه بلا عاطفة أمام الوليد الذي كان ابنه مع ذلك . واعترف بالأمر لكوليت .

ـ لا حيلة لي في ذلك يا امرأة عمي... أحاول... وعلى الرغم مني ، أنظر اليه على أنه غريب... إن أشخاصاً آخرين يحيطون به ، وأولئك الأشخاص هم الذين يؤلفون عائلته الحقيقية : أمه ، ومرضعته ، وجدته ، وصديقات يأتين في كل يوم تقريباً...

هنا ، في هذا المنزل الصغير ، حيث كان النواس النحاسي لساعة جدار قديمة يجر وراء حركته انعكاس شعاع ضوء ، بينما تروح كوليت وتجيء ، وتختفي أحياناً في المطبخ الذي ترن فيه أصوات أليفة ، كان يتولد لديه الانطباع بحياة أسرية لرجل وامرأة في بيتهما...

لم يعد سوفاجيه يأتي في كل يوم . ويجد الأعذار ، ويتذرع بمرضى عليه أن يذهب لعيادتهم . في بداية الأمر ، بكت كوليت كثيراً . واعترفت لجيل :

ـ إنه لم يعد الرجل ذاته . لقد خرج من السجن سريع الاحتداد ، متمرد النفس... وأحياناً يلوح عليه أنه يمقتني ، ويعتبرني المسؤولة عما حدث ...

غرام ، ما كان أجمله وكوليت شبه حبيسة في دير في منزل رصيف الـ : أورسولين ، والعاشقان يلتقيان خلسة في زقاق الـ : إيقيسكو!

من الرجل المتقد ذي الوجه المؤرق والعينين المحمومتين ، وفي الوقت الذي بات ممكناً فيه لذلك الحب أن يزدهر أخيراً ، لم يبق إلا

لاعب ورق ، وشارب كؤوس فاتح شهية يخرج عن طوره ، شأن من يتعاطى المخدرات ، عندما لا يجلس في ساعة محددة الى طاولته في المقهى!

ـ ألا تقول شيئاً يا جيل ...

فترات الصمت الطويلة هذه ، كان يحدث كثيراً أن تسود بينه وبين كوليت ،وفي معظم الأحيان يخيفهما ذلك .

ـ أتساءل يا امرأة عمي ...

لم يكن يجرؤ بعد . بدا له أنه سيمس شيئاً بالغ الهشاشة جداً ، هذه السعادة المشربة ببعض أسى ولكن الدافئة جداً التي كانت تلفهما في المساء في منزل زقاق كردڤان .

ألا تكفي كلمة واحدة ، جملة واحدة ، ليتبدد كل شيء ، أوَ لن يجدا نفسيهما عندئذ وسط فراغ مريع ؟

منذ أيام وأسابيع وهو يفكر بذلك .

ـ لا أريد يا امرأة عمي ، طبقاً لما كان عمي عليه ...

ومنذ زمان عرفت هي ذلك ، أحسته وهو يتخبط ضد نفسه . كان ميراث أوكتاف موڤوازان يسحقه . ويخاف أن تعلق ساقاه وهو يغوص فيه ، بشكل إرادي تقريباً ، بتوحش .

ـ أصغي يا امرأة عمي ...

ـ ما الذي تنوي أن تعمله ؟

ـ تعرفين ذلك جيداً... أريد أن أرحل... لكن...

ورأى أنها كانت ترتجف ، وأنها بلا دفاع .

ـ أريد أن أرحل معك ، مثلما رحل أبي وأمي ، هل تفهمين ؟

لم تكن كلماته تعبر عن فكرته . كان يود لو يعبر بواسطة صور ، بلمسات الظل والضوء... مثلاً ، أقواس زقاق الـ : إيسكال ،

بالقرب من المعهد الموسيقي نابض الجو بالموسيقى ، والثنائي حين قرر الاثنان الهرب معاً...

مقبرة نيول... الجدة ذات الوجه دقيق الملامح... كان لها ابنان ، كان هنالك اثنان موڤوازان... وذلك الذي اعتاد أن يذهب كل يوم الى الـ : روشيل ، وصندوق كمانه تحت ذراعه ، رحل...

والآخر بقي ...

شقيقة أمه صارت واحدة من عائلة إيلوا وبقيت...

هو كان من الصنف الآخر ، من أرومة الهاربين ، التائهين في العالم ، وقد أحس بجلاء ، من أول مرة وضع فيها قدميه في منزل رصيف الـ : أورسولين ، أن كوليت كانت من صنفه ذاته .

أليس بسببها ، بقصد النجاة من الدوار في رأسه ، تزوج أليس ؟ الآن ، انتهى ذلك . كان يعرف . وكرر بصوت منخفض :

ـ أليس ذلك يا كوليت ؟... وسنرحل نحن الاثنان ؟...

حتى ولم يقترب منها ليقبلها ، ليضمها بين ذراعيه . الأمر كان أعمق كثيراً من ضمة الى الصدر ، وأخذ ينظر اليها باتقاد ، منعقد الحلق ، وقال أيضاً ، كمن يلهث :

ـ أليس كذلك ؟...

كانت المائدة ، بينهما ، ممدودة . ديكور بسيط ، تافه ، صحون ، وقطعة جبن ،ورغيف خبز كبير ، ومع ذلك كان جيل يجد في ذلك شاعرية غرفة الفنادق حيث تناول الطعام بالطريقة ذاتها مع أبيه وأمه ، وسط دنيا غير معروفة ، ومدينة لا يهم ما هي ، تواصل حياتها الخاصة التي ما من علاقة لها أياً كانت مع حياتهم .

ولم تحتج كوليت . وظلت تحدق إليه . ومدت ذراعاً ولمست رؤوس أناملها يد جيل .

وهمست حالمة ، كما لو أنها تستشف كل الأعوام التي ستأتي ، وتحسب أفراحهما وبأساءهما :

ـ هل تعتقد ...

وعندئذ خيل إليها أن غشاوة انزاحت عن وجه جيل ، وأن وجهه الحقيقي يظهر للضوء ، وابتسامة حقيقية ، ابتسامة فتية ، بدت عليه أخيراً .

ونهض . وقلب كأساً في نهوضه ،ووضع يديه الاثنتين على كتفي زوجة عمه وأرغمها على أن تنهض هي أيضاً .

ـ أوه ! يا كوليت ...

لم يكن ذلك اندفاعة عاطفة حنان فقط ، بل حركة امتنان كبيرة . لأنها أنقذته بما صدر عنها للتو . وتطلع الى المستقبل ، هو أيضاً . إنه يخلّص نفسه نهائياً من كل هذه الحياة التي أرادوا أن يحتجزوه في إسارها وهو لم يخلق لها .

وعاد طفلاً تقريباً . وأخذ يردد وهو يضمها إلى صدره بقوة لدرجة أنه يكاد يخنقها .

ـ كوليت ! ... كوليت !...

وتردد في أن يتمتم الكلمة الوحيدة التي وردت الى شفتيه :

ـ شكراً !...

عندما نظرا مجدداً الى ما حولهما ، أحسا جسميهما خاويين ، مثلما عقب مرض طويل ، وكانت على شفتيهما ابتسامة فرحة .

ـ لنتكلم بشكل جاد يا جيل ...

قالت ذلك من دون أن تصدق ما تقول . فما من شيء باتت له أية أهمية الآن . وكان بمقدورهما أن يستحضرا التفاصيل العملية ، ولكن ذلك ما كان إلا لعبة بالنسبة للقواعد المرتضاة بينهما :

ـ ما الذي سنفعله ؟...

وكان يعرف أن ذلك سيان عنده ، وأنها غير خائفة ، وأنه من اللحظة التي سيصيران اثنين فيها ...

ـ سنفعل أي شيء... إنني أعزف على ثلاث آلات... وحتى ...

ابتسامة حنون ومنتصرة :

ـ وأعرف قليلاً مهنة والدي الأخيرة ... واذا اقتضى الأمر ، سنفعل مثل أبوي ، أليس كذلك ؟...

في تلك اللحظة فقط غامت عيناه ، بندى ترقرق فيهما ، وأشاح بوجهه بخفر . بدا له أنه يشرك أبويه بالقرار الذي أتى على اتخاذه ، وأنه يقترب منهما ... إلى حد أنه اعترته الرغبة في أن يكلمهما .

مال موڤوازان لم يُطرح أمره . ما كان يمكن أن يرد موضوعه . ستحتفظ أليس به . وستسعد من دون جيل بأكثر مما وهي معه .

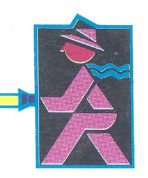
ـ لو تعرفين يا كوليت ، كم أنا ...

ما الكلمة التي ينبغي العثور عليها... كل الكلمات مفرطة في ضعفها . كان قلبه يقفز ، لم يعد مخلوقاً من لحم ودم ، لم تعد قدماه على الأرض...

ـ كم أنا...

كانت دقيقة العود كلياً أمامه ، دقيقة لدرجة ، بحيث لم يملك مقاومة الرغبة في أن يرفعها محمولة على ذراعيه ، كما لو أنه على الفور سيحملها معه ويرحل بها بعيداً .

عندما أعادها الى الأرض ، كان الاثنان يبكيان وهما يضحكان ، وعبر الدموع ، يرى كل منهما الآخر بوجه تغير شكل خطوطه مثلما الوجوه في حلم .



عندما يكون موضوع النزاع ميراثاً ، فالنفوس الطيبة تظهر فجأة سوادها . وسيتحالف شاب وزوجة عمه ، اللذان تجابها في البداية ، ضد الذين نظروا إليهما على أنهما فريستان ساذجتان .

تجري أحداث الرواية في مدينة الـ : روشيل ، وهي لوحة قوية عن الحياة في المحافظات ، وعن الأحقاد العائلية ، والحسد ، وكذلك النذالات التي يكثر أن نراها تُقترف في أوساط البرجوازية الميسورة من أجل قضايا المال . إنها أيضاً رواية عن البسالة ينتصر فيها ، لهذه المرة ، الطيبون على الأشرار ، والضعفاء على الأقوياء .



دار المدى للثقافة والنشر